القباب الإسلامية

عمارة فوق العادة

تأليف

مجموعة كُتّاب

الكتاب: القباب الإسلامية .. عمارة فوق العادة

الكاتب: مجموعة كُتّاب

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

القباب الإسلامية .. عمارة فوق العادة / مجموعة كُتّاب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨–٨٥١ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع :١٩٢٦٧ / ٢٠١٨

القباب الإسلامية

عمارة فوق العادة





مقدمة

للقباب في المساجد دور جمالي رائع لا تكاد العين تخطئه من الوهلة الأولى، فإذا ضممنا القبة إلى المئذنة وهما دائمًا مُتلازمتان في المساجد، لتكونت أمامنا صورة جمالية تُضفي على المسجد توازنًا في الشكل يرتاح إليه النظر، وما ذلك إلا دليل واضح على تمكن المهندسين المسلمين من رسم لوحة مُتكاملة للمسجد؛ كي تُشكل إبداعًا معماريًا فتانًا يطغى على الكتلة الحجرية الجامدة. وإذا كانت القبة خارج المسجد توحي وكأنها مُتجهة إلى أسفل في رمز لتواضع المؤمن بين يدي ربه، فإنها من الداخل تُعطي انطباعًا عكسيًا يُعبر عن التصاعد والحركة الرأسية لأعلى، حتى يكون المؤمن وهو يعيش جو العبادة عمليًا داخل المسجد مُحاطًا بالإيحاء بالارتقاء والسمو والتعالي. إنَّ القبة في المسجد أكثر من ظاهرة معمارية استخدمت لأهداف عدة، إنها رمز لقبة السماء العُليا التي ترنو نحوها الأبصار، وتتحرك باتجاهها القلوب، في مزيج من الأمل والخوف والحب والإجلال.

ظهرت القباب في المباني عمومًا أول الأمر في آسيا، ثم انتقلت إلى الفرس واليونان فالرومان قبل أن يتلقاها المسلمون، ولا يخلو طراز من طُرُز الفنون الإنسانية الكبرى من القباب إلا الطراز المصري القديم، ثُم توالت القباب في المساجد حتى ندر أن نرى مسجدًا له مئذنة دون قبة، بل إن

القباب قد زادت على المآذن من حيث استخدامها في غير المساجد كالقصور والأضرحة وغيرها.

ونقطة البداية في عمل القبة هي ابتكار العقد أو القوس، وأصل ذلك من ابتكار آسيوي، ولكنه تطور على أيدي الفرس والرومان تطورًا واسعًا، ثم جاء المسلمون فساروا بالعقود مدى أبعد وأكثر تنوعا. والملاحظ في العقود أن قوة الدافع الحادثة من ضغط الأحجار بعضها على بعض، وكذلك من وزن البناء الذي سيحمل على العقد، وتتوزع في العقود على قطع العقد وأرجله بصورة كاملة التوازن، وتنتهي باتجاه عمودي نحو الأرض. وهكذا فالقبة تنشأ من عقود مُتقاطعة في مركز واحد، وهو المفتاح الرئيسي الأعلى للقبة كلها، وقد لجأ المعماريون المسلمون لإقامة القباب إلى العقود فقط لأن سقف المسجد لا يحمل في العادة إلا القبة فقط.

هناك عدد من أنواع القباب مثل القباب الخشبية، وهي التي وجدت في بداية الأمر كقبة الصخرة في القدس ٧٢هـ، وكذلك كانت قبة الإمام الشافعي ٦٠٨هـ الأولى خشبية، وقبة جامع بيبرس (٦٥٥-٦٦٧هـ) وقبة مدرسة السلطان حسن بالقاهرة ٧٥٧هـ وغيرها.. ولاشك أن استخدام الخشب أسهل عند بناء القبة من استخدام الحجر، إلا أنه أضعف منه. ومن الطبيعي أن القباب الخشبية تكسى عادة من الخارج بطبقة من صفائح الرصاص للحماية من العوامل الجوية، بينما تُكسى من الداخل بطبقة من الجص كبياض داخلي عليه زخارف متنوعة. وهناك أيضًا القباب الحجرية أو المصنوعة من القرميد (الطوب) وهي كثيرة، ومنها قبة

مسجد الغوري بالمنشية ٩٠٩هـ وقبة خانقاه فرج بن برقوق ٨٠١هـ، وقبة أروقة الجامع الأقمر ٥١٩هـ، وقبة مسجد السلطان سليمان ١٦٠٩م باستانبول، بل إن معظم القباب القديمة إما حجرية أو قرميدية. وبحكم ثقل الحجر فقد كانت قبابه عمومًا أصغر من القباب القرميدية.

وقد لجأ المعماري المسلم لحل المعضلة الهندسية المتمثلة في الانتقال من المربع إلى المدور إلى استعمال العقود المتقاطعة لإقامة القباب، ومن هنا كانت الحلول المستعملة لتحويل المبنى المربع الشكل أو المستطيل إلى دائرة عن طريق ما يُسمى المثلثات الكروية (وهي طريقة رومانية)، أو تحويل الحافة المُربعة للجدران إلى هيئة مُثمنة، ثم إقامة أعمدة تعتمد على الأكتاف الثمانية وتتلاقى في نقطة واحدة (وهي طريقة إسلامية مُبتكرة) وهكذا كان الشأن في عامة القباب الحجرية أو القرميدية القديمة. وهناك أيضًا القباب الحديثة، وهي بوجه عام تقوم على هيكل حديدي (أسياخ معدنية مُتشابكة) يصب فوقه الأسمنت المخلوط بالجص، فإذا جف بلغ الغاية في المتانة والتماسك، وبواسطة هذه القوالب التي يصب فيها الأسمنت لصنع القبة أمكن التحكم في حجم القبة وشكلها ومتانتها إلى حد بعيد.

ثمة قباب حديثة بدأت تظهر منافسة لقباب الحديد والأسمنت، وهي القباب المصنوعة من مادة الفيبر جلاس والخيوط الزجاجية، وميزتها أنها تسمح بنفاذ الضوء إلى باطن القبة دون أن تسمح لحرارة الجو أو برودته

بالنفوذ، إضافة إلى خفة الوزن مع متانة الصنع والقدرة على اختيار الشكل المختار بحرية تامة.

كما تنوعت القباب إلى قبة ملساء أو مُضلعة أو قبة بصلية أو مخروطية الشكل، والقباب البصلية تُرى واضحة في المساجد الهندية، والقباب الطويلة العنق تُرى في المساجد السلجوقية، والقباب المدورة ترى في عموم المساجد، وبخاصة الأيوبية والمملوكية والفاطمية. كما أن الأصل في القباب (كالمآذن) أن تكون ثابتة فوق سطح المسجد، إلا أن التقنيات الحديثة مكنت المعماريين من ابتكار القباب المتحركة التي تتحرك على سكة، ويتحكم بها بواسطة آلات يُحركها مفتاح آلي (مباشر أو ريموت كنترول)، ومثل هذه القباب المتحركة عرفت في المساجد الحديثة الضخمة، كمسجد الملك الحسن الثاني بالرباط، والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة في التوسعة الأخيرة (وزن القبة ٨٠ طنًا)، وبذلك استفيد من تحريك القبة في تجديد هواء المسجد وفي إنارته، وفي التمتع بالجو الطبيعي المناسب، بل استخدمت القباب المتحركة على سكة عالية، وهي مرفوعة على جدران تحتها فوق السطح استخدمت في تظليل جزء لا يستهان به من السطح يكون موائمًا للصلاة فيه، وهذا ما يراه الحاج في أسطح المسجد النبوي الشريف.

لذا فالقباب فن هام للمسلمين اهتموا بها وطوروها دون غيرهم، ومن أجل تلك القيمة الهامة جاء دور هذا الكتاب القيم، والذي يضم مختارات لنخبة من علماء فن العمارة ، حيث يُلقي الضوء علي القباب

الإسلامية ويُبين أنواعها وطرق بنائها؛ لذا فهو كتاب كنز مملوء بالنظريات العلمية والتواريخ القيمة التي توضح ما توصل إليه أجدادنا من العلم العظيم الذي عجز عنه غيرهم.

الناشر

عمارة القباب .. بين الصرامة الإنشائية والرهافة الروحانية

د.علي الثويني

القبة عنصر معماري متميز، اكتسبت الرعاية من معظم مدارس العمارة في العالم، وتزاحم الكل في الفوز بريادتها والسبق باستعمالها، ثم تدرج إلى المنافسة في مدى الحذلقة في عمارتها وتكريس جمالياتها، وتعددت مفاهيم القبة بحيث اقترنت لدى الإنسان المؤثر للدعة والبقاء بالحجرات تحت كنفها وستر الرأس، وأما خاصة القوم فقد اتخذوا إرساءها نزعة صرحية ومقاصد في عمارة خيلائية، وجاءت لدى أهل العقائد بالقدسية في قباب المعابد وفي إيواء المقدسين تحت فضاءاتها، بحيث تداخلت هيئتها بقبة السماء وصاحبها والمحسوس الروحاني، وفي المنحى المادي والملموس فإنها لا تشكل في واقعها سوى حل إنشائي لتسقيف البناء بطريقة ماهرة، احتال الإنسان وتحذلق فيها على مادة الطين الواهنة القاصرة التي بني بنها بواكير بيوته.



قبة الإمام علي في النجف مغشاة بالذهب



القبة التي تعلو محراب مسجد قرطبة

لقد وردت القبة في اللغة بصيغ متشعبة، فهي حجرة في الدار وقبة السماء التي تداخلت مع الخيمة التي نعتت بالخيمة الزرقاء أو الخضراء، والله سبحانه صاحبها. وسميت بها البصرة (قبة الإسلام)؛ لحظوة استثنائية وردت من منزلة صوفيتها وزهادها، وجاءت متداخلة مع إيحاءات ترمز إلى السماء في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ"، وكذلك في قوله: "أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ" أو "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ". وبذلك اتخذت هيئة القبو مفهومًا سماويًا وحظوة روحانية استثنائية مرتبطة بالسماء وبقوس قزح، المتضمنة لدلالات نعمة المطر. وقباب البناء الخاصة بشواهد الأولياء والصوفية وأصحاب الكرامات، اضطلعت بأهمية وقدسية وصلت حد (الحلف) بها، وارتضاها بعض الصوفية وفقهاء بعض الفرق وأقحموها في مشروعيات ومستلزمات الإيمان. وكانت قد وردت لدى اليهود بصيغة (قبة الشهادة)، وهي خيمة كان يغطى بها تابوت العهد ويطلق عليها كذلك قبة الزمان.

والقبة في فقه الهندسة هي أحد السطحين اللذين يحدثهما مستوٍ قاطع في سطح كروي. ولكن تجسيدها يمكن في الإنشاء الذي تعود بواكيره إلى زمان سحيق، وذلك في الرافدين القديم، حينما تسنى للبنائين استحداث العقم ثم الطاق ومن بعده القبة، متسلهمين إياها من هيئة دوران القصب الذي استعملوه في سومر العتيقة بالأجمة الجنوبية (الأهوار) في إنشاء بيوتهم، ثم ورد في العمارة الطينية لمصر الفرعونية بعد ذلك بحقب

زمنية. وبغياب الحجر أو الشجر الغابي في تلك الأصقاع، فقد جسد الإنسان سقف بيوته بالطين المصنع بشكل قوالب (الطابوق) التي أوصلتهم لهيئة القبة من خلال غاية هيكلية جوهرها تسقيف الفضاءات، واقتضت الضرورة في التحايل على رهافة هذا الطين بأسلوب مد الطنوف فوق بعضها والتوائها وتطويلها بغرض توسيع (مسافة سير العزوم) الذي يقلل من قيمتها ويهبها الاستقرار. ويمكن أن يكون قد استلهم شكلها المكور اللاحق من قبة السماء التي تداخل فيها روحانية الأبراج والشغف بالنجوم التي وجدت لديهم قدسية وحظوة. وانتقل هذه الضرب من اللبابة من سومر إلى بابل الكلدانية، ونجده في رسوم دراسة وجدت في ثنايا المنحوتات الآشورية، ثم نقلها الفرس الفرثيون في فنونهم وأعراف بنائهم التي سادت بلادهم ردحًا من الدهر، حتى تسنى للإغريق نقلها إلى أوروبا بعد احتلالهم فارس، ولم يعيرها أهمية لبنائه بالحجر، ولكنهم ورثوه إلى الرومان مثلما ورثوا جل مناحي حضارتهم، فاستقرت لهم وتجسدت بقوة في عمائرهم على العموم. وجاء جلها في الصوب الشرقي منها الذي أصبح بعد الانفصال في القرن الرابع الميلادي يدعى بيزنطية، ونجدها اليوم في أعراف بناء سكان صعيد مصر وأهل النوبة الذين مارسوا ذلك الضرب من البناء منذ القدم، ونجد ذلك التقليد قد ترسخ في أعراق عمارة الصحراء في المغرب العربي ولا سيما مدائن وادي الصوف في الجزائر التي تدعى مدائن الألف قبة.

وفي مغالطة لا تنطلي على الحصيف، مفادها أن عمارة القباب جاءت من مصدر بيزنطي إلى العمارة الإسلامية، بالرغم من كون عمارات

البحر المتوسط استعملت تقليد البناء بالحجر الذي أغناهم عن التحايل عليه، والبناء بأسلوب التكوير كالقبة والقبو والعقد.وعندما ورث الرومان إرث اليونان والمشرق راق لهم هذا العنصر؛ لما وجدوا فيه من إمكان لتوسيع بحور فضاءاتهم المعمارية التي كانوا تواقين لتنفيذها، ناهيك عن مميزاتها الإنشائية التي تكسب الهيكل رصانة واستقرارًا من دون اللجوء إلى أعمدة وسطية، تصل بينها عتبات (كمرات) الحجر محدودة البحور في تجسيدها. وربما يكون المبرر الجمالي والصرحي الذي تناغم مع سجيتهم المغالية عاملًا ورد بعد العامل الوظيفي، وقد دحض هذا المفهوم، وأصبح من الأمور المسلم بها بعد الفتوحات التي وفرتها علوم الحفريات المتأخرة التي أثبتت أن أقدم الأقباء وكذلك القباب، نشأت وتطورت في حضارات الشرق القديم في العراق وفلسطين ومصر، وقد يكون استعمال الرومان لنوع من الخرسانة المصبوبة المتكونة من الجير والرمل والصلصال والحصباء الذي جاء متأخرًا ما يؤكد ذلك المنحى في العمارة الرومانية، ولدينا ملاحظة جديرة بالمعاينة هي أن العمارة المسيحية الأولى التي ظهرت في روما لم تستخدم القبة في تغطية الكنائس، وإنما استخدمت (الجمالي الخشبي) اقتداء بهيكل (البازيليكا الروماني) الذي كانت تشغله محاكمهم، وعلى العكس من ذلك وجدنا أن استعمال القباب قد تم في العمارة البيزنطية كما هي الحال في كنيسة (آيا صوفيا) وما تلاها في الأشكال المربعة والمتصالبة بسبب قرب الحال من مصادر التأثير من حضارات الشرق العتيق.

وقد استخدم الرومان معماريين شرقيين في إقامة قبابهم، ومن المعروف اليوم أن المعماري الدمشقي أبو لودور Apolodor قد أنشأ أجمل القناطر والقباب في روما والولايات الرومانية، وقد حمل معه هذا الإرث البنائي الرافدي. ومن الجدير ذكره أن هذا التقليد استمر في البناء الريفي حتى اليوم في الجزيرة الفراتية وقرى حلب. وتذكر أخبار التاريخ أن الإمبراطور أدريان عندما أراد إعادة بناء وتغطية البانتيون في روما عام ١١٧م، لجأ إلى المعماريين السوريين لبناء القبة فيها. وهذا منظر العمارة الفرنسي جورج مارسيه يقول: "إن الفن البيزنطي استمد من آسيا أكثر بكثير مما استمده من الإغريق، وإنه ليس من قبيل المصادفة أن يتولى عمارة آيا صوفيا في القسطنطينية معماريان شرقيان هما (ايسودورو المليتي – Isodors tus) و(انتيموس الترالي Anthemins of Tralles) ويعني بذلك تأثيرهما الجذري في شكل العمارة البيزنطية وقبابها المفلطحة الانسيابية.

برزت القباب في العمارة الإسلامية عندما استعملت عمارات البحر الأبيض المتوسط الحجر في البناء، الذي أغناهم عن التحايل عليه والبناء بأسلوب التكوير.

وقد تداخلت الضرورة والوظيفة وتلمس الجمال والبحث عنه في تطور مناحي هذا العنصر المعماري، الذي اضطلع بتسقيف الحجرات المدورة أو المضلعة، والذي شكل بناؤها على الحجرات المربعة إشكالية كان للعقل فيها صولة. فقد ظهرت نتيجتان تجريبيتان طغتا في حل إشكال التحول السلس من الشكل المربع إلى الدائري الذي يشكل رقبة القبة،

فقد وردنا من الآثار طريقتان إحداهما ظهرت في العمارة الشامية وتسمى (المثلثات الكروية Pendatives) وذلك باستعمال القباب وأنصافها بحيث تكون أقطارها الكروية هي نفسها الأقطار للقباب التي تحملها، ويبدو الجزء الكامل من القبة فوق المثلثات على هيئة (قصعة) كبيرة أو قطعة كروية ضحلة، وفي حالة أخرى يختلف القطر الكروي للمثلثات عنه للقبة، وذلك حتى يمكن عمل القبة من نصف كرة تمامًا أو أكثر قليلًا، وأقدم مثال موجود في قصر النوايس قرب عمان، وفي تغطية قبر في منطقة (سباستيا) يعود للعام ٢٢١م أو حمام بالقرب من البتراء، ويعتقد د.ثروت عكاشة أن هذا النوع من القباب قد ورد في العمارة المصرية القديمة. وأقدم مثال إسلامي مبكر على ذلك هو (قصير عمرة ٧١٢م) و(حمام الصرح ٧٢٥م) الواقعان في بادية الأردن اليوم.

أما الطريقة الثانية فقد وردت من العمارة العراقية الفارسية وذلك بوساطة (الحنايا –Squniches)، وهذا الشكل (الحنية) على هيئة نصف قمع أو مخروط تبلغ زاوية رأسه ٩٠ درجة، ووضع على جنبه بحيث ينطبق كل من جانبيه المستقيمين على ضلعي زاوية مربع المنطقة التي ستغطي بقبة ونجدها باقية في إحدى تطبيقاته في قصور الساسانيين (قصر فيروز آباد وقصر سر فستان) والتي ترجع إلى القرن الثاني الميلادي. واستخدام بها كذلك أنصاف القباب لتغطية الحشوات الغائرة (Recesses) المتعامدة الجوانب، ويرد أول الأمثلة الباقية من صدر العصر الإسلامي على ذلك في قصر الأخيضر، وبالتحديد في بهو الدخول ثم في الفناء الوسطي، ثم يتكرر

بعد ذلك في مصر الإسلامية، في الكوات التي تزين جانبي كتلة المدخل البارز لجامع الحاكم بأمر الله الفاطمي.

ومن أشهر القباب التي ذكرت في تاريخ عمارة الإسلامي الأولى، القبة الخضراء في قصر أبو جعفر المنصور في بغداد المدورة عام ٧٦٣م، وقيل عنها: كان يعلوها تمثال محارب يدور في اتجاه الريح. وقد كانت القباب في العهد الأول للإسلام حتى القرن الحادي عشر الميلادي صغيرة، واقتصر استعمالها على تغطية سقف البلاطة التي تعلو المحراب في حرم المسجد مثل الجامع الأموي ٧٥٠م والأقصى ٧٨٠م وسوسة ٨٥٠م والقيروان ٨٦٣م وقرطبة ٩٦٥م.

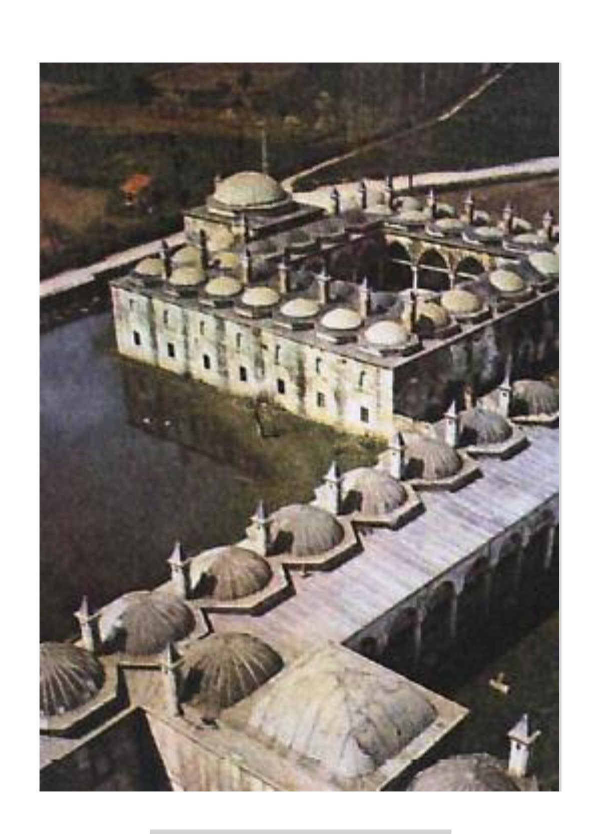
ومن الجدير ذكره هنا أن راندية بناء القبة، التي يسبقها جمالون له رواق يعلوه مثلث كما هو في المساجد الأولى ابتداء من المسجد الأموي في دمشق، قد تمت على يد المعماريين السوريين في عهد (الوليد بن عبد الملك)، وتلقفتها طرز العمارة الغربية بعد ذلك كما هي الحال في (كنيسة القديس بطرس) في الفاتيكان و(كنيسة بولس) و(قصر تشيزيك) في بريطانيا، وأهم الآثار المشهورة التي تمت على يد أشهر معماريي الغرب (بالاديو Paladio) في بناية (الروتوندا). ثم انتقل استعمالها لتغطي الأضرحة، واستعين بحنايا الزاوية (Squeinch) لمعالجة زاويا المسقط الرابع المكتنف للضريح، مثلما هو موجود في (القبة الصليبية) في سامراء، ثم ضريح آل طاباطبا من بقايا الدولة الإخشيدية في مصر.

ويمكن أن يكون عنصر المقرنص في العمارة الإسلامية قد تمخض عن تكرار هذه الحنية في عدة طبقات (حطات) وتطور تباعًا، ثم توسع بناء القباب في مصر وسوريا خلال العهدين الفاطمي والأيوبي وتكامل جماليًا وتناسق نسبيًا في عمارة المماليك، أما في المغرب فقد اصطفوا التغطية بالجمالي ذات الهيكل الخشبي، وظلت القبة محدودة الاستعمال إلا في الأضرحة المخصصة لأولياء الله والصوفية فوق حجرة مكعبة أحادية الفضاء (قباب المرابطين).

ولتحديد شكل القبة ترسم دائرة بقطر يماثل فتحة القبة ومن المركز يعين بعد على المحور بقدر ٣/٨ القطر، ثم يرسم خط أفقي ماس للدائرة في نقطتين ثم يركز كل منهما، وبفتحة تساوي ١.١/٨ من قطر الدائرة المعلومة، ثم يرسم قوسان ليتقابلا في نقطة. وشكل القبة يتبع دائمًا شكل العقود الغالب تداولها ويدخل ذلك في جوهر التجانس بين عناصر التصميم ووحدتها وتناغمها الجمالي، وعادة ما كان القوس المدبب البصلي والمخموس البسيط أو حدوة الفرس أو أقل من ذلك النوع المفصص، هو الغالب على الأشكال. وفي العراق وفارس حلت القبة الواسعة البصلية الشكل (صفوية)، وتمتاز بتغطيتها بالقيشاني (الفخار المزجج أو الزليج)، وهي حال عموم القباب العربية، وكانت تبنى بالطوب والآجر، وتغطى من الداخل بالجص وتنقش عليها الطرز الكتابية، ومن الخارج تليس بنوع من الملاط المقاوم لنفاذ الماء، والمتكون عادة من الجير والجبس ورماد الأفران بنسب متساوية. وتوجد كذلك القباب ذات الهيكل الخشبي التي وجدت منذ بداية الإسلام مجسدة في قبة الصخرة عام ٦٩٢م، وفي مصر نجدها

في قبة الإمام الشافعي ١٢١١م، وقبة بيبرس ١٢٦٩م، ومدرسة السلطان حسن ١٣٥٦م.

وظهرت القبة المبنية بالحجر في مصر ومن ثم سورية، ابتداء من القبة المقامة على طنبور في مدرسة سنجر الجاولي عام ١٣٠٣م على مساحة ٦٣,٤م مربعًا، واستمر بناء هذا النوع الصغير حتى العام ١٤٠١م عندما توسعت في خانقاه (فرج بن برقوق) في القاهرة بمساحة ٣٥,١٤م مربعًا، ولمقاومة الدفع الخارجي فقد استعملت في هذا النوع من القباب قطاعات خشبية (براطيم) توضع أسفل القبة مباشرة عند النهاية العلوية للطنبور، كما استعلمت قطع خشبية على شكل ذيل اليمامة لربط مداميك الحجارة في القبة نفسها لمقاومة الدفع، كما في خانقاه فرج برقوق ١٣٩٩م، كما استعملت بعض السلاسل الحديدية في ذلك كما في جامع مُحَمَّد علي ١٨٤٨م، إلا أن الحديد يصدأ ويسبب مشاكل جمة للقبة، وهذا هو سبب الشروخ في قبة مُحَمَّد علي التي بنيت بتقنيات هندسية تركية وأوروبية. وقد نجد قبابًا مبطنة أو على طبقتين، لتخدم غرضين أحدهما عمراني بصري وصرحي للناظر له من بعيد والآخر داخلي مناسب للمقياس الإنساني، ونجد ذلك مجسدًا في القبة المقامة فوق ضريح الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في النجف وكذلك في العتبات المقدسة للإمامين الحسين والعباس (رضي الله عنهما) في كربلاء، أو في العمارة التيمورية في خراسان، التي انتقلت إلى الهند وترافقت مع النزعة الصرحية لعمائرها، كما في قبة تاج محل في أكرا ١٦٢٣م، وفي مصر نجد أمثلة للقباب المزدوجة الهيكل، ابتداء من قبة مئذنة بلال في أسوان ومقلد الناصري ١١٧٢م وغيرها.

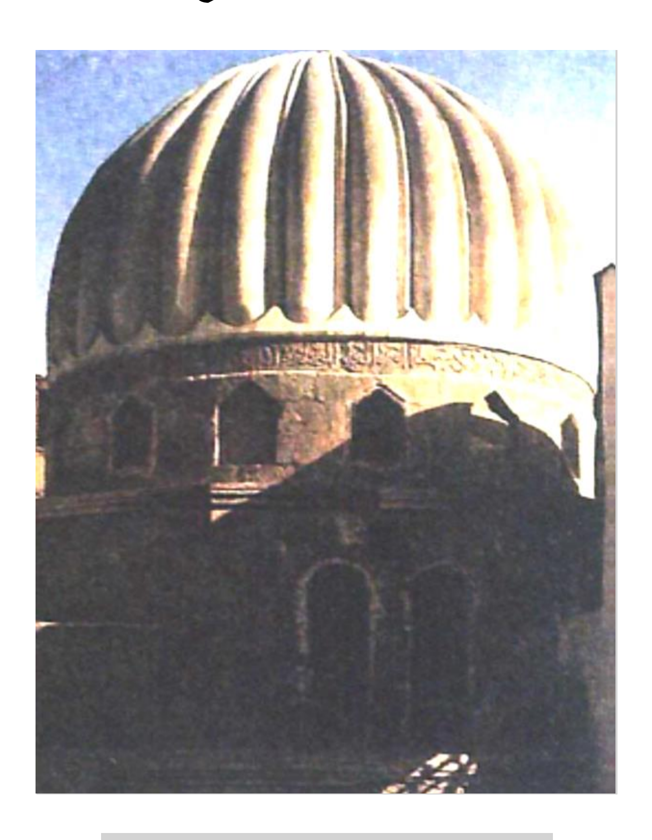


قباب تركية من كلية السليمانية

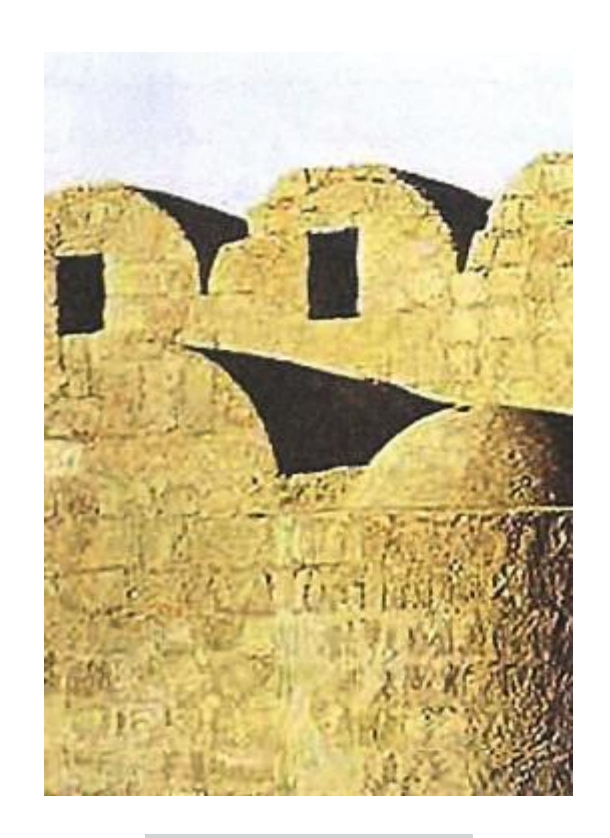
ومن خصوصيات بعض تلك القباب هو كساؤها بطبقة من (الآجر الذهبي)، كما في قباب الأئمة العلويين في بغداد وسامراء والنجف وكربلاء ومشهد، وقد غطيت القباب (الطوبية) من الخارج عادة بزخارف دائرية القطاع (فصوص) بينها مثلث، بينما في النوع الحجري، فقد استعملت دلالات (Chevron) كما في قبة مدرسة محمود الكردي ١٣٩٥م. وقد عولج الانتقال من المربع إلى الدائري للطنبور من الخارج عن طريق المثلثات، أو التجاويف المقعرة والبروزات نصف الدائرية والتي تنتهي بطنف. وينظم في الطنبور نوافذ تجهز بقمريات بالزجاج الملون يفصل بين

النوافذ قوصرة أحيانًا، وفي نهاية الطنبور فوق النوافذ يوجد في الغالب نص قرآني على مسطح، يرتد عن سطح الحائط يعمل بالجص على القباب المبنية بالطوب، أو على شكل نحت بارز في القباب الحجرية أو كتابات بالقرشاني كما في قبة السلحدار ١٣٤٥م. وبعد ظهور الأتراك في آسيا الصغرى وتأثرهم في مرحلة لاحقة بعمارة آيا صوفيا بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، واتخاذ هيئة قبتها المفلطحة سنة بنائية كرسها المعماري سنان، وتطورات معالجاتها الفنية على يد العمال المهرة العرب الذين أخذهم السلطان سليم إلى اسطنبول بعد دخوله مصر عام ١٥١٧م، ولم يجد هذا الشكل من القباب صدى له في العمارة العربية، على الرغم من محاولات الترك على ذلك في الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والحجاز واليمن وسورية والعراق، حينما هيمنت تصميمات القباب المحلية حتى انتهاء دورهم. ونجد أولى المحاولات في جامع ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد، التي أقامها سنان برغبة من السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٤م، ولم تجد من يقلدها بعد تلك، وفي الشام أقيمت بعض تكايا الصوفية والجوامع المغطاة بهذا النوع من القباب، مثل التكية السليمانية التي لم يداول على تكرارها كثيرًا. وفي مصر حاول مُحَمَّد علي ومن قبله في جامع سنان في بولاق تكريس بناء القباب التركية دون نجاح كبير، وكذلك الحال في الحجاز، أما في شمال أفريقيا فلم نجد لذلك مثالًا أو تطبيقًا يذكر. ونجد في المدرسة الأندلسية المغربية نوعًا من القباب هرمية الشكل المقامة فوق قاعدة مربعة، والتي عادة ما تنفذ بهيكل خشبي يغطى من الخارج بالقرميد، ويكون من النوع المزجج باللون الأخضر أو الفيروزي، ومن

الداخل بمعالجة ألواح الخشب زخرفيًا أو لونيًا على العرف الفني المحلي (الزواق)، أو نجد ما يستعاض عنها بقبة كاذبة تبنى بالخشب والجص، ومعلقة في الهيكل الخشبي للقبة الهرمية. ونجد أجملها في القباب التي تشكل خط السماء لمدن تلمسان وفاس ومثلها في جامع القرويين.



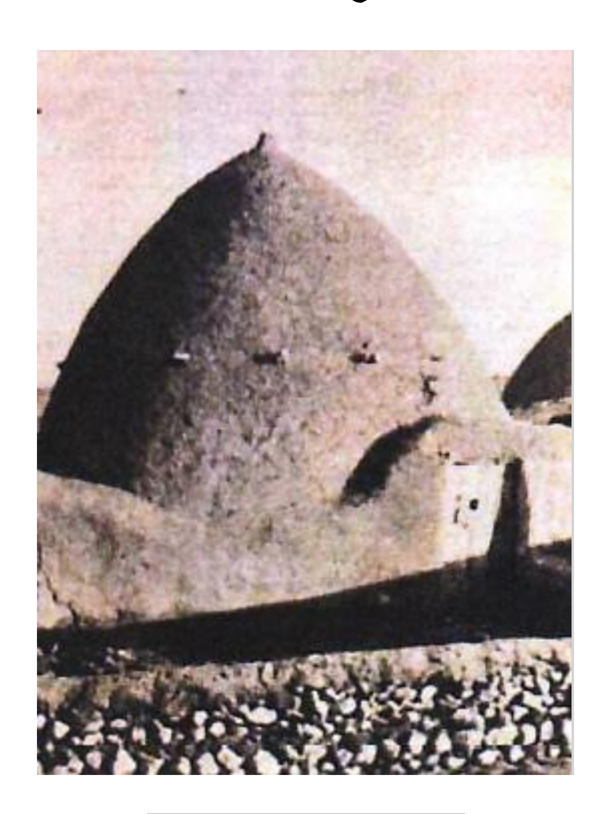
قبة الإمام الشافعي في القاهرة – العهد الأيوبي



قباب قصير عمرة في بادية الأردن

وبعد عصور الانحسار الحضاري العجاف نجد في عمارة القرن العشرين محاولات جادة من المعماري حسن فتحي، لإحياء هذا الموروث الغني الوارد من التقاليد النوبية، دون كثير من الاهتمام من المسيرين للعمران المنبهرين بعمارة الغرب، وقد ورد في تعليقه على حبه لبناء القباب قائلًا: "انظر إلى السماء وابنِ مثلها"، ونجد إحدى تجسيداتها بالآجر في مدينة الكويت. وقد شهدنا محاولة المعماري الألماني – الأمريكي (فالتر كروبيوس)، الذي استوحى شكل القبة في مسجد جامعة بغداد القائمة مباشرة على الأرض. وقد تهكم عليها حسن فتحي معلقًا: "القبة مثل

عمامة الرأس، فهل يعقل أن يضع الإنسان عمامته على الأرض؟!". وقد كان لشيوع البناء بالقشرة الخرسانية أثر في انتشار هذه السنة البنائية للقباب، وقد وجد صداه في بناء القباب العربية، ونجده على شاطئ النيل في أم درمان في السودان في جامع النيلين.



قبة في القرى المحيطة بمدينة حلب

وقد استحدثت طرائق فنية (تكنولوجيا) جديدة في تنفيذ القباب الحديثة، وذلك بالاستعانة بالهياكل المعدنية التي تركب في الموضع وتغطى بمواد البناء المناسبة وبحسب مواصفات الاختيار. ونجد في مشروع توسعة

الحرمين الشريفين استعمال نوع من القباب المتحركة، التي تخدم حسب الموسم والظرف المناخي، ويكمن ذلك في إمداد قضبان معدنية انزلاقية على جنباتها يتم تحريكها عليها آليًا، ويبدو أن عمارة القباب سوف تشهد ولادة جديدة في العمارة العربية في المدى المنظور، وذلك بالاستفادة من الطرق الجديدة في التنفيذ والمواد الجديدة في البناء في العمارة العمالية.

القبَّة .. كعنصُر مميز لفنّ العمارة الإسلامية

صلاح عاشور

إن نشأة القباب الإسلامية وتطوُّرها موضوع شائق، جدير بأن يُفرد له بابٌ خاص في العمارة الإسلامية؛ إذ تعتبر القبة من أهم عناصر هذه العمارة.

وموضوع بحثنا هو نشأة القبة والمقرنص وتطوُّرهما بوجه عام وفي مصر بوجه خاص، وكيف أصبحت القبة عنصرًا مميزًا لفن العمارة الإسلامي.

والواقع أن كثيرًا من العمائر التي أقيمت قبل الإسلام كانت تتوّجها قباب، فقد وجدت القباب في بلاد ما بين النهرين وإيران وسورية ومصر، فتعلق بناة الإسلام بهذا العنصر المعماري وأدخلوه على مختلف عمائرهم من أضرحة ومساجد ومدارس وخنقاوات(1) وحمّامات وأسوار، وجعلوا منه عنصرًا مميزًا لفن العمارة الإسلامي. وليس من شك في أن الفنان المسلم نظر إلى القبة نظرة جديدة؛ لأن شكلها كان يذكّره بخيام العرب، ومنظرها يسمو بخياله إلى السماء فيشدو بذكر الله، ويحس بالقدرة الإلهية.

والحق أن الفنان المسلم أقام القبة لسبب وحكمة، فقد أقامها فوق الأضرحة إظهارًا للخشوع والعظمة الربانية ورمزًا للطهارة والصلاح

---

(1) نوع من الربط أقيمت لشيوخ السنة والصوفية.

والتقرُّب إلى الله، وأقامها أمام المحراب لإظهار أهميته، ثم أقامها في بيت الصلاة على امتداد أسكوب[1] المحراب، وكذلك على طول بلاطته لكي ينبعث الضوء في بيت الصلاة، ويزداد اتساعًا؛ لأن الملاحظ أن البلاطات التي تتوّجها قباب تكون متسعة عن باقى بلاطات المسجد.وأخيرًا أقامها أمام الصحن لحكمة أخرى، وهي إما للدلالة على وجوب محراب ثانٍ، أو لكي يقف فيها إمامٌ آخر يردد ابتهالات الإمام الأصلي وتكبيراته ليسمعها المصلون في الصحن، وبذلك تكون قبة الصحن[2] في الواقع قد أقيمت للدلالة على مكان المحراب.

والقباب أنواع مختلفة:

نوع أقيم على قاعدة مستديرة من أعمدة ودعائم بالتناوب، تقوم عليها عقود، وتقوم على العقود رقبة القبة، وهو نوع معروف في العمارة الرومانية بل فيما قبل ذلك، والمثل الأول لهذا النوع هو قبة الصخرة في بيت المقدس.

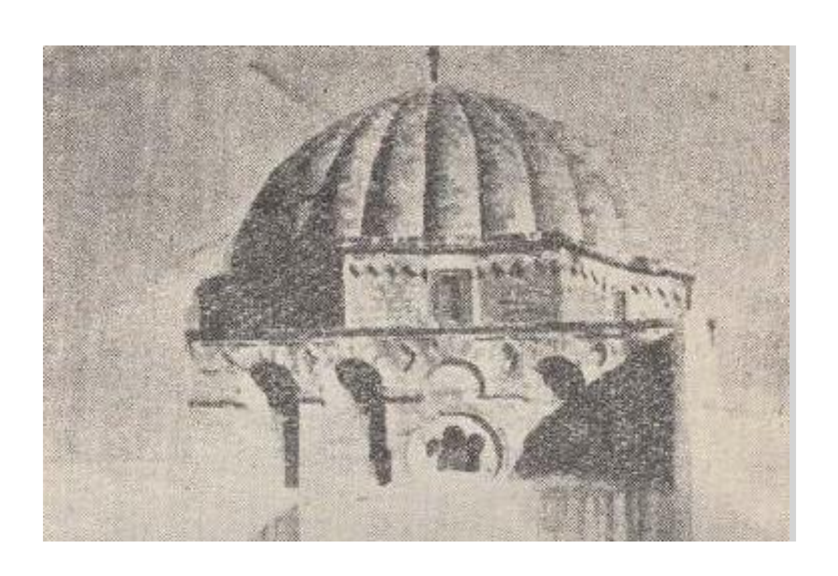
ونوع آخر أقيم على قاعدة مربعة تتصل برقبة القبة المستديرة بمقرنصات مثلثة، وهو قديم في العمارة، ولكنه متأخر نوعًا في العمارة الإسلامية، ومن أمثلته مقرنصات باب زويلة بالقاهرة.

---

(1) الأسكوب: هو الجزء الممتد في بيت الصلاة موازيًا لجدار القبة.

(2) قبة الصحن ومعناها قبة البهو.

ونوع ثالث أقيم على قاعدة مربعة تتصل برقبة القبة المستديرة بمقرنصات مقوسة أو معقودة، وقد انتشر هذا النوع في الإسلام انتشارًا كبيرًا، في مصر وغيرها من البلاد، ومن أمثلته مقرنصات قباب مسجد القيروان.



منظر خارجي لقبة المحراب بجامع القيروان

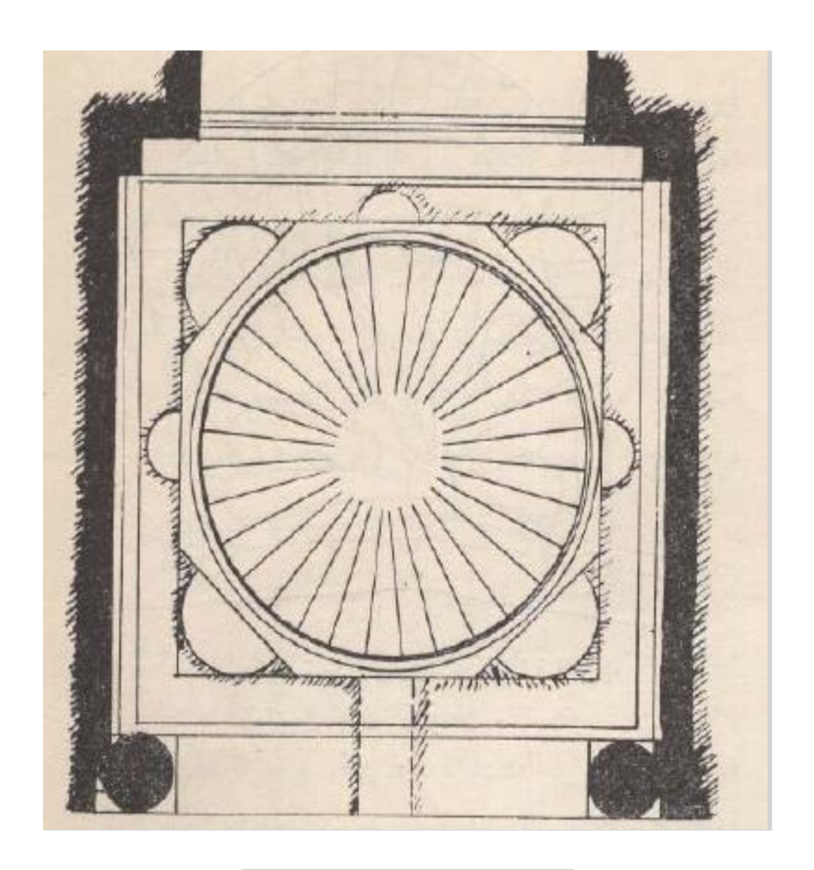
(شكل رقم أ)

إذن المقرنصات هي الوسيلة للانتقال من السطح المربع إلى القاعدة المستديرة، وهي إما مقرنصات مثلثة أو مقوسة أو هندسية، وهذه الأخيرة تعتبر آخر تطوُّر للمقرنصات المقوَّسة في العمارة الإسلامية، وقد ظهرت في قبة مسجد تلمسان سنة (٥٣٠هـ/١١٣٥م) في بلاد المغرب.

ومعروف أن المقرنصات[1] المقوسة هي أنصاف قباب كامنة في أركان المربع تشكل دائرة ترتكز على رءوس أقواسها وعلى منتصفات أضلاع المربع، وقبل اتباع هذا كان لابد من أن تشيّد القبة على مسطح أساسه مستدير.

وقد اختلف العلماء في أصل المقرنصات المقوسة: فمنهم من أرجعها إلى بلاد أرمينية وبلاد ما بين النهرين ثم انتقلت إلى بلاد فارس، ومنهم من أرجعها إلى بلاد آشور وخراسان، وفريق آخر يرجعها إلى الرومان، وغيرهم يرجعها إلى بلاد فارس، ثم يؤكد الأستاذ هوتكير في كتابه (مساجد القاهرة) أنه كان لسورية الفضل في اختراع هذا العنصر المعماري، كما أن الأستاذ كريزويل بحث هذا الموضوع، ووصل إلى أن المقرنص ابتكر في بلاد فارس، ثم انتقل إلى أرمينية ومنها إلى بيزنطية.

(1) المقرنص: تجويف في زوايا البناء المربع أسفل قاعدة القبة المستديرة، ووظيفته تحويل المربع إلى دائرة ترتكز عليها القبة.



رسم تخطيطي لقبة المحراب القيروان

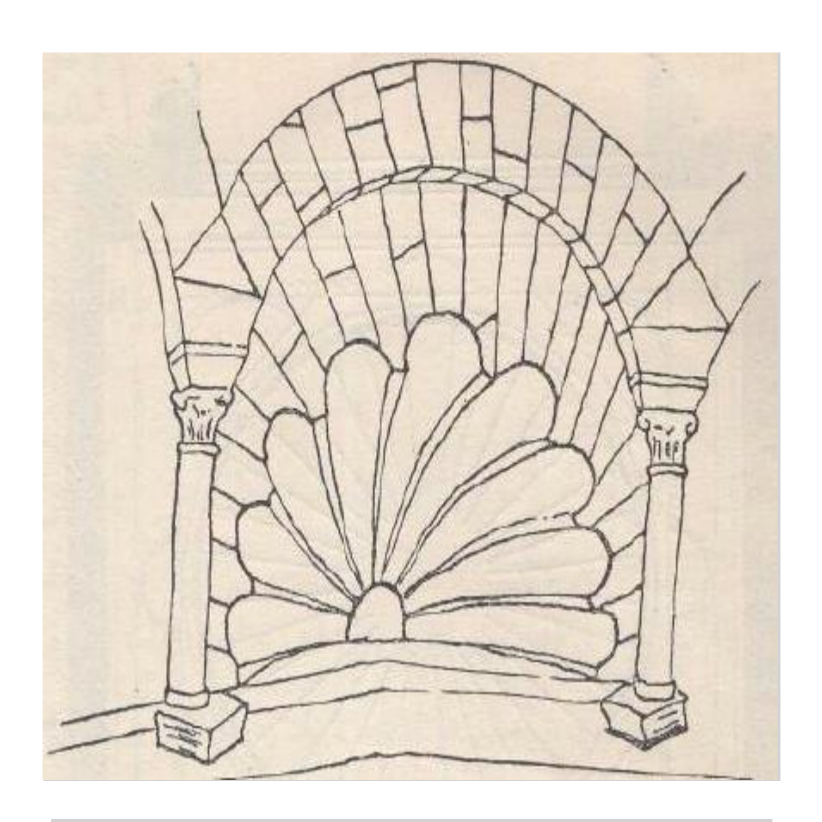
تابع شكل (أ)

والواقع أننا نجهل أصلها ونشأتها، ولكن يمكن إرجاعها إلى ابتكار فنان.

ولعل أقدم الأمثلة للمقرنصات المقوسة وجد في فيروز أباد وسارفيستان من بلاد فارس، ونراها هناك قد أصبحت عنصرًا قائمًا بذاته

يحفُّ بها من جانبيها مقرنصات مثلثان، وبذلك اشتركت المقرنصات المثلثة والمقوّسة معًا في رفع القبة، وهي ظاهرة تمتاز بها القباب الفارسية.

وكما انتقل هذا النظام إلى البلاد الأوروبية وانتشر فيها عن طريق بيزنطة وجنوبي فرنسا، انتشر أيضًا في الشرق في البلاد الإسلامية، وتطورت القباب وتغيرت معالمها، وكانت أول مرحلة لها في بلاد الشام، ولكن قباب الإسلام الأولى قد اندثرت: فقبة حلب ترجع إلى سنة (٣٣٦هـ/٩٧٦م)، وقبة دمشق إلى سنة (٤٧٥هـ) (١٠٨٢–١٠٨٣م)، وكذلك الحال في مصر؛ فإن قبة الأزهر أقيمت في القرن السادس الهجري، وقبة مسجدي الحاكم والسبع بنات) في أوائل القرن الخامس الهجري، وقبة الجيوشي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، وبذلك يكون أقدم مثل إسلامي للمقرنصات المقوسة في قباب مسجد القيروان، (شكل رقم ١).

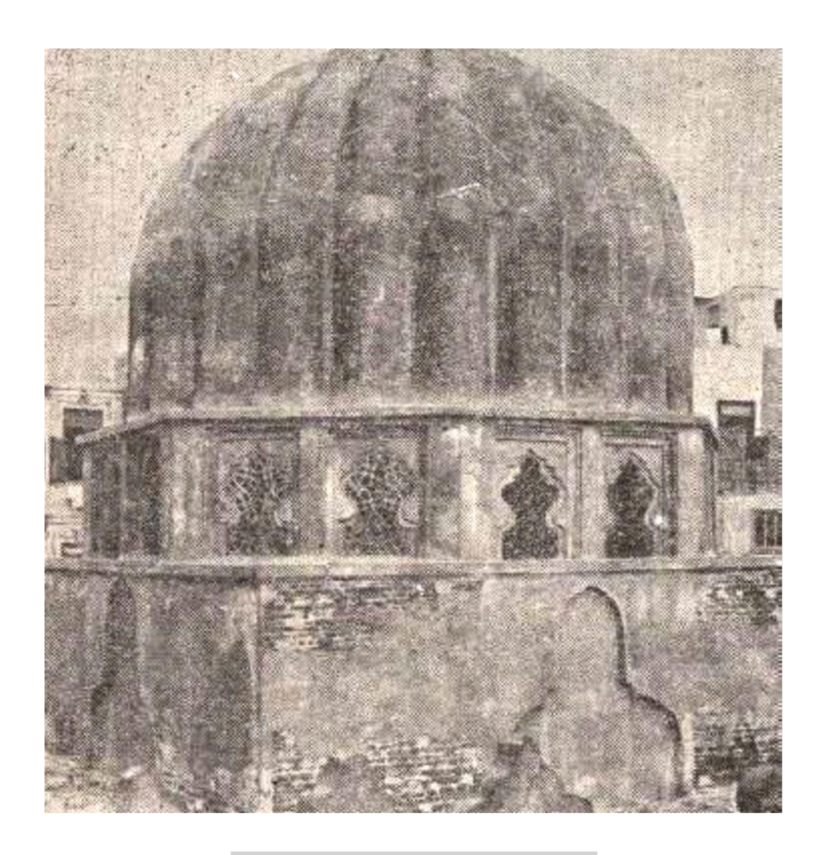


رسم لقرنصة من مقرنصات أركان قبة المحراب، ولعقد من العقود التي تمتطي المقرنصات

تابع شكل (أ)

وقبة القيروان لا تظهر بمظهر الكتلة الواحدة، بل هي عناصر متصلة من عقود وأقواس وضلوع وأعمدة. أما مقرنصاتها وطاقاتها وقنوات ضلوعها فهي غلاف لسلسلة شبكية، وهو تصميم معماري فريد في نوعه لم يسبق أن ظهر في أي فن من الفنون. وقد انتشر بعد ذلك في بلاد الإسلام ولا سيما في المغرب والأندلس وتعداها إلى أوروبا، مثل قباب كنيسة بلدة البوى التي أخذت أصولها من قباب الأندلس.

وكذلك كانت الحال في مسجد الزيتونة؛ إذ تنطبق قبتاه على قبة المحراب في القيروان، وكذلك مسجد قرطبة؛ فإن القبة التي أقيمت على أسطوانة محرابة في عهد الحكم سنة (٣٥٠هـ/٩٦١م) تتفق مع قبة القيروان، وإن كانت مقرنصاتها قد تشكلت بمظهر زخرفي، وفقدت وظيفتها المعمارية.



قبة السيدة رقية (٥٢٧هـ-١١٣٣م)

شكل رقم (٢)

وتطورت القباب بعد ذلك ومن ثم مقرنصاتها، واختفت المقرنصات المقوسة، وحلت محلها مقرنصات هندسية، كما هو ظاهر في قبة مسجد تلمسان سنة (٥٣٠هـ/١١٣٥م) في بلاد المغرب، إذ تقوم على ضلوع ازداد عددها وفرغت الحشوات التي بينها وملئت بتجويفات زخرفية.

وبقى في الأندلس من آثار العرب في عصر الخلافة أثر هامٌّ في طليطلة هو مسجد الباب المردوم، وقد حول إلى كنيسة تعرف باسم (سان كريستو دي لاليز)، وهو بناء مربع ينقسم ثلاثة أساكيب وثلاث بلاطات، أي تسع أسطوانات يحدها أربع أعمدة، وتقوم على الأسطوانة تسع قباب، على كل أسطوانة قبة، وترتفع القبة الوسطى عن بقية القباب، وقد اتبع في بنائها الطريقة التي اتبعت في قباب قرطبة.

والحق أن تصميم هذا البناء غريب في العمارة الإسلامية؛ إذ الملاحظ عادة أن النظام المربع يُتخذ لإقامة ضريح، ولا تعلوه إلا قبة واحدة. وقد اختفت المقرنصات تمامًا من بعض هذه القبات، إذ لم يعد لها أهمية معمارية، ويتضح من تنوع خطوط هذه القباب أن القبة الكروية أصبحت غطاء لضلوع وهيكل زخرفي.

القبة في العصر الفاطمي

ليس في مصر قباب قائمة ترجع إلى عصر الدولتين العباسية والطولونية، وكذلك الدولة الإخشيدية، وكل ما بقي من آثار هذه الفترة مسجد عمرو بن العاص سنة (٢١هـ/٦٤١م) ومقياس النيل سنة (٢٤٧هـ/٨٦١م)، ومسجد أحمد بن طولون سنة (٢٦٣-٢٦٥هـ) (٨٧٦-٨٧٩م) ومشهد آل طباطبا (النصف الأول من القرن الرابع الهجري، القرن العاشر الميلادي).

أما الفاطميون فقد تركوا لنا آثارًا خالدة من مساجد وأضرحة وأسوار القاهرة ذات الأبواب المشهورة (باب النصر، وباب الفتوح، وباب زويلة). ولما كان الفاطميون قد نشأوا في شمالي إفريقية، تأثرت عمائرهم في مصر بما شيّدوه في إفريقية ومما وجدوه من آثر بني الأغلب في تونس. ويمكننا أن نذكر بعض هذه الأمثلة من تلك المؤثرات الإفريقية، مثل المدخل البارز كما في مسجد الحاكم، والبلاطة[1] المتسعة المؤدية إلى المحراب كما في الأزهر والحاكم، وكذلك القبة فوق مربع المحراب.

وبجانب ذلك أدخل الفاطميون عناصر معمارية وزخرفية جديدة، فظهر العقد الفارسي فيما يعلو الأعمدة وفي رءوس التجاويف كما في الأزهر، والمحاريب مثل المحراب المستنصري بالجامع الطولوني، وظهرت القباب فوق الأضرحة. وظلت القبة الفاطمية في أول الأمر بسيطة في

---

(١) البلاطة: المجاز الممتد أمام المحراب.

مظهرها الداخلي والخارجي (أي ملساء)، ثم تطورت بأن أدخل عليها التضليع من الداخل والخارج مثل قبة السيدة رقيّة وعاتكة، (شكل ٢).

وقد رفعت القبة أولًا على مقرنصات، والمقرنص عبارة عن تجويف في زوايا المربع، جزؤه العلوي ربع دائرة، وجزوّه السفلي نصف أسطواني، وقد يكون عقد المقرنص مدببًا، ثم تطوَّر هذا العنصر فيما بعد في نهاية العصر الفاطمي إلى وجود مقرنص في كل زاوية من الزوايا الأربع، يعلو أحدهما الآخر، والغرض من وجود تلك المقرنصات الانتقال من الشكل المربع إلى المنطقة الدائرية التي تحمل القبة. ويلاحظ في هذه الفترة أن قد أصبح للمقرنصات وظيفة أخرى بجانب وظيفتها المعمارية؛ إذ وجدناها تأخذ شكلًا زخرفيًا، وتصبح عنصرًا من عناصر الزخرفة، كما هو واضح في منارة جامع الجيوشي، وفي نهاية تجاويف المحارات بالجامع الأقمر. وقد تكون المقرنصات وحدات زخرفية صغيرة مصطفة بعضها فوق بعض بشكل يشبه عشّ النحل، تزين واجهات المساجد والمحاريب.

وهناك عنصرٌ زخرفيٌّ تجب الإشارة إليه، وهو الخط الكوفي المشجّر، الذي اسُتخدم في العصر الفاطمي في كتابة الآيات القرآنية والنصوص التاريخية، وتشاهد نماذج رائعة منه داخل المساجد الفاطمية، تحلي واجهات المحاريب والعقود وداخل القباب.

وبالجامع الأزهر سنة (٣٥٩-٣٦١هـ) (٩٧٠-٩٧٢م) قباب ترجع إلى عصر إنشائه، غير أن المقريزي أشار في خططه إلى قبة كانت على

يمين المحراب والمنبر، وذكر ما كان بدائرها من نص له أهمية من الناحية التاريخية حيث إنه يتضمن اسم المنشئ ومن أشرف على البناء وتاريخ الإنشاء. أما القبة التي فوق مربع المحراب فترجع إلى عصر متأخر، ونستنتج ذلك من شكل مقرنصاتها. وأغلب الظن أن بيت الصلاة في العصر الفاطمي كان مزودًا بثلاث قباب فيها اثنتان في طرفيه، والثالث في نهاية الرواق المتسع جهة المحراب، ويمكن استخلاص ذلك من تصميم جامع الحاكم بأمر الله الذي أنشأه الخليفة العزيز سنة ٣٨٠هـ، وتم في عهد ابنه الحكم، إذ اشتمل على ثلاث قباب في المواضع التي ذكرت.

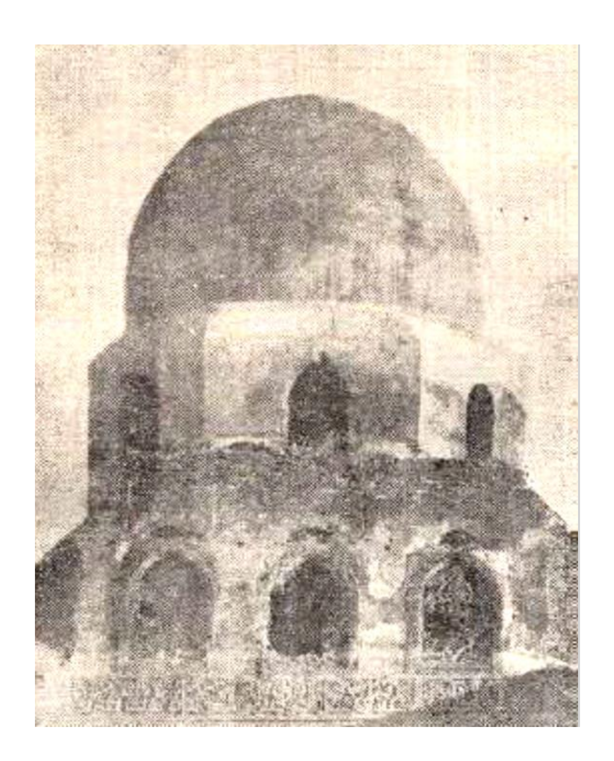
أما القبة التي تعلو المدخل المؤدي إلى بلاطة المحراب فهي بلا شك فاطمية من حيث شكل مقرنصاتها والزخارف النباتية الجصية والكتابات الكوفية الجميلة التي ترى بها من الداخل.

وكذلك الجامع الحاكم، فهو يمتاز بوجود ثلاث قباب فوق أسكوب المحراب، أما القبة التي فوق مربع المحراب (شكل ٣) فهي في حال جيدة ومحمولة على أربعة عقود كبيرة، وفي كل زاوية من زوايا مربعها مقرنص واحد، وهي ميزة من مميزات القبة الفاطمية الأولى، وترى على جدران المربع أفاريز الخط الكوفي المشجر[1]. أما القبة التي في الطرف الشرقي من الأسطوب فقد تهدمت بسبب إعادة بناء سور القاهرة وأبوابه في عهد بدر الجمالي، تلك الأعمال التي أصبح بعدها جامع الحاكم داخل السور بعد

([1]) الكتابة المزخرفة بالخط الكوفي على أرضية نباتية.

أن كان خارجه، ولم يبقَ من تلك القبة سوى جزء صغير يظهر فيه المقرنص في ركن من أركانها، أما القبة اليمنى فقد تجددت.

وتعتبر أضرحة (السبع بنات) (٤٠٠هـ/١٠١٠م) من أقدم الأضرحة في الإسلام بالرغم عما أصابها من تلف، وقد بقي من هذه الأضرحة أربعة، ويقول المقريزي: إنها كانت أضرحة لسبع بنات من عائلة المغربي، الذي قتله الخليفة الحاكم بعد هرب الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي إلى مكة.



قبة الحاكم. (٣٨٠-٤٠٣هـ) (٩٩٠-١٠١٣م)

(شكل رقم ٣)

أما جامع الجيوشي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) الذي أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي، فهو فريد في تصميمه وفكرته؛ إذ به قبة فوق الحجرة الصغيرة التي في الجهة الشرقية، وهذا دليل على أنها أعدَّت لتكون ضريحًا لمنشئ البناء، ولهذا النظام أهمية عظيمة من الناحية الأثرية حيث إنه لأول مرة في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر نجد جامعًا يلحق به ضريح لمنشئه. والقبة لها مميزات القباب الفاطمية الأولى من حيث وجود واحد من المقرنصات، أما القبة التي فوق مربع المحراب فهي أكبر حجمًا، وترتكز على جدران المحراب، وعلى ثلاثة عقود كبيرة، وتشبه القبة السابقة من حيث وجود مقرنص واحد كما هو الحال في الجامع الأزهر والحاكم، وهي تشبه قباب هذين الجامعين من حيث وجود الإفريز من الخط الكوفي المشجر حول مربعه، ورقبة القبة مثمنة، وبها نوافذ سُدَّ معظمها، والمثمن والقبة من الآجُرَّ.

أما القبة في مداخل أسوار القاهرة الفاطمية فهي دائرية من الحجارة، ترتقي على مقرنصات مثلثة مثل باب زويلة، ثم تطوَّر المقرنص في ضريح الجعفري والسيدة عاتكة، وأصبح من حطّتين أي من صفَّين أو طابقين.

والواقع أن قباب الجامع الأقمر تشبه قباب مدخلي الأسوار في باب الفتوح وباب زويلة، وهذه القباب تغطي الأروقة حول الصحن.

ويرجع إلى هذا العصر قباب أقيمت في مدينة أسوان، وهي فريدة في نوعها تنفرد بمميزات معمارية خاصة تميزها عن غيرها من القباب في مصر،

وأهمها قبة المعدّاوي، وقبة (السبعة والسبعين وليًا)، وقبة العتريس، وقبة الشيخ سليمان المغسّل، وقبة الشيخ محمود، وقبة أبي المجد، وقبة قاضي الشريعة، وقبة الحسن، وقبة إبراهيم الدسوقي، وقبة السيدة رقية، وقبة فاطمة الزهراء، وقبة الشيخ هارون، وقباب جبانة العناني.

وقد تناول الأستاذ مونريه هذه القباب بالبحث، وإن كان معظمها قد اندثر فإننا نجد بعضها ما زال قائمًا، في الجبانة القبلية والبحرية وفي أماكن متفرقة في أسوان، ونلاحظ أن عددًا كبيرًا منها به شواهد قبور في دوائرها وأعتابها ومكان مقرنصاتها مندمجة في أجزاء البناء.

والواقع أننا لا نعرف أصحاب هذه القباب تمامًا، لذلك نجد الأستاذ كريزويل يبدي أسفه؛ لأن الشواهد والألواح التاريخية التي كانت محفوظة داخل القباب قد نُزعت، وأرسلت إلى القاهرة لتحفظ بالمتحف الإسلامي، ولم يهتم بتدوين اسم المكان الذي نزعت منه، فضاع بذلك المستند الوحيد الذي كان يمكن أن يساعدنا في التعرف على أصحابها. وهو في النهاية يقترح الاعتماد على ما ذكره الأستاذ مونريه في رصد خريطة أسوان ووضع (النّمر) وفقًا لما جاء في كتابه.

وأغلب الظن أن بعضها يرجع إلى القرن الرابع الهجري مثل قبة السيدة رقيّة، وبعضها الآخر يرجع إلى القرن الخامس الهجري مثل قبة (السبعة والسبعين وليًا).

القبة في العصر الأيوبي

إن ما بقى في القاهرة من آثار الأيوبيين بخلاف الأسوار والقلعة وبوابة الثعالبة ومئذنتي المشهد الحسيني ومنارة الهنود هو قبة برج الظفر وقبة الإمام الشافعي وقبة الخلفاء العباسيين وقبة شجرة الدر وقبة الصالح نجم الدين. وأول ما نلاحظه هو نشأة نظام جديد في العمارة الإسلامية، وهو المدارس، ثم استمرار التقاليد الفاطمية المعمارية، وعلى الأخص في العمارة الدينية.

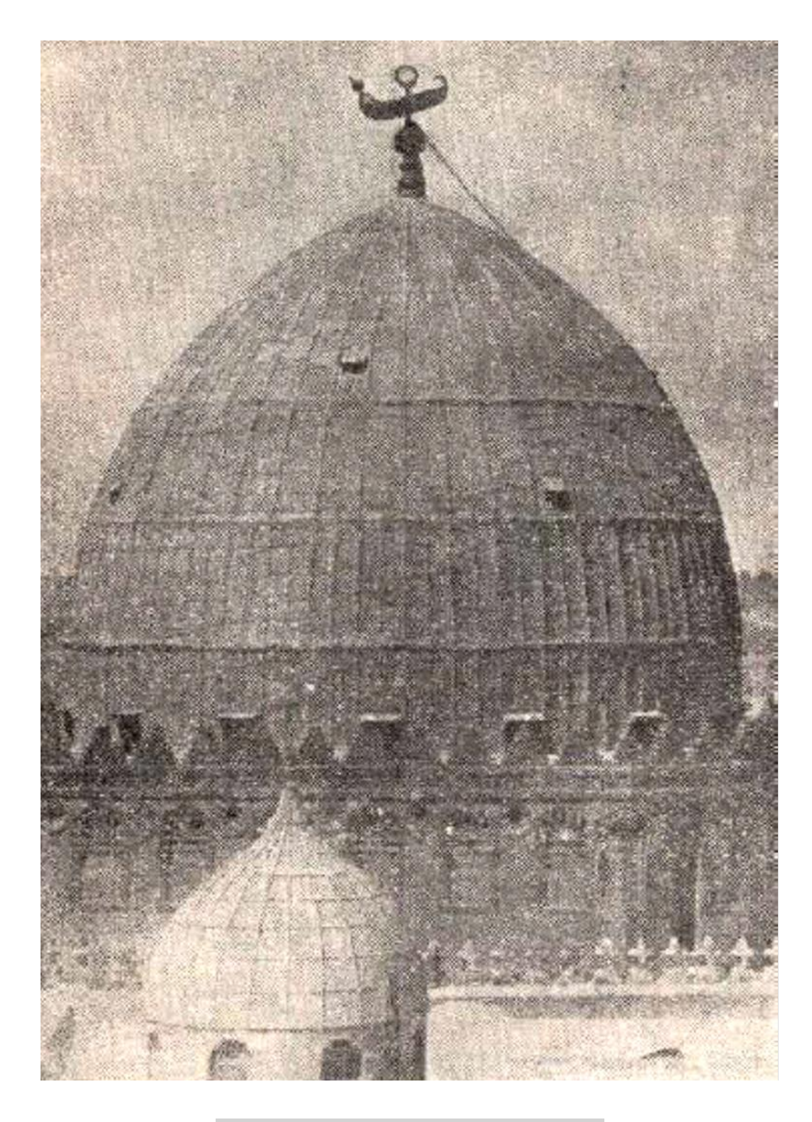
وأول هذه التقاليد استعمال الآجُرّ في بناء القبوات، أما العقود فبنيت من الحجارة غالبًا وقد ابتدعوا من بناء العقود أنصاف الدوائر، وبنوا القبوات والعقود المدببة أو المنكسرة، وقد استعمل الآجر في الأجزاء العليا من المباني لأنه أخفُّ وزنًا، واستعملت الحجارة في الأجزاء السفلى؛ أما المقرنصات فاستمرت في طريق تطورها.

وأخذ المقرنص ينقسم إلى طوابق وإلى عقود جزئية؛ فقد كان المقرنص في العصر الفاطمي ينقسم إلى طابقين، فأصبح في العصر الأيوبي مكونًا من طابقين أيضًا، ولكنه يحوي أربع طاقات: منها ثلاثة في الطابق الأول، وواحدة في الطابق الثاني، ثم تطور الشكل أيضًا فأصبح للمقرنص ثلاثة طوابق، بالطابق الأول ثلاث طاقات، طاقة وسطى وطاقتان صغيرتان أو خمس طاقات، يفصل بين رءوسها بروز على شكل نصف هرم مقلوب، والطابق الثاني خمس طاقات، منها طاقات مسطحة تنحصر في عقد عريض.

وهكذا أخذت عملية تحويل المربع إلى مثمن، فإلى ستة عشر ضلعًا تتم بمجموعة مقرنصات ذات ثلاثة طوابق، وأخذت عقود المقرنصات تمتد على الجوانب وتتصل بعقود النوافذ الوسطى. وكانت تكسو هذه العقود والطاقات والمقرنصات كسوة خشبية، تمتد عليها أشرطة محلاة بزخارف هندسية ونباتية وخطيّة مثل قبة الإمام الشافعي، واستمر تطور أنظمة المقرنصات في عصر المماليك، وتعقدت أشكالها وتنوعت تنوُّعًا كبيرًا، وظاهرة التجزئة والتكرار مع التنوع من صميم الفن الإسلامي.

ومن أشهر قباب هذه الفترة قبة برج الظفر سنة (٥٦٦-٥٧٢هـ) (١١٧١-١١٧٦م)، إذ يعلو البرج قبة حجرية ترتقي على مقرنص من حطّة واحدة.

وتعتبر قبة الإمام الشافعي سنة (٦٠٨هـ-١٢١١م) (شكل ٤) أجمل أمثلة هذا العصر، وهي أقدم قبة خشبية، حيث أقيمت على طرازها قبة جامع الظاهر بيبرس البندقداري وغير ذلك، وهي تحتفظ بتاريخ إنشائها مسجلًا فوق العتب الخشبي للشباك الغربي للقبة، ويلاحظ أن القاعدة المربعة تنتهي بشرفة، كما أن بها شرفات مسننة تحلّيها محارات جميلة، ذات عقود مثلثة بها زخارف جصية، وأعلى هذه القاعدة القبة الخشبية المكسوة بالرصاص، وقد كسيت القبة من الداخل بالرخام.



قبة الإمام الشافعي (٦٠٨هـ/١٢١١م)

(شكل رقم ٤)

ومقرنص القبة عبارة عن ثلاث حطات، والحطة السفلية مكونة من خمسة مقرنصات، تعلوها سبعة ثم ثلاثة.

وهكذا نجد أن المقرنص قد تطور في العصر الأيوبي وأصبح من ثلاث حطات بعد أن كان في نهاية العصر الفاطمي من حطتين، وبأعلى القبة من الخارج زورق صغير مثبت في هلال القبة، ويقال إنه كان يوضع به الحبوب. والواقع أنها ظاهرة قديمة ترجع إلى العصر الطولوني؛ إذ قال الجبرتي: إنه كان هناك مركب يعلو هلال منارة الجامع الطولوني. ولا تتميز قبة الصالح نجم الدين سنة (٦٤١-٦٤٨هـ) (١٢٤٣-١٢٥٠م)، أو قبة الخلفاء العباسيين سنة (٦٤٠هـ-١٢٤٢م)، أو قبة شجر الدر سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، إلا بتطور المقرنص الذي ازدادت حطاته أو ما حوته القبة من زخارف رائعة على الجص أو الخشب.

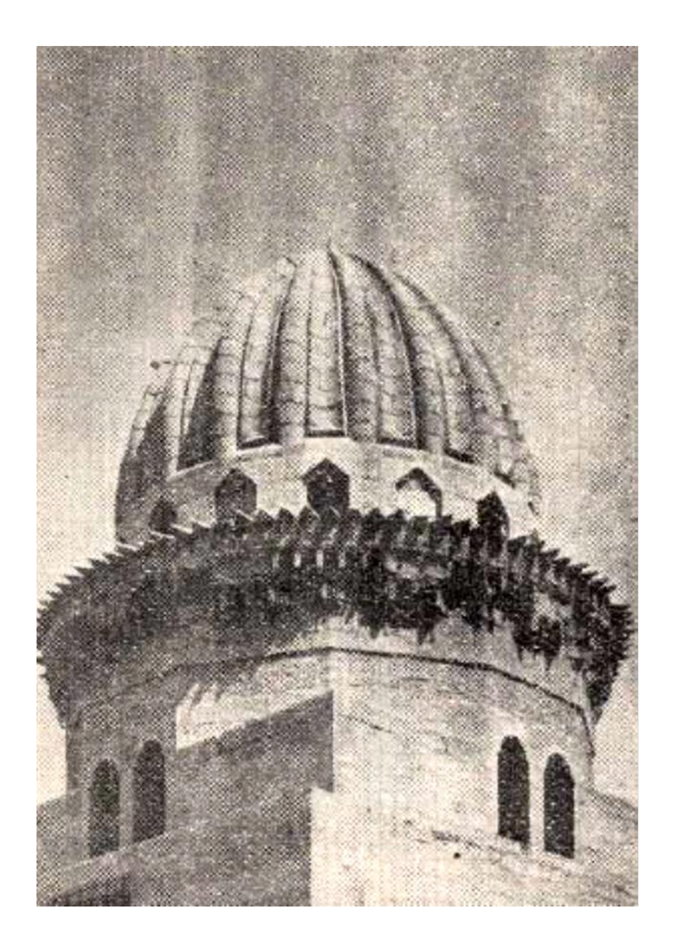
القبة في العصر المملوكي

استمر الآجر يستعمل في مبانٍ كثيرة وخاصة في الأجزاء العليا المرتفعة، بالرغم من طغيان طرق البناء بالحجارة؛ ولهذا ظلت أشكال هذه الأجزاء من المباني مختلفة بهيئتها في العصور السابقة وخاصة القباب.

والملاحظ أن القباب في العصر الفاطمي كانت تحوى عادة ضلوعًا ضخمة، مثل قبة السيدة رقية، وأحيانًا ما تنتفخ جوانب القبة.

وقد احتفظ في عصر المماليك بهذه الأشكال في البناء بالحجارة، إذ بنيت قباب مضلعة بالحجارة، كما أنها بنيت بالآجر، مثل قبة تانكزبغا بمقابر الخلفاء (شكل رقم ٥).

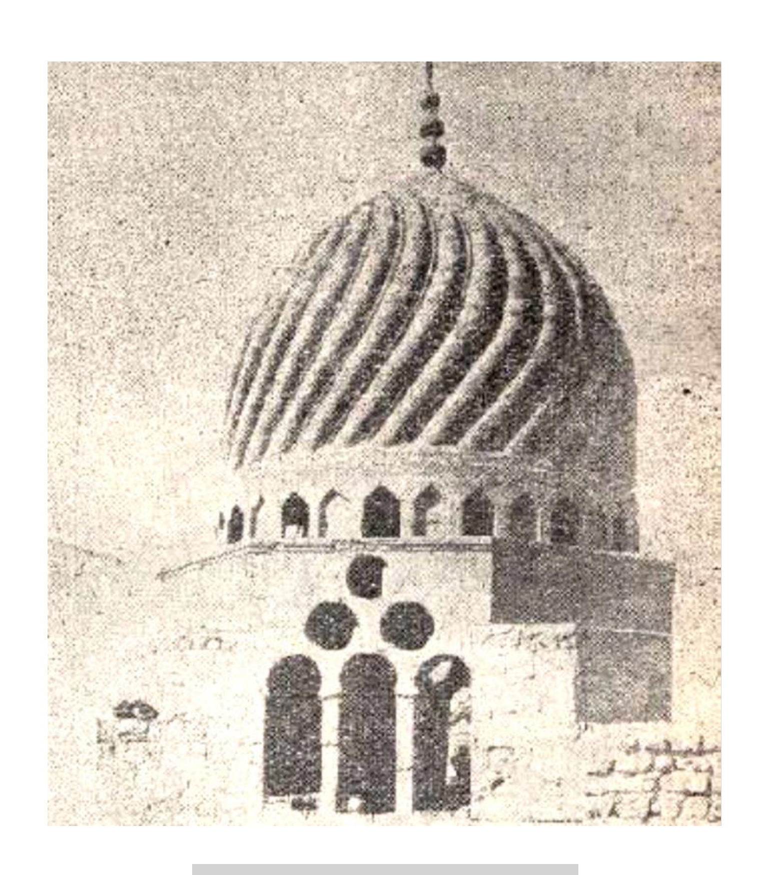
وقد ابتكر أيضًا في هذا العصر أشكال زخرفية بديعة، منها قبة الجاي اليوسفي سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٣م) التي اتخذت شكلًا حلزونيًا جميلًا (شكل رقم ٦).



قبة تانكزبغا (٧٦٠هـ/١٣٥٩م)

(شكل رقم ٥)

ويجب أن نقرر في هذا البحث أن قباب العصر المملوكي عادة على رقاب مستديرة مسدودة أحيانًا، وأحيانًا أخرى تنفتح بها نوافذ، وتدور حولها إطارات زخرفية أو كتابية، وأيضًا قد تتحلى هذه تجاويف، وتركز هذه الرقبات المستديرة بدورها على طابق مثمن الأضلاع تنفتح فيه النوافذ، واتبع في تقسيم هذه المضلعات الطرق الفاطمية نفسها من التدرج بحيث تظهر أركان المربع مدرجة، فترى المربع ثم المثمن، واتبع داخل القبة طريقة الاتصال التي كانت متبعة في العصر الفاطمي، وهي المقرنصات المعقودة أو التجاويف، فيحتل زاوية المربع مقرنص، ويقسم المقرنص قسمين بنصف قبوة متعارضة، ويحف به من الجانبين طاقتان قمتهما مدببة، ويعلو هذا الطابق طابق ثانٍ بتوسطه مقرنص يرتكز على نصف أسطوانة، وتحف به من الجانبين تجاويف مسطحة، وأحيانًا يحتل هذا المقرنص الأخير موضعًا من الطابق الأسفل، وأحيانًا تتوزع هذه العناصر على ثلاث طوابق.



قبة الجاي اليوسفي (٧٧٤هـ/١٣٧٣م)

(شكل رقم ٦)

وأخذت التجاويف الجانبية تنكمش تبعًا لتزايد عددها، كما أخذت قواعد التجاويف يتقارب بعضها من بعض تبعًا لذلك، وترسم مساندها شكلًا يشبه شكل أسنان المنشار المتعددة، وتعددت كذلك أشكال المقرنصات، ورسمت تشكيلات مختلفة في زاوية القبة، تكونت منها مجموعة هرمية الشكل، وهذه المجموعة عبارة عن مقرنص فسيح قسم إلى تجاويف صغيرة كثيرة ومقرنصات صغيرة.

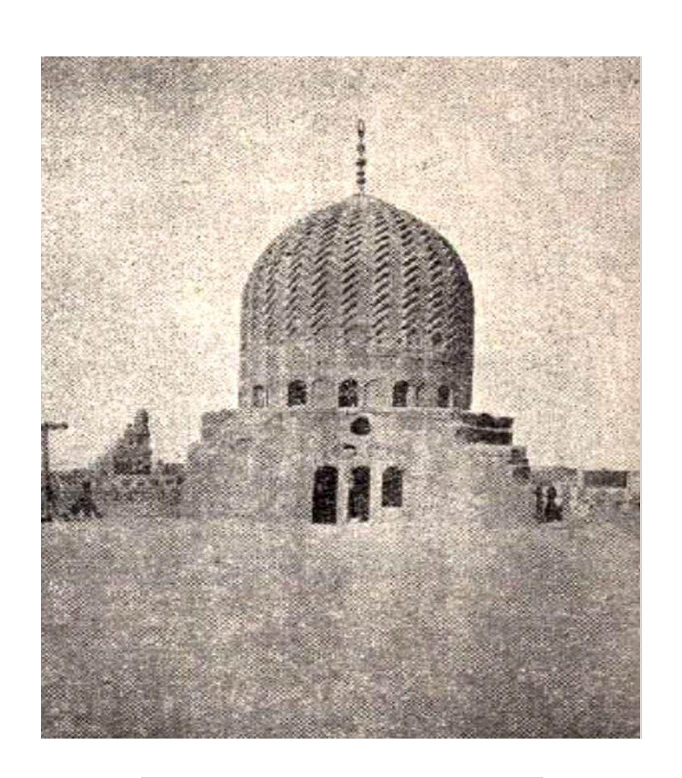
والملاحظ أن هذه التشكيلات تطوُّرٌ للنظام الذي اتبع في العصر الفاطمي في قبة عاتكة والسيدة رقية، إلا أن البناة في نهاية هذا العصر اتجهوا نحو إظهار الشكل الزخرفي وأشكال أسنة المنشار، فأدمجوا في بناء المقرنصات قطعًا خشبية تؤدي هذا الشكل. وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فرأوا أنه من الأسرع أن يصنعوا من الخشب قوالب؛ تقليدًا لأشكال المقرنصات يلصقونها في البناء أمام المقرنصات المبنية لتتخذ الأشكال الزخرفية المطلوبة. وهذا النظام واضح في مسجدي الناصر مُحَمَّد بالقلعة والمارداني ومدرسة السلطان حسن.

وقد ظهر في نهاية عصر المماليك البحرية نوع جديد من المقرنصات لقى في عصر المماليك الشراكسة حظًا كبيرًا من التطوّر، وهو واضح في مدخلي مدرسة السلطان حسن؛ إذ تكوّنت المقرنصات في مجموعة مثلثة تتكون من مجموعة من المقرنصات المعقودة، وهذا نوع جديد يجمع من نظام المقرنصات المثلثة ونظام المقرنصات المعقودة التي عرفت في العصر الفاطمي.

وقد أقام المهندس لضريح السلطان حسن قبة، وألصق بزوايا مقرنصات مثلثة مموّهة من الخشب، ونظمها من طوابق من طاقات الواحدة فوق الأخرى، وهذه الكسوة الخشبية في الواقع لا تؤدي أية وظيفة معمارية؛ فقد بدأ المهندس مجموعته الزخرفية في موضع منخفض للغاية، وجعل لجذع مجموعته مقرنصًا مثلثًا صغيرًا، وأفاض عليه مظهرًا زخرفيًا بحلية من زهيرات، ورسم لهذه المجموعة أسنة شبيهة بأسنَّة الطاقات، وقد اتبع

هذا النظام في عصر المماليك الشراكسة، واستخدم حلية في زوايا الجدران الداخلية حتى في الأمكنة المسقوفة بسُقُف مسطحة.

وقد حاول البناة في نهاية هذا العصر إقامة قباب من الحجارة، ونراهم يترددون بين طريقتين: أولاهما طريقة المقرنص المعقود ذي الصنج المنتظمة، وهي طريقة قديمة ترجع إلى العصر الفاطمي، والطريقة الأخرى طريقة المقرنص المثلث، وكانت أيضًا متبعة في العصر الفاطمي في باب زويلة.



قبة الأشرف برسباي (٨٢٩هـ/١٤٢٥م)

(شكل رقم ٧)

ولكنهم لم يظهروا هذا المقرنص المثلث عاريًا من الحلية، وإنما كانوا يكسبونه دائمًا بمجموعات من الطاقات المقتبسة من طاقات المقرنصات المعقودة نفسها، والتي أخذت تتعدد وتتسلق الجدران.

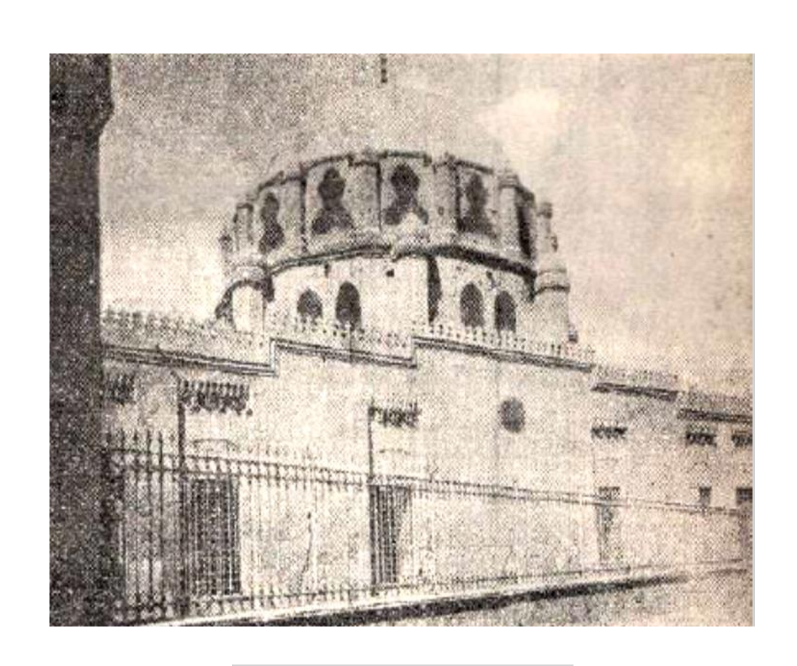
وقد وصلت القبة في عصر المماليك الشراكسة إلى مرحلة جديدة، فوجدت القبة الكروية والمضلعة والبيضاوية وغيرها، وتطورت المقرنصات وزادت عدد صفوفها حتى أصبحت ثلاثة عشر صفًا، كما يلاحظ صغر حجم القبة والاهتمام كل الاهتمام بشكلها العام ومنظرها الخارجي، وأصبحت تزدان بزخارف رائعة من الخارج قوامها الوحدات النباتية والهندسية أو المجدولة والحلزونية، مثل قبة الأشرف برسباي (شكل ٧) ومع ذلك فقد أقاموا قبة كبيرة تزدان في أعلاها بمنْوَر ترتكز عليه قبة صغيرة مضلعة، مثل قبة الشيخ عبد الله بالقرافة الشرقية بالقاهرة (القرن السابع أو الثامن الهجريان).

وبالرغم من هذا التطوّر الذي شمل القباب في العصر المملوكي بأسره، فإنه لم يخل من قباب أقيمت على مقرنص من طابق واحد، مثل قبة المحراب بجامع آق سنقر وقبتي مسجد أم السلطان شعبان وقبتي تانكزبغا، وهي إحدى صفات القباب الفاطمية الأولى.

القبة في العصر التركي

ليس من شك في أن العمارة الإسلامية في مصر قد تأثرت بأساليب وطُرز تركية عندما وقعت مصر تحت حكم الأتراك؛ فقد شيد سليمان باسا مسجده بالقلعة سنة (٩٣٥هـ/١٥٢٨م) على طراز مساجد الآستانة المتأثرة بالكنائس البيزنطية، وهو مكوّن من قبة كبيرة مكسوة بالقاشاني، ترتقي على أربعة مثلثات كروية، وأمامها صحن مكشوف تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة كسيت بالقاشاني أيضًا.

ويعتبر مسجد سنان باشا ببولاق سنة (٩٧٩هـ/١٥٧١م) (شكل ٨) ثاني مسجد أقيم في مصر، وهو يتكون من قبة جحرية لها ثلاثة أبواب تؤدي إلى ثلاثة إيوانات، والقبة من الداخل لها أربع زوايا لكل منها عقد ينتهي بطاقية مقرنصة، ويعلو هذا المربع مستدير مقسم إلى ستة عشر ضلعًا، منها ثمانية بكل منها تسعة شبابيك جصية مستديرة، وأخرى بكيل منها دوائر حجرية مضاعاة للجصية، وفي كل ضلع من الأضلاع الستة عشر عمود حجري رشيق يحمل مقرنصات بدلايات فوقها ممرٌّ يحيط بالقبة، له درابزين خشبي ثم شبابيك جصِّية تعلوها القبة، ويفصل هذه الشبابيك من الخارج دعائم حجرية، ويظهر نظام القبة الضحلة المنخفضة واضحًا.



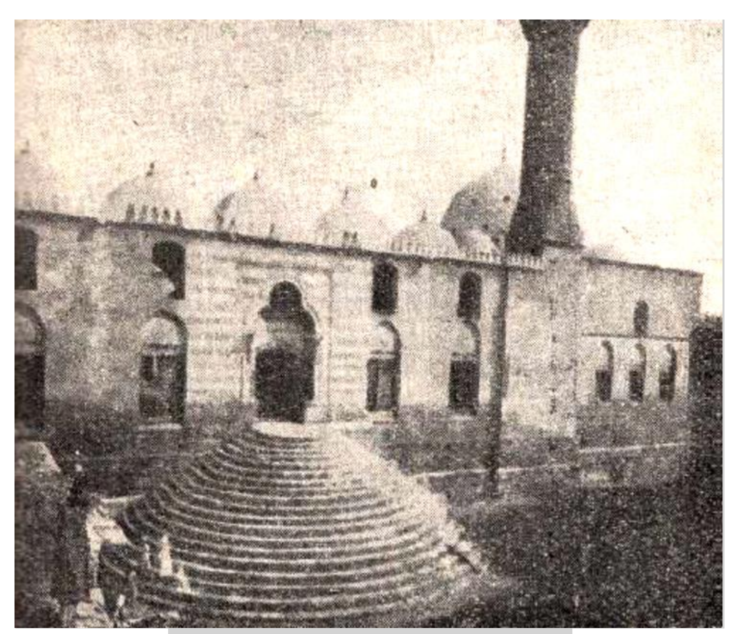
قبة سنان باشا (٩٧٩هـ/١٥٧١م)

(شكل رقم ٨)

ويلي ذلك تاريخيًا جامع الملكة صفية بالداودية سنة (١٠١٩هـ/١٦١٠م) (شكل رقم ٩). وهو ثالث جامع وضع تصميمه على غرار الجوامع العثمانية في تركيا، وهو مرتفع عن مستوى الشارع بنحو أربعة أمتار، وبناؤه مستطيل ينقسم قسمين: القسم الشرقي منه يتكون من مربع، تتوسطه شقة كبيرة من الجرانيت تحمل عقودًا حجرية فوقها قبة كبيرة، بدائرها فوق العنقود ممر صغير يحوط رقبتها، أقيم عليه درابزين من الخشب الخرط خلفه أربعة وعشرون شباكًا من الجص والزجاج، ثم غطاء القبة. وقد فتحت به (مناور) صغيرة مستديرة، واتخذت بالمنطقة التي بين عقود المسدس قباب صغيرة. أما القسم الآخر فهو يتكون من صحن

مكشوف حوله أربعة إيوانات، عقدت سقوفها لقباب صغيرة أهلتها حجرية. ومن أمثلة المساجد التركية في مصر مسجد مُحَمَّد بك (أبو الذهب) سنة (١١٨٨هـ/١٧٧٤م).

والواقع أن تصميم هذه المساجد يختلف عن طبيعة اللون المعماري في مصر؛ فهو فريد في نوعه ووافد على العمارة الإسلامية في مصر بل دخيل عليها، في حين أنه يشبه تمامًا المساجد التي أقيمت في استانبول، وخاصة مسجد أحمد باشا المعروف بجامع طوب قبو الذي وضعه تصميمه المهندس سنان. وهناك تشابه واضح بينه وبين مسجد الملكة صفية، ولا سيما في المظهر الخارجي. وهذا يؤيد النظرية القائلة بأن هناك تأثيرات عثمانية أدخلت على العمارة المصرية الإسلامية فأثرت عليها، وأن هذه الأساليب والتأثيرات كانت مطعمة بأساليب بيزنطية. ويظهر ذلك في تطوّر القبة التي أصبحت ضحلة منخفضة، وهي صفة من صفات العمارة في كلٍّ من القسطنطينية وسالونيك، التي تختلف عن القبة المصرية الإسلامية المرفعة. ولا عجب، فقد كانت كنيسة أيا صوفيا التي تحولت إلى مسجد نموذجًا لمساجد أقامها بناة العثمانيين في القرون التالية.



جامع الملكة صفية (١٠١٩هـ/١٦١٠م)

(شكل رقم ٩)



مسجد مُحَمَّد علي الكبير بالقلعة (١٢٦٥هـ/١٨٤٨م)

القبة في العصر الحديث

نعتبر قبة مسجد مُحَمَّد علي الكبير بالقلعة من أهم قباب هذا العصر سنة (١٢٦٥هـ/١٨٤٨م)، وهي التي أقيمت على غرار مسجد السلطان أحمد، والمسجد ينقسم قسمين: أحدهما غربي وبه الصحن وتتوسطه فسقية للوضوء، والآخر شرقي مربع تتوسطه قبة كبيرة ترتقي على أربعة عقود ترتكز على أربع أكتاف مربعة يحوطها أربعة أنصاف قباب، ثم نصفٌ خامس يغطي بروز المحراب، وذلك غير أربعة قباب صغيرة بأركان المسجد، وقد كسيت جدران المسجد من الداخل والخارج بالرخام الألبستر، وكذلك الأكتاف الأربع الداخلية الحاملة للقبة.

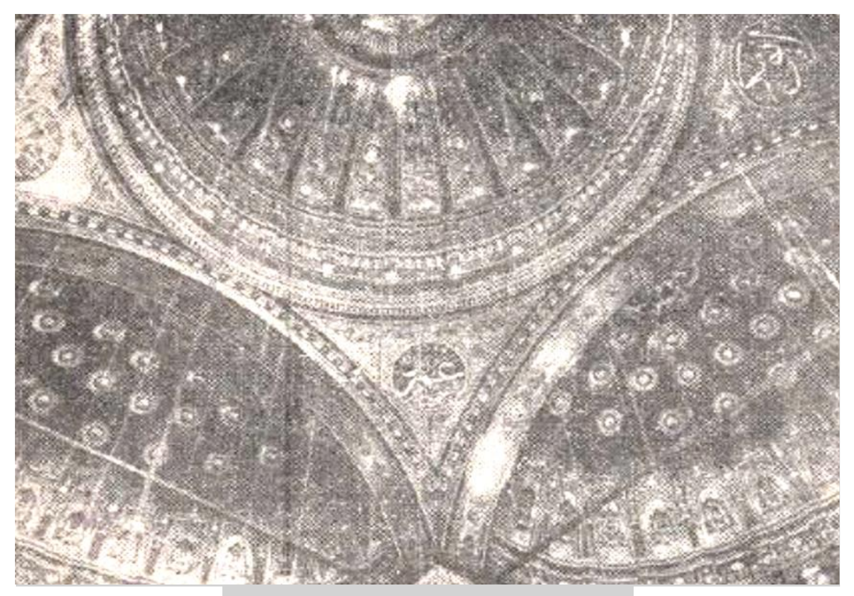
وقد كسيت جدران المسجد فوق الطبقة الرخامية بنقوش ملونة مذهبة، أما القبة الكبيرة وأنصاف القباب فهي تزدان بزخارف بارزة ملونة مذهبة تمثل عقودًا وزهورًا، وعلى أضلاعها الكتابات الآتية: "بسم الله – ما شاء الله – تبارك الله"، كما حُليت زوايا القباب والعقود بلفظ الجلالة، ومُحَمَّد رسول الله، وأسماء الخلفاء الراشدين.

ويلاحظ أن القبة القديمة قد أزيلت لخلل بها، وأعيدت في عام ١٩٣٥م بعد أن صُنِعَ لها هيكل من الصلب.

وقد اقتبس مهندس المسجد زخارفه من العناصر الزخرفية التي شاعت في تركيا في القرن الثامن عشر الميلادي، وهي تمثل زهورًا ملونة وعناقيد عنب وحداتها مكررة.

وخلاصة هذا البحث أن القبة أخذت في التطور مع المقرنص جنبًا إلى جنب؛ فقد كان المقرنص في أول الأمر من حطة واحدة، وفي نهاية العصر الفاطمي أصبح من حطتين، ثم تطور إلى ثلاث حطات في العصر الأيوبي، وازداد هذا العدد في العصر المملوكي، كما اتجهوا نحو إظهار الشكل الزخرفي، فأدمجوا في البناء قطعًا خشبية صاغوها على شكل قوالب تقليدًا للمقرنصات، وقد زاد عدد صفوفها حتى أصبحت ثلاثة عشر صفًا، وكذلك القبة كانت ملساء تبنى بالآجر، ثم شملها التضليع أو انتفاخ جوانبها وأصبحت تبنى بالحجارة بدلًا من الآجر، وتطورت تطورًا ملحوظًا في العصر المملوكي حيث ابتُكرِت أشكال زخرفية بديعة، وأخذت تزدان بإطارات زخرفية أو كتابية، فوجدت القبة الكروية والمضلعة والبيضاوية. وبالرغم مما أصابها من صغر حجمها، فإنهم في البناء اهتموا بمظهرها الخارجي، فكسيت بزخارف من الخارج قوامها الوحدات النباتية أو الهندسية أو المجدولة أو الحلزونية أو بمنور أعلاها.

وقد تطورت القبة بعد ذلك وظهر عليها التأثير التركي، فأصبحت منخفضة، كما يظهر أيضًا التأثير السمرقندي في قبة الإيوان الغربي بمدرسة صرغتمش، ذات الرقبة المستطيلة التي يحيط بها إفريز كتابي مزخرف. وتتكون القبة من غطاءين، ولهذه القبة مثل أروع في خانقاه خوند سمرا بصحراء السيوطي، وقبة يونس الدو دار بالحطابة.



الزخارف الداخلية في قبة مُحَمَّد علي الكبير.



مسجد أحمد باشا بالأستانة، الذي أقيم على غراره مسجد علي بالقاهرة، ويبدو واضحًا هنا أوجه الشبه الكثيرة بينهما.

وليس من شك في أن تكسية رقاب القباب بالقاشاني قد ظهرت في قبة سبيل الناصر مُحَمَّد بن قلاوون، وقباب أمِّ آنوك وأصلم السلحدار وابن غراب وغيرها، التي ترجع إلى أوائل القرن الثامن الهجري، وأن مساحة الكسوة بالقاشاني أخذت في الزيادة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، حتى أصبحت تغطي القبة كلها مثل قباب الغوري بالغورية، وسليمان باشا القلعة، والتكية السليمانية بالسروجية.

المراجع

- الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الأول، طبعة بولاق سنة ١٢٩٧.
- حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ١٩٤٦.
- الدكتور زكي حسن: فنون الإسلام ١٩٤٨.
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي): الخطط المقريزية، طبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٥هـ.
- كمال الدين سامح: تطور القبة في العمارة الإسلامية، فصلة من مجلة كلية الآداب، المجلد الثاني عشر الجزء الأول، في مايو سنة ١٩٥٠.
- علي مبارك باشا: الخطط التوفيقية الجديدة، طبعة بولاق سنة ١٣٠٥.
- أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف ١٣٥٥هـ-١٩٣٦م.

- محاضر لجنة حفظ الآثار العربية.

- Terrasse (Henri) L'art hispano-mauresque des origines au XIIle siècle; I Vol. in-4° Paris, Van Oest, 1933.

- Dieula foy (Marcel): Art antique de la Perse, 5 Vol. in-fal. Paris, 1884-1885.

- Rosintal: Trompes et stalactites dans l'architecture orientale, I Vol. in-fol., Paris, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1928.

- Rivoira: Moslem Architecture, 1 Vol. in-4° OXford, 1919.

- Choisy (Auguste): Histoire de l'architecture, 2 Vol. I in-8° Paris, Geuthner-Villars, 1899.

- Creswell: Early Muslim Architecture Umayyads, Early Abbasids and Tulunids, Vol I, Oxford, Don Press, 1932 in-fol.

- Fikry Ahmad. L'art roman du Puy et les Influences Islamiques, I Vol. in-4°, Paris, Leroux, 1934.

- MarÇais (Georges): Manuel d'art musulman. L'architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile, 2 Vol. in-8°, Paris, Augustc Picard, 1926-27.

- Hautecæur (Louis): De la trompe aux «Mukarnas» Gazette des Beaux Arts, 1931, III, p. 27-51.

- Hautecueur et Wiet: Les mosquées du Caire, 2 Vol in-fol., Paris, Leroux, 1932.

- Tryzgowski (Joseph): Die Baukunst der Armentier und Europa, 2 Vol. in-4°. Vienna, 1918.

- Briggs, M.S.: Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford, 1924.

- Monneret: La necropoli musulmana di Asuan, Le Caire. Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1920.

قبَة الصَخرة

يحيى مصطفى عبد المجيد

تعتبر قبة الصخرة من أقدم وأبدع العمائر الإسلامية الباقية حتى الآن، وهي درة الفن المعماري الأموي ، وقد أمر ببنائها (عبد الملك بن مروان٩ عام (٧٢هـ/٦٢١م)، وترجع الأهمية المعمارية لقبة الصخرة بالنسبة للعمارة الإسلامية لعدة أسباب منها:

أولًا: أن قبة الصخرة هي المبنى الإسلامي الوحيد الذي صمم ليكون مزارًا، وجاء تصميم المبنى بهذا الشكل ليلائم الطواف حول الصخرة المشرفة.

ثانيًا: يوجد في النصف الشرقي من الضلع الجنوبي للمثمن الخارجي من المبنى محراب مجوف، ويعتقد أن هذا المحراب هو أول محراب مجوف في العمائر الإسلامية، ومن المعتقد أيضًا أن اتخاذ المحراب في المساجد للدلالة على جهة الكعبة مأخوذ عن حنية الهيكل في صدر الكنيسة.

ثالثًا: لأول مرة تستعمل القبة في المسجد، وهي التي كانت مستعملة في الكنائس المسيحية، وفي أبنية الرومان والبيزنطيين.

رابعًا: استعمال الأعمدة ذات التيجان والأقواس النصف دائرية في العمائر الإسلامية، كل هذا كان فتحًا جديدًا في بناء المساجد بدأه عبد

الملك في القدس، وقد أدت هذه التجديدات الجوهرية في العمائر الإسلامية إلى ابتكارات جديدة لإبراز جمال العمارة الإسلامية.



صورة لقبة الصخرة

نبذة تاريخية:

عندما ذهب خليفة المسلمين عمر بن الخطاب لتسلم مفاتيح مدينة القدس، أبدى رغبته في صعود قمة جبل موريا لزيارة الصخرة المشرفة حيث وجدها خرابًا، وسجد عمر بن الخطاب لله مصليًا وشاكرًا نعمته، وقد شيد مكان صلاته فوق الصخرة مصلى من الخشب، على أنقاض هذا المصلى الخشبي شيد (عبد الله بن مروان) البناء الحالي لقبة الصخرة.

والسبب المباشر لبناء قبة الصخرة هو أنه بعد أن استولى الأمويون على الحكم، واتخذوا دمشق حاضرة له، وأصبح الشام ضمن الأمصار الإسلامية الخاضعة لسلطان الأمويين، وقد كانت الحضارة البيزنطية منتشرة في بلاد الشام؛ ولذلك نلاحظ أن فنون الطراز الأموي تأثرت كثيرًا بالفن البيزنطي. وقد أعلن (عبد الله بن الزبير) نفسه خليفة على المسلمين في مكة المكرمة، وكان ابن الزبير من أشد المعارضين لبني أمية وطال الصراع بين الطرفين، وكانت حركة ابن الزبير وسيطرته على المكان المقدس عند المسلمين وهو البيت الحرام بمثابة شوكة في ظهر بني أمية، وقد سمى نفسه (العائذ بالبيت) نسبة لسيطرته على منطقة البيت الحرام، وخشي بنو أمية من أن يؤثر ابن الزبير على المسلمين وتنتشر أفكاره بين حجاج بيت الله الحرام، ويتبعوه أو يحملهم على مبايعته أثناء أدائهم مناسك الحج؛ فأمر عبد الملك بن مروان ببناء قبة الصخرة ليمنع المسلمين من زيارة الكعبة ويستبدلها بالصخرة المشرفة؛ لارتباط المسلمين الوثيق بها باعتبارها المكان الذي عرج منه رسول الله (ﷺ) إلى السماء، ولارتباطها بالقبلة الأولى للمسلمين، مقنعًا إياهم بحديث رسول الله (ﷺ): "لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى". وقد أراد عبد الملك بن مروان أن يكون المبنى رائعًا يضارع في فخامته الكنائس البيزنطية التي كانت منتشرة في بلاد الشام، وأن تضارع قبتها كنيسة القيامة.

الوصف المعماري للمبنى:

١- الأسطوانة:

أقيمت الأسطوانة الدائرية حول الصخرة المشرفة، والصخرة طولها من الشمال إلى الجنوب حوالي ١٧,٥% مترًا، وعرضها من الشرق إلى الغرب حوالي ١٣,٥% مترًا، وارتفاعها يتراوح بين متر ومترين، والأسطوانة هي التي تحدد المطاف حول الصخرة وقد أقيمت الأسطوانة من بائكة(*) دائرية مكونة من ستة عشر عقدًا مدببًا، محمولة مباشرة على تيجان اثني عشر عمودًا وأربع دعائم، بين كل دعامتين ثلاثة أعمدة، وتم ربط كل عقد بواسطة عرق خشبي واحد.

٢- القبة:

تصبح الأسطوانة الدائرية من فوق العقود رقبة بها ستة عشر شباكًا، وتحمل القبة على هذه الرقبة وفوق الرقبة نهايتها الشهيرة وهي الهلال، ويبلغ قطر القبة ٢٠,٤٤ مترًا، وارتفاعها عن الأرض ٣٥,٣ مترًا، وإذا أضفنا ارتفاع الهلال إلى ارتفاع القبة يكون الارتفاع الكلي ٣٩,٣ مترًا.

والقبة مكونة من قبتين (داخلية وخارجية) مستقلتين عن بعضهما، ويوجد بينهما مسافة تسمح بمرور إنسان لسهولة التنظيف عن طريق باب موجود بالقبة الداخلية، وكل قبة مكونة من ٣٢ ضلعًا من الخشب، يأخذ كل ضلع شكل القوس والأضلاع مترابطة في الجزء السفلي منها بواسطة

إشكالات قطرية من الخشب، عملت بطريقة شبكية لتقويتها، ويربط الأضلاع من أعلى قرص مستدير من الخشب وكل ضلع مكون من ثلاثة عروق مثنية؛ لتأخذ الشكل المنحنى للقبة، ويربط كل عرقان عند اتصالهما حزامان أفقيان من الألواح الخشبية. وعلى الأضلاع الداخلية سمرت الألواح الخشبية من الداخل ثم غطيت بخيش مغرى؛ ليتماسك عليه الجص الذي لصقت عليه الفسيفساء ذات الزخارف البديعة. ومن الخارج سمرت الألواح الخشبية على أضلاع القبة الخارجية، وغطيت بألواح من الرصاص ثم ألواح من النحاس اللامع، وتوجد مجراه للقبة من الخارج لتصريف مياه الأمطار يقابلها من الداخل حلية من كورنيشة خشبية.



الصخرة المشرفة من الداخل.

٣- البائكة[*] الوسطى:

وهي عبارة عن بائكة مثمنة تحيط بالأسطوانة، وبينها وبين الأسطوانة مطاف هو المطاف الداخلي، والبائكة الوسطى تتكون من أربعة وعشرين عقدًا محمولًا على ستة عشر عمودًا وثماني دعائم، بين كل دعامتين عمودان، ويوجد (سند) يفصل بين تاج كل عمود، وبداية العقد على خلاف عقود الأسطوانة المحمولة مباشرة على تاج العمود، وربطت عقود هذه البائكة بواسطة عرقين من الخشب متجاورين، وفوقهما مدماك من الطوب.

وسقف هذا المطاب جمالوني يميل إلى الخارج قليلًا، وهو على شكل مروحة وربط السقف بمدادات خشبية عرضية، والسقف الجمالوني مغطى من الخارج بالخشب الذي وضعت عليه بعد ذلك ألواح من الرصاص.

٤- المثمن الخارجي:

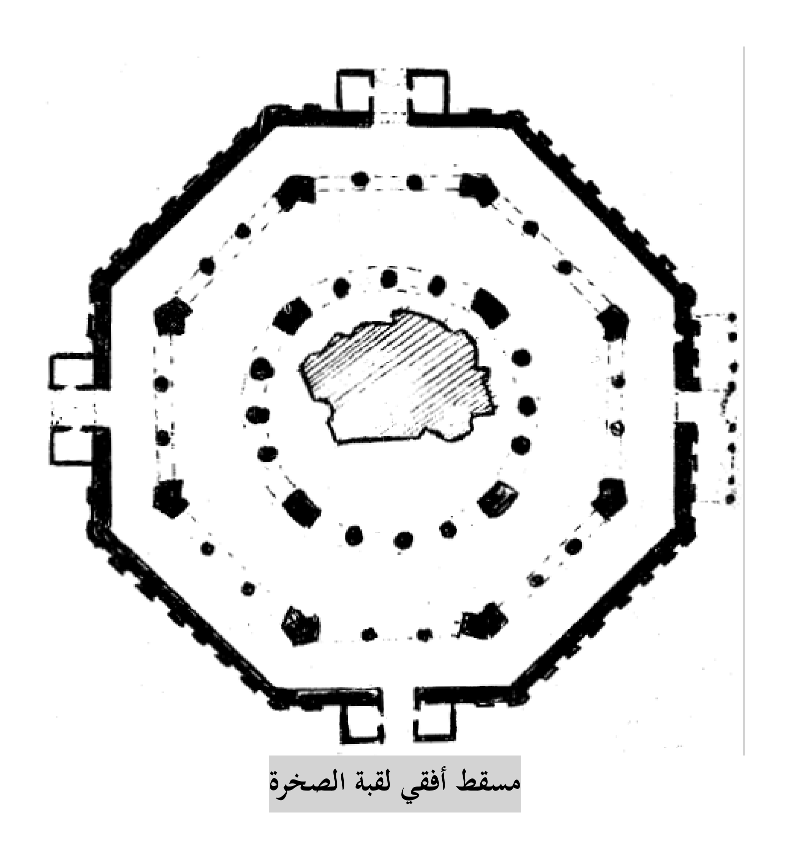
يوجد بين البائكة الوسطى والمثمن الخارجي مطاف آخر يحيط بالمطاف الداخلي، وهو أصغر منه نسبيًا، وتحد المطاف الخارجي من الخارج الحوائط الخارجية للمبنى، وسمي بالمثمن الخارجي، بحيث يتمشى مع ميل السقف على تصريف مياه الأمطار عن طريق ٤٨ ميزابًا، يوجد في كل

(*) البائكة صف من العقود المحمولة على أعمدة أو دعائم.

ضلع من أضلاع المثمن الخارجي ٦ ميازيب، وتوجد هذه الميازيب داخل دروة، هذه الدروة ترتفع فوق أضلاع المثمن الخارجي بمقدار ٢,٦ متر.

ويوجد في كل ضلع من أضلاع المثمن الخارجي من الخارج سبعة تجاويف، الخمسة الوسطى من هذه التجاويف في كل ضلع عبارة عن شبابيك نافذة ومزدوجة، كانت تشغل هذه الشبابيك من الخارج مصبعات الحديد، وتشغلها من الداخل بلاطات جصية مخرمة برسوم هندسية، مع استعمال الزجاج الملون لملء هذه الخروم، ولم يتبقَ من البلاطات شيء.

أما التجويفان الخارجيان في كل ضلع من أضلاع المثمن الخارجي، فكانا غير نافذتين، وبذلك يكون في المثمن الخارجي أربعون شباكًا نافذًا، خمسة شبابيك في كل ضلع.



مسقط أفقي لقبة الصخرة

٥- الأبواب:

ويوجد في المثمن الخارجي أيضًا أربعة أبواب محورية، كل باب منها في اتجاه جهة من الجهات الأصلية، وفتحة كل باب عرضها ٢,٦ متر وارتفاعها ٤,٣ أمتار، ويوجد أمام كل باب من الأبواب الأربعة مدخل، والمدخل مكون من سقيفة ذات سقف برميلي في الوسط، أما أجناب السقيفة فمسطحة، وقد تحولت ثلاث مداخل منها إلى حجرات على جوانب المدخل.

وفتحة كل باب ذات عتب مسطح من الخشب، وهذا العتب الخشبي مغطى بالبرونز، ويخفف عنه عقد عاتق نصف دائري، والمسافة الموجودة بين العقدين تكون الشباك الأوسط في الأضلاع التي يوجد بها أبواب.

٦– الشبابيك النافذة:

يبلغ عدد الشبابيك النافذة في قبة الصخرة ٥٦ شباكًا، يوجد في كل واجهة من واجهات المثمن الخارجي خمسة شبابيك، بالإضافة إلى ١٦ شباكًا موجودة في رقبة القبة، وكانت الشبابيك الداخلية في المثمن الخارجي أو الموجودة في رقبة القبة مشغولة ببلاطات رخامية وجصية مخرمة، مع استعمال الزجاج الملون لملء هذه الخروم، وكانت الزخارف الغالبة على هذه البلاطات المخرمة هي زخارف هندسية ونباتية، وقد انعكس عن طريق هذه الشبابيك النافذة إضاءة هادئة ملونة بديعة داخل المبنى، توحي بالخشوع وهدوء النفس.

٧– الأعمدة:

من الملاحظ على الأعمدة المستعملة في البناء أنها أعمدة منزوعة من مبانٍ قديمة، ونلاحظ أيضًا أن أبدان هذه الأعمدة مختلفة في أطوالها وكذلك تيجانها، ويمكننا أن نميز خمسة أنواع مختلفة من هذه الأعمدة.

ونظرًا لأن العمود يتكون من بدن، هذا البدن مركب على قاعدة ويحمل في نهايته تاجًا، ونظرًا لأن الأعمدة المستعملة في المبنى مختلفة الأطوال، فقد تم تعديل الفرق في الأطوال بينها عن طريق القواعد، فنلاحظ أن قواعد الأعمدة مختلفة في أطوالها؛ وذلك حتى تتناسب أطوال الأعمدة كلها.

من هذا الوصف المعماري لقبة الصخرة نجد أنها صممت لتكون مزارًا ومطافًا للمسلمين حول الصخرة المشرفة، وهو الهدف الأول والأساسي لبنائها، ولكن لم يمنع ذلك من استخدامها كمسجد، فنجد في النصف الشرقي من الضلع الجنوبي للمثمن الخارجي المحراب المجوف، الذي يعتقد أنه أول محراب مجوف في الإسلام كما ذكرت سابقًا، كما يوجد أيضًا محراب آخر عبارة عن علامة على الحائط بأسفل الصخرة (في الكهف الموجود أسفل الصخرة).

الزخارف:

لم يقل الإنتاج الفني للزخارف في قبة الصخرة عن الإنتاج المعماري، فجاء المبنى على هذا النحو العظيم من العمارة والزخرفة.

ويمكن أن نقسم زخارف قبة الصخرة إلى:

١- الزخارف الخارجية:

كسبت الجدران الخارجية حتى منتصفها بالرخام الأبيض اللامع، ثم تبدأ بعد الكساء الرخامي زخارف الفسيفساء الرائعة التي كانت تغطي باقي الجدران من الخارج، والتي استبدلت بعد ذلك بلوحات من القيشاني الملون في ترابيع رائعة الجمال.

٢- الزخارف الداخلية:

(أ) كسيت جدران المثمن الخارجي من الداخل وأعمدة ودعائم البائكة الوسطى، وكذلك أعمدة الأسطوانة الدائرية بالرخام إلى ارتفاع أربعة أمتار، وتبدأ زخارف الفسيفساء الملونة بعد هذا الكساء الرخامي، وتجمع زخارف الفسيفساء كثيرًا من الألوان منها الأسود والرمادي والبنفسجي والأزرق والأخضر والأحمر والذهبي والفضي، وزخارف الفسيفساء مكونة من زخارف نباتية، فمنها أوراق النباتات والفروع النباتية الملتوية والحلزونية، وكذلك الأشجار والثمار والعناقيد وأواني الزهور ورسوم الأهلة، وهناك أيضًا الزخارف الهندسية وأشرطة من الكتابات الكوفية.

وقد جاءت كل هذه الزخارف النباتية والهندسية والكتابات والرسوم الأخرى في تناسق جميل ومتجانس الألوان، ونفذت بغاية الدقة والمهارة بقطع الفسيفساء الملونة والمثبتة أفقيًا، عدا اللونين الذهبي والفضي فقد تم تثبيتهما بميل يعطي بريقًا ولمعانًا، ويزيد من جمال المنظر وروعته.

(ب) زخارف القبة من الداخل:

أما القبة من الداخل فقد غطيت بطبقة من الخيش المغرى ثم كسيت بالجص وطليت بالألوان وذهبت، وفوق الشبابيك من داخل القبة شريط من كناية كوفية كتب بماء الذهب على أرضية زرقاء، هذا الشريط من الكتابة محصور بين شريطين من الزخارف، ويوجد أسفل هذه الشبابيك الموجودة في رقبة القبة ٥ أشرطة من الزخارف نفذت بالفسيفساء.

ويبلغ طول شريط الكتابة داخل القبة نحو ٢٤٠ مترًا. وفي أيام الخليفة المأمون أدخلت بعض الإصلاحات على القبة، وكان من هذه الإصلاحات تعديل هذه الكتابة؛ رغبة في نسبة قبة الصخرة إلى المأمون، ولكن الصانع الذي كتب اسم المأمون في هذا الشريط الكتابي فإنه فاته أن يغير تاريخ البناء، وهو سنة ٧٢هـ.

(ج) عقود الأسطوانة:

أما عقود الأسطوانة الدائرية كسيت ببلاطات مربعة من الرخام الأبيض والأسود بالتبادل، مما أكسبها رونقًا وجمالًا.

وتذكر لنا المراجع التاريخية الإسلامية التي تناولت الحديث عن قبة الصخرة وكذلك المؤرخون، أن المهندسَين المعماريَين اللذين صمما هذا البناء البديع هما (رجاء بن حياء الكندي، يزيد بن سلام) وهما من المسلمين، وقد أشرفا على بناء القبة، ومما يظهر براعتهما في هذا المجال

أنهما عملا على أن يكون في دائرة دعامات القبة لفت بسيط؛ وذلك لكي لا تحجب أعمدة الحلقة الثانية الواقعة أمام الداخل للمبنى الأعمدة الأخرى المقابلة لها في الطرف الآخر، وبذلك يتمكن كل من يدخل القبة من أي باب من أبوابها الأربعة من رؤية كل ما بها من أعمدة ودعامات، سواء ما كان منها أمامه مباشرة أو ما كان في الجهة المقابلة.



نموذج للفن المعماري الإسلامي لأحد أبواب قبة الصخرة

ومن الجدير بالذكر أنه توجد بجوار قبة الصخرة قبة أخرى صغيرة تسمى (قبة السلسلة)، وهي محمولة على أعمدة وتشبه قبة الصخرة في تصميمها، فهي تتكون من دائرة مركزية وسطى تحمل القبة، ويحيط بهذه الدائرة مثمنان مغطيان بأسقف خشبية مائلة. وهناك اعتقاد بأن قبة السلسلة هي النموذج المصغر الذي بناه المهندسان المعماريان قبل الشروع في بناء قبة الصخرة، وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن (عبد الملك بن

مروان) كان قد ذكر للمهندسين تصوراته وتخيلاته عن المبنى، فصنعا له نموذجًا بحجم كبير نسبيًا ألا وهو قبة السلسلة، فلما رآه عبد الملك وأعجب به تم تنفيذ بناء قبة الصخرة على نمط النموذج.

ومن الجدير بالذكر أيضًا أنه قد حدثت في قبة الصخرة تجديدات وترميمات كثيرة، من أشهرها التجديدات التي كانت على يد الخليفة الظاهر. وكان الصليبيون قد حولوا القبة إلى كنيسة وبنوا فيها مذبحًا، ولكن صلاح الدين الأيوبي أزال هذه المعالم وزين القبة وستر جدرانها بالرخام، وبعد صلاح الدين اهتم ملوك بني أيوب بعمارة القبة وتجديدها، وكذلك اهتم بترميمها وتجديدها سلاطين المماليك، ومن أشهر هذه التجديدات ما كان على يد السلطان الناصر مُحَمَّد، واهتم بها كذلك العثمانيون، ومن أشهر تجديداتهم ما يعرف بتجديدات سليمان.

وهكذا توالت التجديدات والترميمات على قبة الصخرة، وكانت دائمًا موضع الاهتمام والرعاية على مر العصور الإسلامية، وقد كان آخر هذه التجديدات والترميمات ما بين ١٩٥٩-١٩٦٥ تحت إشراف بعثة من المهندسين والأثريين المصريين، وأعيد تغطية القبة الخارجية بصفائح من الألمونيوم المعالج بالترسيب الكهربائي؛ ليأخذ لونًا ذهبيًا جميلًا إلى جانب مقاومته للعوامل الجوية، فأصبحت القبة تبدو مذهبة كما كانت في الأصل.

هذا قليل من كثير يمكن قوله في وصف الصخرة، وقد كانت دائمًا موضع اهتمام الأثريين والمهتمين بالآثار الإسلامية، وكذلك المؤرخين الذين

أجمعوا جميعًا على أنها من أجمل وأبدع العمائر الإسلامية التي خلدها التاريخ والباقية حتى الآن.

وقبة الصخرة إحدى آثارنا الإسلامية الموجودة في القدس الشريف الرازح تحت الاحتلال العنصري الإسرائيلي، الذي يستصرخ ضمير كل مسلم في أرجاء عالمنا الإسلامي بأن يهب لنجدته وتحريره من نير المعتدي الغاضب، ومن ربقة الاحتلال الصهيوني.

المصادر والمراجع:

١- العمارة في صدر الإسلام - د.كمال الدين سامح.

٢- مجلة البناء - العدد الأول - السنة الأولى.

٣- الفن الإسلامي - أرنست كونل، ترجمة د.أحمد موسى.

٤- الفن الإسلامي - أبو صالح الألفي.

٥- تاريخ الفن عند العرب والمسلمين - أنور رفاعي.

٦- فلسفة وفن- د.ذكي نجيب محمود.

٧- سر الزخرفة الإسلامية - د.بشر فارس.

٨- الفن والمجتمع - هربرت ريد، ترجمة د.فتح الباب عبد الحليم.

٩- الرسوم الهندسية للعمارة الإسلامية – حسن عبد الوهاب.

10- CRESWELL., Early Muslim Architecture.

11- COMBE, SAUVAGET, WIET,:

Répertoire chronologique, Epirapkie Arabe.

قبة الضلوع المتقاطعة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين

د. مُحَمَّد مُحَمَّد الكحلاوي

مقدمة:

تنحصر القباب المرابطية في ثلاثة نماذج رئيسية، النموذج الأول يعرف بقباب العقود المركبة، والنموذج الثاني يعرف بقبة المقرنصات، وقد سبق وأفردت لكل منهما بحثًا مستقلًا[1].

أما هذا البحث فسوف يعرض بالدراسة للنموذج الثالث للقباب المغربية المرابطية، وهو النموذج المعروف بقبة الضلوع البارزة بمدينة تلمسان[2]، وهذا النموذج الذي يشكل مع قبة المقرنصات عنصرًا معماريًا فريدًا، حيث يختلف نموذجاهما عن نموذج قبة العقود المركبة بمدينة مراكش[3] من الناحية المعمارية؛ لكونهما قد شيدتا فوق مربع علوي يتقدم المحراب من أعلى، بينما قبة مراكش قد خططت من سطح الأرض[4]، ومن الجدير بالذكر أن عمارة تلك القباب في نماذجها الثلاثة قد طبعت العمارة المرابطية الدينية بخصائص ومميزات تجعلها تنفرد عن غيرها من القباب الأخرى.

وهذه الخصائص توضح قدرة المعمار المرابطي على ابتكاره لتلك النماذج، بالرغم من أن عناصر تكوينها المعمارية من عقود ومقرنصات، كانت معلومة في العمارة الإسلامية قبل عصر المرابطين بأكثر من قرنين(٥).

والجديد في القباب المرابطية هو محاولة المعمار المرابطي تجميع كل عنصر من العناصر السابقة داخل تكوين معماري مستقل، فبعد أن كانت تستخدم الحنايا المعقودة والمقرنصات كعناصر أساسية تميز مناطق انتقال القباب في العمارة الإسلامية، بدأ المعمار المرابطي في بنائه قبابًا مقامة على شبكة معقدة من الضلوع البارزة، أي العقود المتقاطعة وأخرى من المقرنصات، وهما يعدان بحق من أعظم ما أنتجته العمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

التكوين المعماري لقبة الضلوع (العقود المتقاطعة)

يعرف هذا النوع لدى الباحثين باسم قبة الضلوع البارزة(٦) أو القنانات(٧) أو الأوتار(٨) أو الأقواس المتقاطعة(٩)، وقد جاءت تلك التسميات متفقة مع التصميم المعماري الذي يتطلبه التكوين الجديد في شكل قبة، والذي استغنى فيه المعمار عن عنصرين أساسيين: أولهما الاستغناء عن غطاء القبة الكروي (الخوذة) المشيد من كتلة صماء، والمعتاد بناؤها في القباب بشكل عام. وثانيهما الاستغناء عن منطقة الانتقال الممثلة في تحويل المربع إلى مثمن؛ وذلك نتيجة للتصميم المعماري المبتكر الذي شيد فيه المعمار المسلم نموذج قبته الجديدة، من شبكة من الأوتار الحجرية أو الآجرية التي تنطلق أطرافها من فوق الحافة العليا لمنطقة

المربع العلوي. وتأخذ تلك الأوتار مسارات مختلفة مدها المعمار على الأضلاع المتقابلة من المربع العلوي، ونتج عن تقاطع مسارات تلك الأوتار بناء هيكل لقبة متماسك الأطراف، وفي ظل هذا التصميم يكون المعمار قد وفق ولأول مرة في بناء قبة دون الحاجة لمنطقة انتقال أو بناء غطاء كروي (خوذة) مسمط، وهما العنصران الأساسيان اللذان يعدان في أهم العناصر الأساسية في بناء القباب بشكل عام (انظر اللوحات ١،٤،٥). وقد مهد نجاح المعمار في بناء قبته الجديدة إلى ابتكار عنصر معماري وزخرفي آخر، لا يقل في أهميته عن تلك الشبكة الوترية التي نسج منها هيكل قبته.

ويتمثل هذا العنصر الجديد في مجموعة التكسيات الجصية المفرغة، والتي ملأ بها المعمار المساحات الواقعية بين مسارات الأوتار الحجرية والآجرية البارزة، وأصبحت على أثرها خوذة القبة أشبه ما تكون بالحشوة الزخرفية[١٠].

ولقد سمحت التفريغات الجصية بنفاذ الضوء من سطح القبة الخارجي إلى داخل القبة، بشكل أكثر وضوحًا عما كانت تؤديه النوافذ المفتوحة في رقبة القبة في القباب الأخرى؛ ولذا عرف هذا النوع من القباب باسم (قبة الضوء)[١١]، وفي تصوري أن الدافع إلى ابتكار هذا النوع من القباب كان وراءه الحاجة الماسة لإنارة الموقع الذي كانت تغطيه هذه القباب، وهو الموقع الذي حرص المعمار على إبرازه بشتى الوسائل؛ نظرًا لكونه يحتوي من أسفل على المحراب والمنبر، بجانب كونه الموقع المخصص لصلاة الإمام

والخليفة[١٢]. والذي لا يكاد يصل إليه شعاع الضوء إلا بصعوبة من خلال مجموعة النوافذ المفتوحة بجدار القبلة؛ ولذلك جاءت رغبة المعمار في إنفاذ مزيد من الضوء ليغمر به المقصورة[١٣]، التي كانت غالبًا ما تغطيها هذه القباب تأكيدًا منه لأهمية الموقع، إلى جانب محاولته إبراز عناصره الفنية الرائعة التي شغل بها هذا النوع من القباب.

والخلاصة.. فإن التكوين المعماري لمثل هذه القباب أشبه ما يكون بـ(الهيكل العظمي) المنسوج من شبكة معقدة من الضلوع أو العقود المتقاطعة (انظر اللوحات ٦،٣،٢،١)، ثم يملأ بين الضلوع بشبكة أخرى غاية في التعقيد، تتكون من عناصر زخرفية نباتية مورقة نفذت في ألواح من الجص المفرغ (انظر اللوحات ٧،٦،٢)، فتظهر القبة وكأنها نسجت على (نول)، لتخرج لنا تحفة فنية أشبه ما تكون بقطعة نسيج نفذت زخارفها بالتفريغ، ويكفي أن يرى المرء أشعة الشمس وهي تقع على سطح القبة لتنبعث من بين الفراغات الجصية، وتنعكس على لون الزجاج المعشق لتضيء التكوينات الزخرفية على الشمسيات، فتجعل القبة وكأنها تتلألأ في ألوانها المختلفة (انظر اللوحات ٧،٦،٢).

ولا سبيل أمامنا لنعبر عن مثل هذه الأعمال إلا أن نقول إنها الرغبة القوية التي رسخت لدى المعماريين المسلمين، والتي جعلتهم ينتجون ويتقنون في صناعة القباب على تلك الشاكلة التي لا نظير لها في أي فن سابق أو لاحق على الإسلام، ويكفي أن نشير إلى أن نماذج تلك القباب كانت المثل الذي يحتذى في بناء قباب الكنائس في أوروبا بعد ذلك[١٤].

أولًا: الوصف المعماري لقبة الضلوع المتقاطعة بجامع تلمسان(١٥):

يعد هذا النوع من القباب هو أقدم النماذج الثلاثة في القباب المرابطية، وتعد القبة التي تتقدم محراب جامع تلمسان بالجزائر، والمؤرخة في (٥٣٠هـ/١١٣٧م)، هي أقدم نموذج مغربي من هذا النوع، وقد شيدت هذه القبة في عهد الأمير على بن يوسف بن تاشفين، ضمن الأعمال والإضافات المعمارية التي أدخلها على عمارة مسجد تلمسان، الذي شيده والده عام (٤٧٥هـ/١٠٨٢م)[١٦]، وتغطي قبة تلمسان جزءًا من سقف بيت الصلاة في الموقع الذي يتقدم المحراب من أعلى.

والتكوين المعماري للقبة مكون من اثني عشر عقدًا كبيرًا بارزًا، وتتقاطع تلك العقود فيما بينها في مناطق عديدة بباطن القبة، بحيث تكون عند كل تقاطع أشكالًا هندسية معقودة، وهذه التقاطعات تمر جميعها بعيدًا عن مركز القبة[١٧] (انظر اللوحتين ٢،١).

ويبدو أن عدم مد أوتار الضلوع لتتقاطع في مركز باطن القبة أسلوب إنشائي لجأ إليه المعمار؛ حتى لا يضعف امتداد تلك العقود، ولو قدر لتلك الأوتار أن تتقاطع عند مركز القبة لكانت أقل تماسكًا، (انظر اللوحة رقم ١).

ويبدأ التكوين المعماري لهذه القبة بانطلاق بدايات أرجل العقود من على أضلاع المربع العلوي للقبة، إذ جعل المعمار كل ضلع من أضلاع مربع القبة العلوي وسادة أو مركزًا ترتكز عليه ثلاث أرجل، مزدوجة

وملتصقة عند منابتها من على المربع (انظر اللوحة ١)، وتنفصل هذه الأرجل عند انطلاقها على باطن القبة لتتقاطع مع مثيلتها ذات المسار المعاكس (انظر اللوحة رقم ١)، أما أرجل تلك العقود التي ترتكز على امتداد أضلاع المربع العلوي، فقد شكلها المعمار على هيئة معمارية مكونة من شكل ثعباني (انظر اللوحة رقم ١)، يرتكز بدوره على حرمدانات مشطوفة[١٨] (انظر اللوحة رقم ١)، وقد ملأ الفنان المرابطي الفراغات الناتجة من شبكة العقود المتقاطعة بألواح مفرغة في الجص (شمسيات) ومزخرفة بتكوينات زخرفية فريدة، قوامها عناصر نباتية وسيقان مورقة ومراوح نخيلية مزدوجة وأخرى منفردة وأشكال صنوبرية[١٩] وغيرها (انظر اللوحتين ٢،١).

أما مركز القبة من الباطن فقد شكله المعمار من قرص دائري، مكون من حطات مقرنصة وظيفتها فنية أكثر منها معمارية (راجع اللوحة ١).

ومن أهم مميزات تلك القبة تخفيف الثقل الذي نتج عن استخدام شبكة العقود لبناء هيكل القبة، على عكس القباب الأخرى التي تشيد من بدن مصمت ومواد بنائية صماء.

وتحتفظ مدينة أشبيلية بمثال آخر من هذا النوع من القباب، ربما يكون بناؤه معاصرًا لبناء قبة تلمسان، وهي تقع بالقرب من صحن الرايات في الدار رقم (٣) المطلة على صحن الرايات الملحق بقصر أشبيلية، وهذه القبة ترجع إلى القرن السادس الهجري الثاني عشر

الميلادي، والتكوين المعماري للقبة مشابه إلى حد كبير لقبة تلمسان؛ لذلك أرجعها الباحثون لعصر المرابطين. وقد ركبت القبة على قاعدة مربعة، وهي تتكون من ستة أزواج من التضليعات شيدت من الآجر تتقاطع فيما بينها، مكونة أشكالًا لعقود متقاطعة ومتشابكة، ويتوسط باطن القبة قبيبة صغيرة من المقرنصات (انظر اللوحة رقم ٣)، أما المساحات الواقعة بين أوتار القبة فقد كانت تزدان بعناصر زخرفية إلا أنها قد تلاشت الآن[٢٠].

الأصول المعمارية لقبة العقود المتقاطعة (الضلوع):

انتشر هذا النوع من القباب ذات العقود المتقاطعة في كل من شرق العالم الإسلامي وغربه وإن كان الغرب الإسلامي، وبخاصة الأندلس هو صاحب الفضل الأول في ابتكار مثل هذه القباب إذ ما زالت الأندلس تحتفظ عمارتها الإسلامية بأقدم أمثلة لتلك النماذج والموجودة في جامع قرطبة، وهي تعد من الإضافات المعمارية التي شيدها الخليفة المستنصر عام (٣٥٤هـ/١٠٥٥م)، وقد عرف هذا النموذج القرطبي من القباب بقبة الضلوع[٢١]؛ نظرًا لبناء هيكل القبة من ضلوع حجرية بارزة كما سبق وأن أوضحت (انظر اللوحتين رقمي ٥،٤).

أما الأمثلة المشرقية لهذا النوع فلم تكن من حيث الشكل المعماري والصفة الزخرفية على شاكلة النماذج الأندلسية والمغربية (انظر اللوحتين ٩،٨). وتنحصر أهم أمثلتها في العراق وإيران في العصر السلجوقي[٢٢]،

وقد شيدت شبكة عقود تلك القباب بالآجر وليس بالحجر، كما هو في النموذج القرطبي.

كما أن الأماكن التي تغطيها تلك القباب في النماذج المشرقية أماكن ضيقة، لم تتوفر لها مصادر الإضاءة الكافية لتسمح لمصادر الضوء بأن تنعكس على الشمسيات لترى بوضوح. ومن أهم أمثلتها هناك قباب العقود في جامع أصفهان(٢٣) بإيران التي تغطي جزء ظلة القبلة (انظر اللوحتين ١١،١٠)، ولقد أرجع بعض الباحثين هذا النوع من القباب إلى أصول شرقية، حيث اعتبر بعضهم قباب جامع أصفهان هي المصدر الذي استوحى منه المعمار القرطبي نموذجًا لبناء قبته(٢٤)، كما اعتبر البعض الآخر هذا النوع من القباب مأخوذًا من التغطيات الساسانية(٢٥).

وفي الواقع أن نسبة هذه القباب إلى أصول مشرقية غير مؤكدة؛ نظرًا لأن أمثلتها هناك، وخاصة الموجودة في جامع أصفهان تاريخها لاحق على تاريخ القباب القرطبية(٢٦)، إلى جانب اختلاف النموذج الإيراني عن النموذج القرطبي من حيث مادة بناء كل منهما، حيث شيدت قرطبة من شبكة وترية من ضلوع حجرية بارزة، بينما شيدت قبة أصفهان من أوتار مشيدة من مداميك آجرية، إلى جانب الثراء الزخرفي الذي فرضه التصميم الجديد في النموذج القرطبي، بينما تنحصر الزخرفة في النموذج الإيراني في مداميك الآجر فقط(٢٧) (انظر اللوحتين رقمي ١١،١٠).

ومن الباحثين من أرجع نسبة هذا النوع من القباب إلى أصول مغربية، حيث انطلقت فكرتها الأولى من التجويفات أو التفصيصات التي شغلت في باطن الأرض قبة المحراب بجامع القيروان المؤرخة (٢٢١هـ/٨٦٥م)، وكذلك باطن قبة المحراب في جامع الزيتونة المؤرخة في (٢٥٠هـ/ ٨٨٤م)[٢٨].

وفي الحقيقة إنني أرجح الرأي الأخير الذي يعتبر هذا النموذج من القباب مرحلة متطورة من القباب التونسية، ولذا لم تخرج أصول هذا النوع من القباب من منطقة المغرب والأندلس؛ إذ تعتبر القبة التي تتقدم المحراب في جامع القيروان والمؤرخة (٢٢١هـ/٨٦٥م) (انظر اللوحتين رقمي ١٢،١٣)، هي أقدم نماذج القبة ذات التفصيصات[٢٩]، وقد شيدت على غرارها قبة المحراب في جامع الزيتونة (٢٥٠هـ/٨٦٤م)، التي تمتاز بأن تفصيصاتها أكثر بروزًا، ويؤكد أحمد فكري أن قبة المحراب بجامع الزيتونة تعبر بوضوح عن غيرها في قبة القيروان، عن فكرة تحويل الكتلة الصماء في خوذة القبة إلى هيكل تبرز عظام ضلوعه بشكل واضح، إلى جانب ملء الفنان للفراغات الواقعة بين أوتارها بحشوات زخرفية[٣٠]. وقد أكد ذلك لامبير حيث ذكر أن نظام التجزئة الظاهر في القباب التونسية ينبئ عن التطور الذي حدث فيما بعد، لا في قرطبة فحسب بل في القباب الإسبانية[٣١] الأخرى، ويعد نموذج القباب التونسية هو النموذج الذي انتشر في قباب المساجد والمشاهد الفاطمية في مصر[٣٢]، والفرق بين تضليعات القباب القيروانية القرطبية هو أن القباب القيروانية تجمع

تفصيصاتها في مركز باطن القبة(٣٣)، بينما تتقاطع العقود في النموذج القرطبي بعيدًا عن مركز باطن القبة(٣٤) (انظر اللوحات ١٣،١٢،٥،٤).

دراسة مقارنة بين نموذجي القباب القرطبي والقبة المرابطية بتلمسان:

رأى بعض الباحثين أن قبة الضلوع المتقاطعة بتلمسان قد شيدت على شاكلة القباب الأندلسية في جامع قرطبة (٣٥٤هـ/١٠٥٥م)، والحقيقة أنه ليس من شك أن قباب جامع قرطبة تشكل في مجموعها طرازًا معماريًا وفنيًا فريدًا في عمارة القبة في العصر الإسلامي. وليس من شك أن القباب القرطبية قد انتقل تأثيرها شرقًا وغربًا(٣٥)، ولذا ليس ببعيد أن يتأثر المعمار المرابطي عند بناء قبته بالنموذج القرطبي من حيث فكرة التخطيط فقط، ولكن اختلف عنها النموذج المرابطي من حيث مادة البناء، ومن حيث التخطيط المعماري لمجموعة الأوتار البارزة التي تشكل هيئة القبة (انظر اللوحات ٥،٤،٣)، وكذلك من حيث استخدام العناصر الزخرفية، وهذا ما سوف أوضحه من خلال الدراسة المقارنة بين النموذجين القرطبي والتلمساني.

وبالرغم من أصالة التخطيط القرطبي فإن قبة تلمسان تنفرد بخصائص ومميزات تجعلها أكثر تطورًا من قبة الضلوع بجامع قرطبة، كما جعلت منها نموذجًا يحتذى به في بعض أمثلة القباب التي شيدت على غرارها في المغرب والأندلس، وأهم هذه الخصائص هي:

أولًا: بناء أوتار قبة تلمسان من مداميك[٣٦] الآجر الرفيعة، بينما شيدت أوتار قبة قرطبة من سنجات حجرية سميكة (انظر اللوحات ٢، ١، ٥، ٤).

ثانيًا: تعد الشبكة الوترية في قبة تلمسان أكثر تعقيدًا من شبكة التضليعات في قبة قرطبة، حيث يرتكز على كل ضلع من أضلاع المربع العلوي في قبة تلمسان ستة أوتار، أي أن مجموعة أوتار الضلوع المرتكزة على مربع القبة العلوي قد وصل في قبة تلمسان إلى أربعة وعشرين[٣٧] وترًا، وبينما في قبة قرطبة جاءت الشبكة الوترية للضلوع أقل من ذلك، إذ يبلغ عدد ما يرتكز عليه كل منها على قاعدة المربع العلوي أربعة أوتار فقط، أي أن مجموعها الكلي قد بلغ ١٦ وترًا، وهذا أقل بكثير من عدد الشبكة الوترية في قبة تلمسان (انظر اللوحتين ٤، ١).

ثالثًا: تتميز قبة تلمسان بأنها أكثر عمقًا من قبة قرطبة؛ وذلك نتيجة لعدة عناصر أهمها:

أ- امتداد مسارات أوتار الضلوع في قبة تلمسان على محيط القبة الداخلي بحيث تكون أقرب إلى مركز القبة عنها في قبة قرطبة والتي لم يتجاوز امتدادها منتصف محيط القبة الداخلي (انظر اللوحات أرقام ٥، ٤، ١).

ب- فرض امتداد مجموعة الأوتار في باطن القبة بتلمسان على تعدد مراكز تقاطعها على محيطها، حيث وصلت إلى ستة وثلاثين مركز مختلف

الموضع، بينما في قرطبة العكس تمامًا، فمسارات أوتار الضلوع الحجرية أبعد بكثير من مركز القبة، إلى جانب أن عدد مراكز تقاطع أوتارها محدود بأربعة مراكز فقط، وضعها المعمار في مواضع محددة في أعلى زوايا المربع العلوي (انظر اللوحتين ٥،٤).

رابعًا: تتسم الشبكة الوترية في قبة تلمسان بالخفة، بالرغم من كثافة تعقيدها عنها في قباب قرطبة.

خامسًا: نتج عن قلة سمك أوتار الضلوع في قبة تلمسان إيجاد مساحة أكبر للشمسيات الجصية؛ ولذلك جاءت قبة تلمسان أكثر إضاءة من قبة الضوء في جامع قرطبة (انظر اللوحتين رقمي ٥،٢).

سادسًا: عدد العناصر المعمارية المستخدمة في قبة تلمسان أكثر من مثيلاتها في قباب قرطبة، فقد استخدم المعمار المرابطي الحرمدانات كمتكأ ترتكز عن طريقه الأوتار على إطار مربع القبة العلوي، في حين استخدم المعمار القرطبي الأعمدة الصغيرة في قبة المحراب بقرطبة، وجعل مثلث الأوتار يرتكز مباشرة على إطار المربع في قبة الضوء (انظر اللوحتين ٤،١). كما استخدم المعمار المرابطي المقرنصات في القبيبة التي تتوسط مركز القبة، في حين استخدم المعمار القرطبي التفصيص في قبابه (انظر اللوحات أرقام ٥،٤،١)، وكذلك استخدم المعمار المرابطي نوعًا جديدًا من العقود الثلاثية التي تتميز رءوسها بأنها أكثر امتدادًا وأقل اتساعًا.

سابعًا: تنفرد قبة تلمسان بكثافة زخرفتها وثرائها الفني المقام على شبكة معقدة من الزخارف النباتية، وهي تذكرنا من هذه الزاوية فقط بالأسلوب الفني في قصر الجعفرية بسرقسطة، ولكن مع الاحتفاظ لزخارف قبة تلمسان بعناصرها المبتكرة التي ميز بها الفنان المرابطي منشآته؛ إذ تمثل مجموعة الزخارف التي شغلها الفنان المرابطي على قبة تلمسان طرازًا فنيًّا مرابطيًّا خاصًّا، اعتمد فيه الفنان على أشكال المراوح النخيلية مقسمة إلى عدة وريقات، حيث تبدأ بورقة على هيئة حلقة تتلوها وريقتان منحنيتان انحناءً خفيفًا، وهو طراز ليس له في المغرب نظير ولم يثبت الباحثون أصولها الأندلسية، بالرغم من عثورهم على نماذج مشابهة لتلك العناصر منفذة على الجص في مدينة المورد بغرناطة، وفي قصر الكاستيغو بفحص المرية[٣٨].

والحقيقة أن كلًا من قباب جامع قرطبة والقباب المرابطية كانت موئلًا خصبًا لجميع النماذج التي شيدت على غرارها، مع احتفاظنا للنماذج القرطبية بكونها أقدم النماذج المؤكدة تاريخيًا، فعلى غرار النموذج القرطبي شيدت القبة التي تتقدم المحراب من أعلى في مسجد الباب المردوم بطليطلة[٣٩] (٣٩٠هـ/٩٩١م).

كما بدأ تأثير قباب قرطبة يظهر في كنائس المستعربة والكنائس الإسبانية، ومن أمثلتها قباب كنيسة سان ميجيل دي إسكالادا (San Miguel de Escalada)، والتي تعد من أقدم القباب المقتبسة من قباب

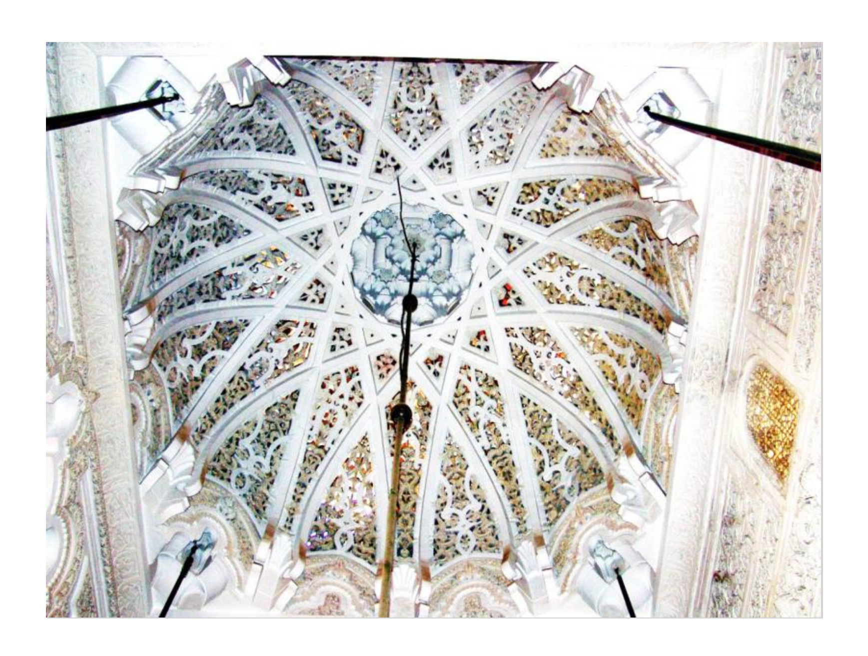
جامع قرطبة، كما يظهر تأثير قباب قرطبة في قباب كاتدرائيتي سموره (Zamora) وشلمنقة (Salammaca)[٤٠].

أما القباب المرابطية فكانت هي الأخرى ذات تأثير واضح على القباب التي شيدت في الأندلس في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ومن أمثلتها القبة القائمة في الدار رقم (٣) الواقعة على مقربة من صحن الرايات بأشبيلية[٤١] (انظر اللوحتين رقمي ٣،١).

كما كان تأثيرها واضحًا على القباب المغربية المشيدة في نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، ومن أمثلتها القبة التي تتقدم المحراب في جامع تازا بالمغرب الأقصى في الزيادة المرينية المؤرخة[٤٢] بسنة (٦٦٣هـ/١٢٩٣م)، وهي تعد صورة واضحة من حيث تخطيطها وزخرفتها من قبة المحراب في جامع تلمسان (انظر اللوحتين رقمي ٦،٧)، وعلى هذا تكون قد مارست كل من قباب جامع قرطبة والقباب المرابطية تأثيرها الواضح على عمارة القباب الأخرى. ولم يقف تأثير قبة تلمسان على الأندلس والمغرب فقط بل امتد إلى أوروبا، ومن أمثلة ذلك قبة العقود التي تغطي كنيسة (سان سيلكروفي نفارو) في إيطاليا (لوحة رقم ٨)، وكذلك قبة العقود المتقاطعة التي تغطي كنيسة (سان لورنزو) في إيطاليا[٤٣] (انظر لوحة رقم ٩).

والخلاصة أن كلًا من قباب جامع قرطبة وقبة المحراب بجامع تلمسان كانت ومازالت تعبر عن فن راقٍ، أبدع فيه المعمار القرطبي والمغربي بكل

المقاييس، واستطاع أن يجعل منهما النموذج الذي سوف تشيد على غراره قباب الكنائس في أوروبا.



لوحة (١)

قبة العقود المتقاطعة المرابطية التي تعلو محراب جامع تلمسان بالجزائر، والتي تعد أقدم نماذج هذا النوع في القباب المغربية

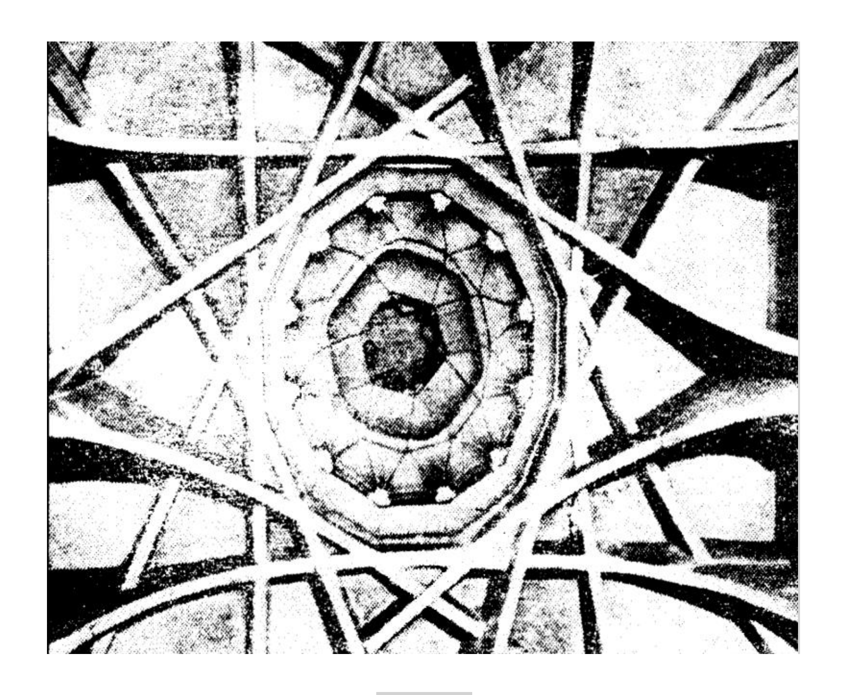
(عن: هيل)



لوحة (٢)

قبة العقود المتقاطعة المرابطية بتلمسان، وتفاصيل لمجموعة الأوتار الآجرية البارزة من الخارج

(عن: مارسيه)



لوحة (٣)

قبة العقود المتقاطعة المرابطية الواقعة في دار رقم (٣)، المطل على صحن الرايات بأشبيلية

(عن: بلياس)



لوحة (٤)

قبة الضلوع البارزة التي تقدم محراب جامع قرطبة، وهي من إنشاء الخليفة الحكم المستنصر عام (٣٥٤هـ/١٠٥٥م)

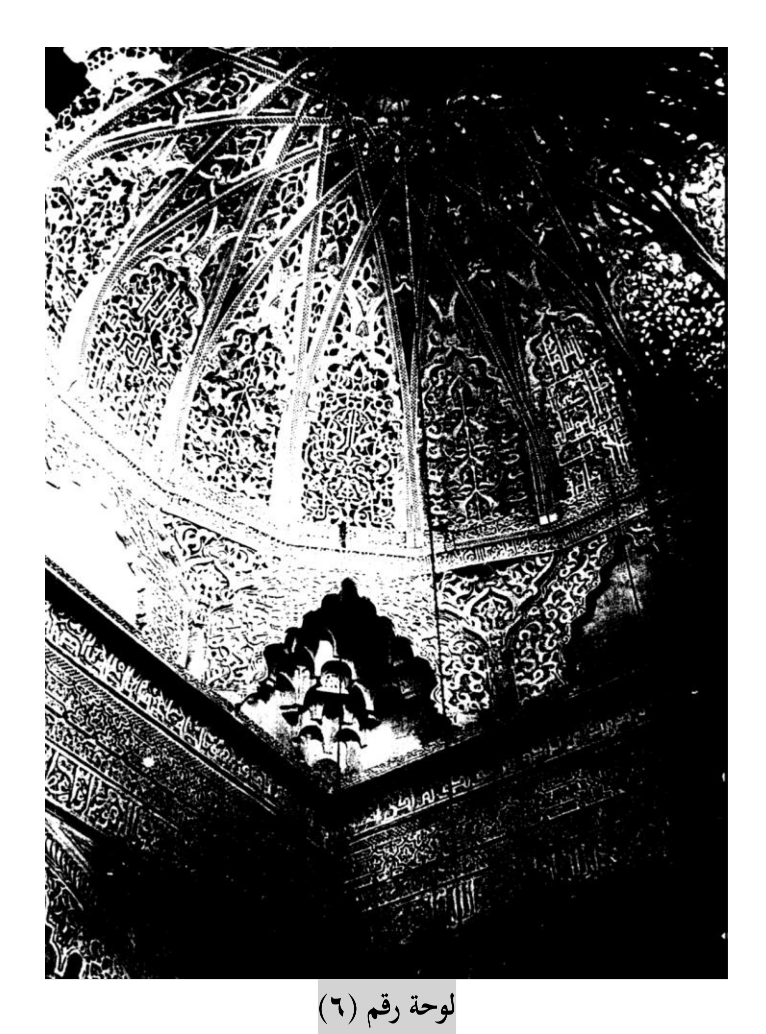
(عن: Titus)



لوحة (٥)

قبة الضلوع البارزة المعروفة بقبة الضوء، تغطي بداية البلاطة الوسطى بجامع قرطبة، وهي من إنشاء الخليفة الحكم المستنصر ٣٥٤هـ.

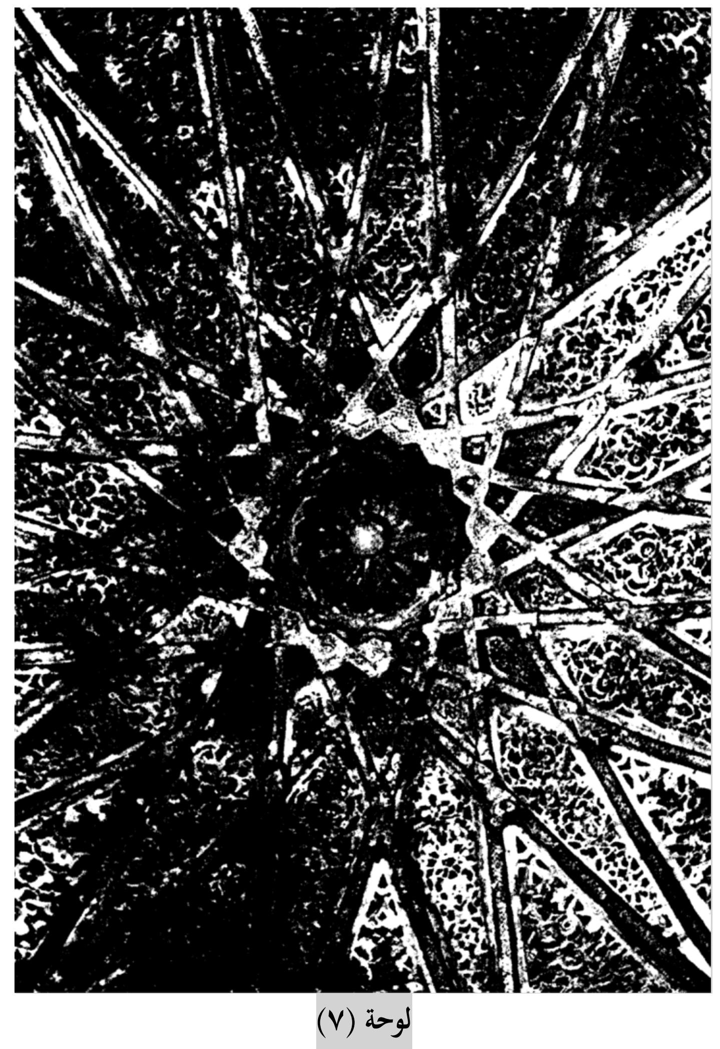
(عن: د.عبد العزيز الدولاتي)



لوحة رقم (٦)

قبة العقود المتقاطعة التي تعلو المحراب بجامع تازى المريني، والتي شيدت على غرار قبة العقود المرابطية بتلمسان

(عن: الباحث)



لوحة (٧)

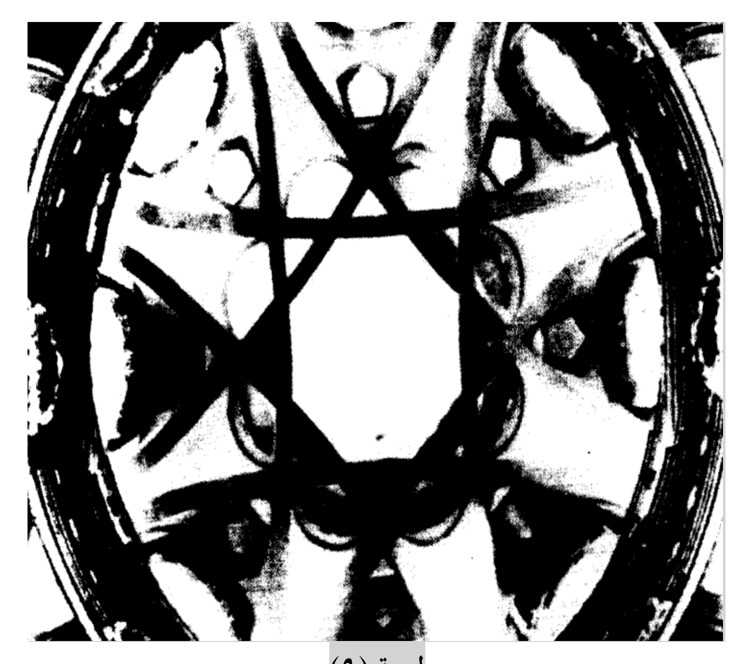
قبة العقود المتقاطعة بجامع تازى، وتفاصيل لمجموعة الأوتار البارزة التي شكل منها هيكل القبة

(عن: هيل)



لوحة (٨)

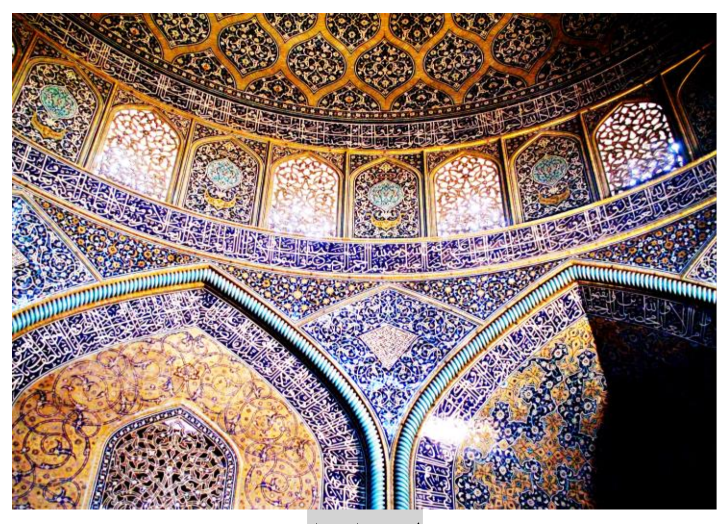
إحدى القباب الإيطالية في كنيسة (سان سيلكروفي نفارو)، وقد شيدت على غرار قبة تلمسان المرابطية. (عن: شافعي)



لوحة (٩)

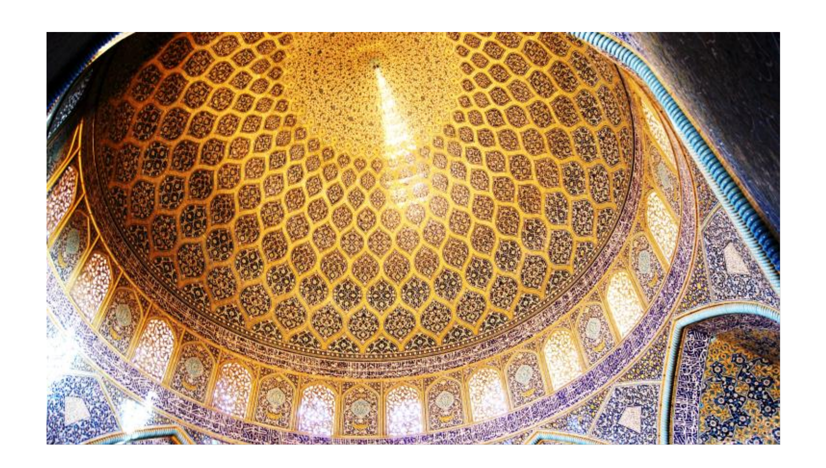
إحدى القباب الإيطالية في كنيسة (سان لورنزو)، ويتضح فيها التأثير الإسلامي.

(عن: شافعي)



لوحة (١٠)

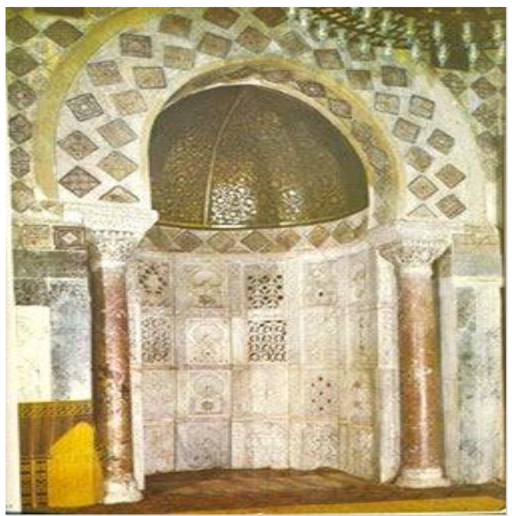
قبة العقود المتقاطعة في المسجد الجامع بمدينة أصفهان بإيران. (عن: موسوعة الفن الفارسي)



لوحة (١١)

قبة العقود المتقاطعة في المسجد الجامع بمدينة أصفهان بإيران. (عن موسوعة الفن الفارسي)





لوحتا (١٣،١٢)

قبة المحراب في جامع القيروان، وتفاصيل لمجموعة التضليعات الخارجية والتجويفات الداخلية

(عن: هيل)

الهوامش

(١) مُحَمَّد مُحَمَّد الكحلاوي: قبة العقود المركبة بمراكش المعروفة بقبة البروديين، بحث تحت الطبع بمجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، وكذلك القباب المقرنصة في عصر المرابطين، بحث تحت الطبع بمجلة العصور.

(٢) تلمسان صيغة جمع بالبربرية لكلمة تلمس التي تعني المكان الذي يستقر فيه الماء، ويقال إن تلمسان كانت تدعى أيام الرومان (بوماريا) أي الحدائق، ويقال أيضًا أصل تلمسان قريتا (آدغادير) و(ناقرارت) اللتان أسسهما ملك مراكش يوسف بن تاشفين، ثم انضمت القريتان فأصبحتا تلمسان.

وقد وصفها البكري فقال: "هي مدينة مسورة في سفح جبل شجر الجوز ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة، وفي الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي فرة... وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، ولها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار عليها طواحين".

أبي عبيد الله البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، بغداد، مكتبة المثنى ص ص٧٦-٧٧.

وانظر وصف مدينة تلمسان: الشريف الإدريسي: وصف إفريقية الشمالية الصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق هنري بيريسي، الجزائر، ١٩٥٧م، طبعة معهد الدراسات العليا الإسلامية بالجزائر، ص ص٥٤، ٥٥.

وانظر أبي عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد العبدري: رحلة العبدري، تحقيق مُحَمَّد الفاسي، الرباط، طبعة جامعة مُحَمَّد الخامس، ص١١.

وانظر الحسن بن مُحَمَّد الوزان الفآسي: وصف إفريقيا، جزءان، تحقيق مُحَمَّد حجي ومُحَمَّد الأخضر، الرباط، ١٩٨٢م، منشورات الجمعية التاريخية المغربية للتأليف والترجمة، ص ص١٧-١٨.

وانظر مارموال كرنجال: إفريقيا، جزءين، ترجمة مجموعة باحثين، الرباط، ١٩٨٤م، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، جـ١، ص ص٢٩٨-٢٩٩.

(٣) أنشأ مدينة مراكش يوسف بن تاشفين في عام (٤٥٤هـ/١٠٦٢م)، وقد استغرق بناؤها ثمانية شهور، وأسس بها قصرًا عرف بدار الحجر ومسجدًا جامعًا، أما والده علي بن تاشفين فقد سور المدينة بسور من الحجر، وأنفق على بنائه ما يقرب من سبعين ألف دينار، ونقل إليها الماء من خارجها، وظلت مراكش عاصمة المغرب والأندلس لمدة حكم المرابطين والموحدين.

راجع شهاب الدين ياقوت الحموي: معجم البلدان، خمسة أجزاء، بيروت ١٩٨٥م، دار صادر، جـ٥، ص٩٤.

وانظر أيضًا عن مدينة مراكش، مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء ١٩٧٩م، طبعة دار الرشاد، ص١٥.

(4) **Maslow (B.) La Qoubbe Barudiyyin a Marrakech, Al Andalus, Vol., XII, 1948. p.113.**

(٥) إن أول مثل لقبة عربية اعتمدت منطقة انتقالها على مقرنصات، هي قبة المحراب في المسجد الجامع بالقيروان المؤرخة في (٢٢١هـ/٨٣٦م).

أحمد فكري: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة ١٩٧٠م، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ص٤١٩.

(٦) قامت فكرة بناء قباب جامع قرطبة على عقود بارزة نصف دائرية من حجر منجور تتقاطع فيما بينها، تاركة في وسطها فراغًا مثمن الشكل في القباب الثلاث المتجاورة بالمقصورة، ومربع الشكل في القبة المخرمة الكبرى.

انظر السيد عبد العزيز سالم: مظاهر الأصالة في بنيان المسجد الجامع بقرطبة، مقالة منشورة في بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، الإسكندرية ١٩٨٣م، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، ص٤٦.

(٧) القنانات في المصطلح المعماري هي مجموعة الأقواس أو الضلوع البارزة الرفيعة التي يتكون منها هيكل القبة. انظر فريد شافعي: العمارة الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض ١٩٨٢م، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، ص١٨٠.

(٨) الأوتار في المصطلح المعماري هي مجموعة الكمرات المتشابكة المكونة لهيكل القبة، والتي تنصب على مسطحات مستطيلة ومربعة ومستديرة.

فكري، ص٤٢٠.

(٩) توصف القبة معماريًا بقبة الأقواس المتقاطعة أو العقود المتقاطعة؛ نظرًا لأن تخطيطها المعماري يقوم على عقود نصف دائرية بارزة من حجر منجور تتقاطع فيما بينها، مؤلفة أشكالًا نجمية مضلعة.

انظر السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جزءان، بيروت ١٩٧١م. دار النهضة، جـ١، ص٣٩٠.

(١٠) فكري، ص٤١٩.

(١١) أطلقت قبة الضوء على القبة التي تغطي مصلى فيلا فينوسا بجامع قرطبة، انظر مانويل جوميت مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم، القاهرة، طبعة الدار القومية للتأليف والترجمة والنشر، ص١٤٥.

وانظر:

HOAG, (J.D.) Western Islamic Architecture, The Great Ages of World Architecture. London - New York, 1955, pp, 94-16.

(١٦) الكحلاوي: مقاصير الصلاة في العصر الإسلامي، مقالة بمجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ١٩٨٩م، ص ص٢١١-٢١٢.

(١٣) سالم: قرطبة، جـ١، ص٣٨٦.

(١٤) انتقل نظام القبة المشيدة من الضلوع المتقاطعة من قرطبة إلى طليطلة، ومن أمثلتها القباب المتقاطعة في مسجد الباب المردوم، كما انتشر هذا النوع من القباب في كنائس طليطلة ومن أمثلتها: (بيلين) في دير سانتابي وفي قبة (لاس ترنيرياس)، كما ظهر هذا النوع أيضًا في قبة مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة. وفي خارج الأندلس ظهر هذا النوع من القباب في كنائس إيطاليا، ومن أمثلتها قبة العقود المتقاطعة بكنيسة (سان لورنز)، وقبة العقود في كنيسة (سيكلروفي نفارو) في إيطاليا أيضًا.

فكري: ص ص٤٢٠-٤٢١.

انظر مورينو: ص ص٢٤١-٢٤٢.

انظر سالم: جـ١، ص ص٣٩٠-٣٩١.

(١٥) يعد هذا الجامع من أجمل المساجد المرابطية، وقد شيده يوسف بن تاشفين بمدينة الجزائر عام (٤٧٥هـ/١٠٨٢م)، ثم قام والده علي بن يوسف بن تاشفين بعمل إضافات معمارية وزخرفية في عام (٥٣٠هـ/١١٣٦م)، ثم أعيد تجديده مرة أخرى في عهد دولة بني عبد الواحد من قبل بغمراش بن زيان.

انظر حسين مؤنس: المساجد، الكويت، ١٩٨١م، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٧، ٢١٩٨.

(١٦) إيلي لامبير: تطور العمارة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال وشمال إفريقيا، ترجمة عزبة جليان عطا الله، بيروت، ١٩٨٥م، دار آسيا ص٢٠٦.

(17) Marcais (G.). MANUEL D'ART MUSULMAN L'ARCHITECTURE, Tunisie, Ag- geree, Maroc, Espag, Sicile., Paris, 1966 Editions Auguste plcard, Paris, Vol. I pp. 318-314.

(١٨) ترتكز أرجل العقود في هذه القبة على حرمدانات (كوابيل) على عكس أرجل عقود قبة قرطبة، فهي ترتكز على أعمدة صغيرة؛ ولهذا تميزت وسائد أرجل عقود قبة تلمسان بهذه الحرمدانات.

أرنست كونل: (الفن الإسلامي)، ترجمة أحمد موسى، بيروت ١٩٦٦م، دار صادر، ص١٢٣.

(١٩) يعتبر الدكتور عبد العزيز مرزوق مجموعة الزخارف التي تزين قبة المحراب في جامع تلمسان من أجمل أمثلة الزخارف الجصية في المغرب، حيث تشاهد العين أروع زخارف نباتية محفورة في الجص بعضها مخرم نلمس الضوء من خلال ثقوبه.

محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس بيروت، دار الثقافة، ص٨٦.

(٢٠) توريس بلباس: الفن المرابطي والموحدي، ترجمة سيد غازي، الإسكندرية ١٩٧٦م، دار المعارف الإسلامية، ص ص٧٥-٧٦.

وانظر:

Torres Balbas, Ars Hispaniae, Historia Universal del Arte Hispanico, Editorial plus Ultra, Madrid, p. 33. fig 20.

(٢١) كان هذا التطور في بناء قباب جامع قرطبة خطوة تقدمية كبيرة في التصميم المعماري، تلاشت فيه وظيفة منطقة الانتقال والغطاء المنصف للقبة (الخوذة)، وأصبح من السهل أن يغطي التصميم المسطحات كافة.

فكري، ص٤٢٠.

(٢٢) شافعي، ص ص١٨١-١٨٢.

(٢٣) شافعي، ص١٨١.

(٢٤) أرجع بعض الباحثين قباب قرطبة إلى أصول إيرانية متأثرة بقباب الضلوع في جامع أصفهان الكبير، ولكن أ.د.سالم يرى أنه لا يمكن أن تكون قباب أصفهان مصدرًا لقباب قرطبة لعاملين: أولهما: أن قباب أصفهان تحتوي على نماذج أولية للضلوع المتقاطعة، والعامل الثاني أن قبة أصفهان تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، مما يرجع التأثير القرطبي على أصفهان بصفتها الأقدم.

انظر دافيد تالبوت رايس: الفن الإسلامي، ترجمة د.منير صلاح الراجحي دمشق ١٩٧٧م، مطبعة الجامعة، ص٨٦.

وانظر عمر رضا كحالة: الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، دمشق ١٩٧٢م، المطبعة التعاونية، ص٧٧.

وانظر سالم: قرطبة، جـ١، ص ص٣٩١-٣٩٢.

وانظر:

Torres Balbas, Arte Hispano Musulman de Las Primeras bovedas francesas, Al – Andalus, Vol III, 1935. pp. 522–524.
Marcias: Vol., 1., p, 319.

(٢٥) وانظر شافعي، ص١٨١.

(٢٦) سالم: قرطبة، جـ٢، ص٣٩١.

(٢٧) رايس، ص٨٦.

(٢٨) فكري: أثر العرب، ص٤٢٠-٤٢١.

وانظر مسجد الزيتونة الجامع في تونس، مقالة بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الثالث، ١٩٥٢م، ص ص٨٦-٨٧.

(٢٩) لا شك أن أوجه التقارب والتشابه بين القباب التونسية في القيروان والزيتونة وبين القباب الأندلسية تنبئ عن أصول مشتركة قد ظهرت في منطقة واحدة، ولما كانت القباب التونسية في القيروان والزيتونة أقدم عهدًا من القباب الأندلسية، فإن سمة التطور هي التي أوحت للمعمار القرطبي بناء القبة ذات الضلوع.

فكري: أثر العرب، ص٤١٩.

(٣٠) فكري: أثر العرب، ص٤١٩.

(٣١) لامبير: تطور العمارة، ص ص١٢٤-١٢٥.

(٣٢) شافعي: العمارة ماضيها، ص١٨١.

(33) **GRABAR (O.), The Formation of Islamic Art, New Haven and London, Yale Uni-versity Press, fig. 54.**

(34) **Marcais: Vol I pp., 318-320.**

(٣٥) شافعي: ص١٨٠-١٨١.

(36) **Marcais: Vol I p. 320.**

(37) **Derk (Hill)., Islamic Architecture in North Africa – Farbr and Faber Limited, Queen Square London. 1976. p. 205.**

(٣٨) بلباس: الفن المرابطي، ص٧٦.

(٣٩) ينسب مسجد باب مردوم بطليلطلة المعروف الآن، بكنيسة الكريستودي لالوث، إلى الباب الذي يقع المسجد بجواره والمعروف بـ(الباب المردوم)، أما المسجد فيحتوي على نص إنشائي منقوش على واجهته يقرأ فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم"، أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله، فتم بعون الله على يد موسى بن علي البناء وسعادة، فتم في المحرم سنة تسعين وثلاثمائة".

سالم: المساجد والقصور في الأندلس، الإسكندرية ١٩٨٦م، مؤسسة شباب الجامعة، ص٣٣.

(٤٠) فكري: جامع القيروان، ص٤٢٠.

(٤١) بلباس: الفن المرابطي، ص٧٥.

(42) – **Trrasse.. LA MOSQUEE DES TAZA., P.25.**

وانظر:

– **MASLOW., LES MOSQUEE DE FES ET DE NORD DE MAROC, PARIS, 1934.**

(٤٣) شافعي، ص١٨٠–١٨١.

أولًا: المصادر العربية:

-الإدريسي، الشريف.

وصف إفريقيا الشمالية، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق هنري بيريس، طبعة معهد الدراسات العليا الإسلامية، الجزائر، ١٩٥٧م.

-البكري، أبي عبيد الله.

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب: "المسالك والممالك"، مكتبة المثنى، بغداد.

-الحموي، شهاب الدين ياقوت.

معجم البلدان، خمسة أجزاء، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٨٥م.

-العبدري، أبي عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد.

رحلة العبدري، تحقيق مُحَمَّد الفاسي، الرباط، منشورات جامعة الملك مُحَمَّد الخامس، المغرب. ---الوزان، الحسن بن مُحَمَّد، (ليون الافريقي).

وصف إفريقيا، جزءان، تحقيق مُحَمَّد حجي ومُحَمَّد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الرباط، ١٩٨٢م.

-مجهول، مؤلف.

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، طبعة دار الرشاد، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.

ثانيًا: المراجع العربية:

-الكحلاوي، مُحَّد مُحَّد.

مقاصير الصلاة في العصر الإسلامي، مقالة بمجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م.

قبة العقود المركبة المرابطية بمراكش المعروفة بقبة البروديين، مقال تحت الطبع بمجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

القباب المغربية في عصر المرابطين، مقالة بمجلة العصور، تحت الطبع، الرياض.

-سالم، السيد عبد العزيز.

المغرب الكبير العصر الإسلامي، طبعة دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦م.

قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جزءان، طبعة دار النهضة، بيروت ١٩٧١م.

مظاهر الأصالة في بنيان المسجد الجامع بقرطبة، مقالة ضمن كتاب بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٦م.

المساجد والقصور في الأندلس، طبعة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٦م.

-شافعي، فريد محمود.

العمارة الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، نشر عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٢م.

-فكري، أحمد.

مساجد الإسلام مسجد القيروان، طبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٣٦م.

مسجد الزيتونة الجامع في تونس، مقالة بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الثالث، القاهرة ١٩٥٢م.

-كحالة، عمر رضا.

الفنون الجميلة في العصور الإسلامية"، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٢م.

-مرزوق، مُحَمَّد عبد العزيز.

الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، دون تاريخ.

-مؤنس، حسين.

المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨١م.

ثالثًا: المراجع المعربة:

-بلباس، (توريس)

الفن المرابطي والموحدي، ترجمة د.سيد غازي، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٧٦م.

-رايس، (دافيد تالبوت)

الفن الإسلامي، ترجمة د.منير صلاح الأصبحي، مطبعة الجامعة بدمشق ١٩٧٧م.

-كونل، (أرنست)

الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.

-مارموال، (كرنجال).

إفريقيا، ترجمة مجموعة باحثين، جزءان، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ١٩٨٤م.

-مورينو، (مانويل جوميت)

الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة د.لطفي عبد البديع، ود.السيد عبد العزيز سالم، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

-لامبير، (إيلي)

تطور العمارة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال وشمال إفريقيا، ترجمة عزبة جليان عطا الله، دار آسيا، بيروت ١٩٨٥م.

رابعًا: المراجع الأجنبية:

- Balbas (Leopoldo Torres)

- Ars Hispanue Historia Universal del Arte Hispanico - Editorial Plus. Ultra Madrid.

- Arte Hispano MusuImán de las Primeras Bovedas Nervadas Francesas, al-Andalus, Vol. III, 1935.

- GRABAR. (OLEG)

- The Formation of Islamic Art Nem Haven and London, Yale University Press. 1973.

- HOAG. (.J.D.)

- Western Islamic Architecture. The Great Ages of World Architecture London - New York. 1955.

- Hill. (Derek)

- Islamic Architecture in North Africa Farbr and Faber Limited Queen Square London, 1976.

Maslow: (Boris)

- Las Mosquee de Fes et Nord de Moroc, Paris, 1034.

- La Qoubbe Barudiyyin a Marrakech al Andalus, Vol. XII, 1948.

Marc: (G).

- Manuel d'Art Musulman l'Architecture - Tunisie, Algerie, Maroc, Espayne, Sicile. Editions Auguste plcard-Paris. 1926.

Terrasse: (H).

- L'Grande Mosquee de Taza Paris.

- L'Art hispono - Mouresque des Origins aul. XIII e Siecle. Paris. 1932.

القباب في العالم الاسلامي

عبد السلام أحمد نظيف

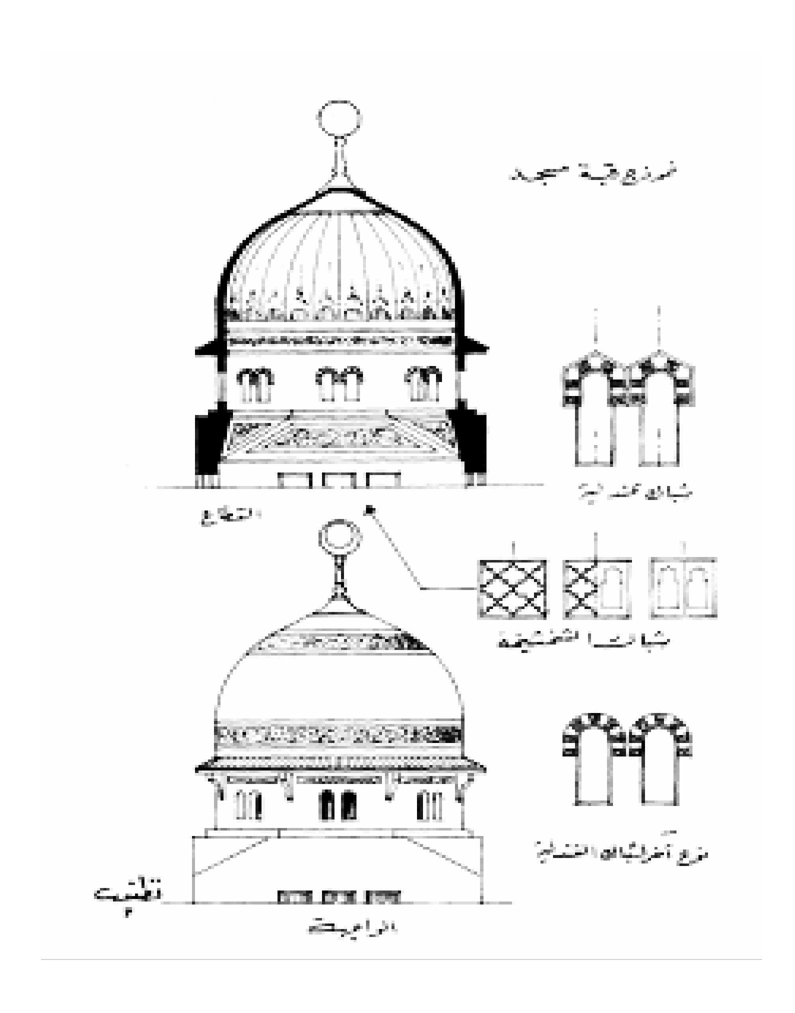
انتشرت القباب في العالم العربي والإسلامي بأنواعها المختلفة، وقد أخذها المسلمون عن الساسانيين والبيزنطيين والأقباط، استعملوها في الأضرحة حتى أطلقت كلمة قبة على مبنى الضريح جميعه.

أبدع هذه القباب الاسلامية موجودة في مصر وسوريا ويرجع أقدمها إلى العصر الفاطمي.. تميزت القباب بمصر بارتفاعها وتناسب أبعادها وبما على سطحها من زخارف هندسية بارزة وبديعة أو نباتية تعطى عمقاً وظلالا على سطحها كما عمد المهندسون في ذاك الوقت إلى زيادة ارتفاع القبة برفع الجراء الأسفل منها، وقد تعددت أنواع القباب منها النصف كروية والمضلعة والبيضاوية والبصلية الشكل.. لقد عرفت مصر القباب الخشبية ولعل أجملها قبة الإمام الشافعي وهي قبة خشبية مكسوة بمادة الرصاص، تمتاز بزخارفها البديعة وشرفاتها المسننة من الخارج.

تجميل هذه القباب لم يقف عند حد نقشها من الداخل وتغطية جوانبها بالزخارف والكتابات الكوفية فقط بل كانت تكسى كلها بالقاشاني.

القباب في بلاد المغرب من النوع النصف كروي تقريباً ولا توجد فيها زخارف خارجية إلا نادرا.. إن اقبال المغرب عل تشييد القباب لم يكن كثيراً أما الجزائر فقد عرفت نوعا من القباب البيضاوية الشكل.. كما أن معظم القباب في إيران والعراق بيضاوية أو بصلية الشكل وبعضها مغطى بالقاشاني ذي الألوان الزاهية والبعض الآخر مغطى برقائق من الذهب الخالص.

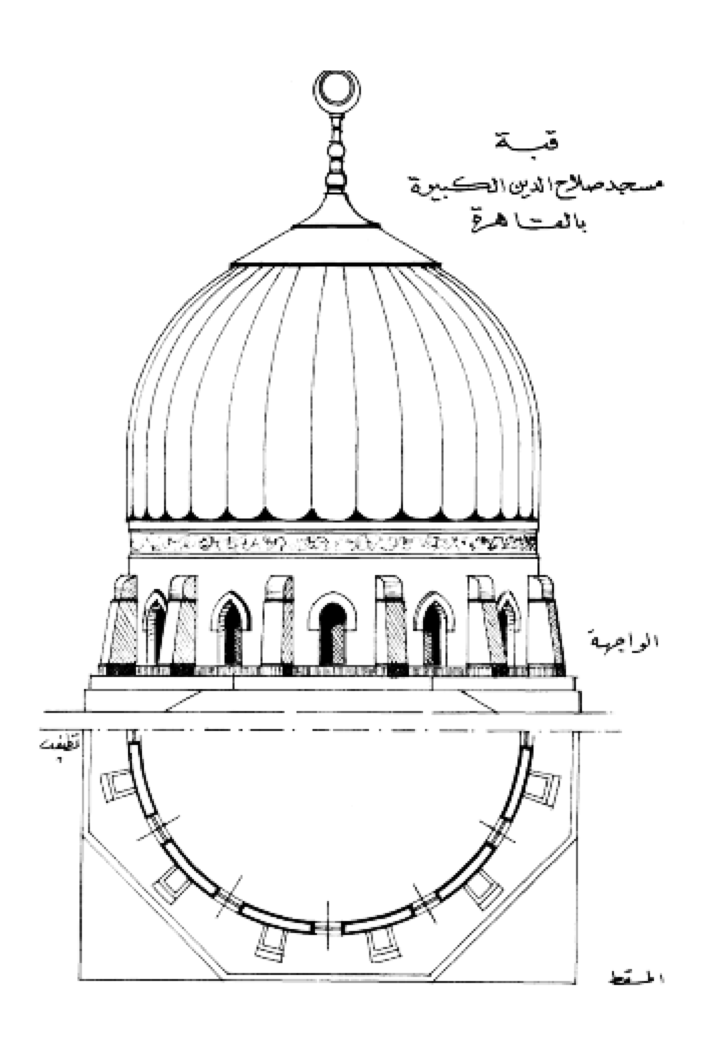
نموذج (١) هذه القبة ترتفع على مربع به نوافذ الشخشيخة للإنارة والتهوية أعلى هذا المربع شطفات في أركانه تمهد إلى دائرة القبة – في عنقها ثمانية مجامع من القنديليات المجموعة الواحدة عبارة عن قنديليتين يعلوها بانوه يحيط بالقبة ومحلى بالزخرفة النباتية أعلى هذا الإطار من الداخل تقسيم جفوت تتلاقى في دائرة علوية أسفل قاعدة الهلال بين شطفات المربع أربع بانوهات تحلى بالزخرفة النباتية – يوجد أعلى القنديليات ومن الخارج قرميد يحيط بالقبة ويرتكز عل كوابيل كما هو موضح بالقطاع والواجهة.



طريقة تصميم القبة وفكرة تدرجها:

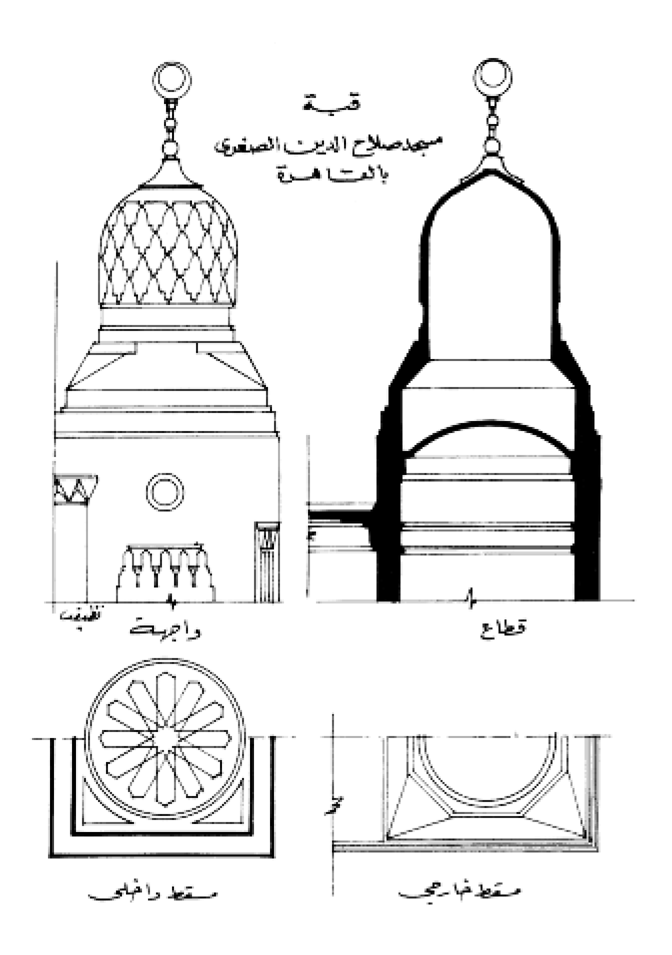
يتوسط المسجد الصحن الرئيسي المربع له عقود ترتكز على أعمدة. أركان الصحن بها أعمدة مربعة لرفع الجزء المربع ثم يمهد إلى الجزء المثمن بواسطة مقرنصات أو مثلثات للتمهيد إلى محيط القبة الدائري من الداخل حيث تستقر القبة عليها.

نموذج (٢) قبة مسجد صلاح الدين الكبيرة وهي نظام العقد المخموس ترتكز هذه القبة على مربع به الشخشيخة التي تشمل على وحدات نوافذ للإنارة والتهوية – نبدأ أولا بالمربع في أعلى أركانه شطفات تمهد إلى عنق القبة الدائري الذي يشمل على قنديليات بينها وحدات قوائم مسلوبة إلى أعلى ترتكز من أسفل على نهاية القاعدة المثمنة ومثبتة رأسيا في عنق القبة – أعلى القنديليات بانوه يحيط بالقبة ومحلى بالزخرفة الهندسية، كما تحلت القبة بجفوت تعطي حنيات للخارج ومسلوبة إلى أعلى وتنتهي عند قاعدة الهلال.



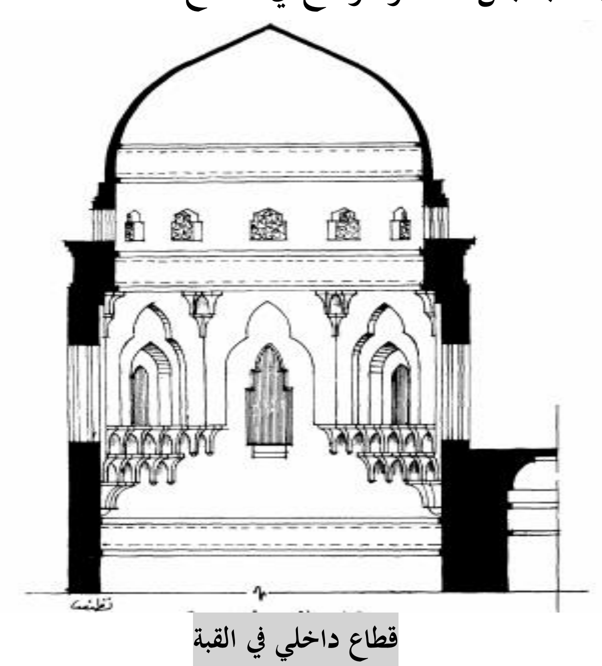
نموذج (٣) قبة مسجد صلاح الدين الصغرى

وهي نظام العقد المدبب ذو المركز الواحد – وتبدأ بالمربع يعلوه قبو ثم يستمر المربع حيث ينتهي أعلاه بشطفات تمهد إلى عنق القبة الدائري الذي يحيطه بانوه – وقد تحلت القبة من الخارج بوحدات زخرفة هندسية تنتهي أسفل قاعدة الهلال.



محيط القبة به فتحات قندليات (عبارة عن شبابيك من قطع الزجاج الملون والمثبت بواسطة الجبس) لتعطي أضواءً ملونة متعددة، ومن الخارج حجر صناعي مفرغ يتمثل في وحدات هندسية – داخل القبة وأعلى القندليات بانوهات مقسمة ومسلوبة إلى أعلى القبة حيث تتلاقى هذه البانوهات في دائرة تجمعهم – هذه البانوهات تشغل أما بوحدات هندسية أو وحدات نباتية، خارج القبة تغطى بطبقة من الحجر الصناعي بحليات هندسية أو نباتية لتعطي عمقا مناسبا.

نموذج (٤) قبة مسجد سيدى عبد الرحيم القنائي. نظام العقد ذو المركز الواحد هي القبة التي تعلو الضريح – تبدأ بالمربع أعلى نهاية المربع ثلاث طبقات من المقرنصات تمهد إلى المثمن وفي نهاية أركان المثمن من أعلى طبقتين من المقرنصات تمهد إلى دوران القبة أعلاها بانوه يحلى بآيات من القرآن – تبدأ جلسة النوافذ في مستوى منسوب طبقة المقرنصات الأولى أما أعلى البانوه الدائري فتوجد قنديليات القبة، وهي من الزجاج الملون المثبت بالجبس كما هو موضح في القطاع.

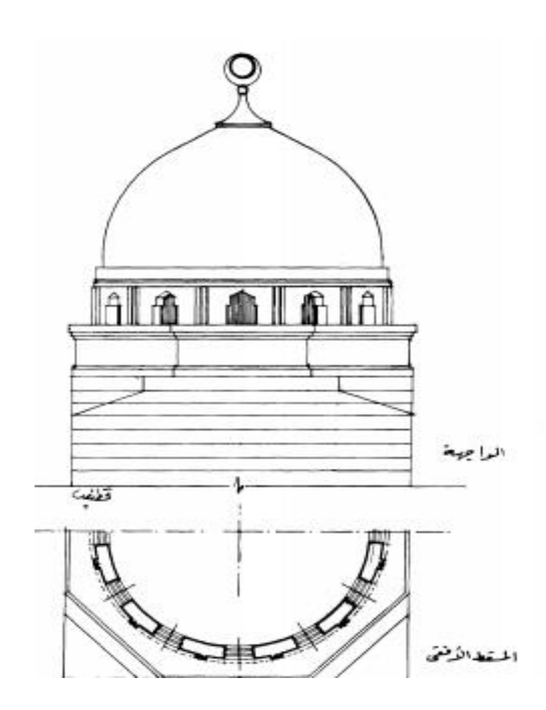


قطاع داخلي في القبة

مسجد سيدي عبد الرحيم القنائي بقنا

نموذج (٤) قبة القنائي من الخارج ترتكز على قاعدة المثمن نبدأ أولا بالمربع من الخارج ينتهي بشطفات في أركان هذا المربع تمهد إلى المثمن ثم

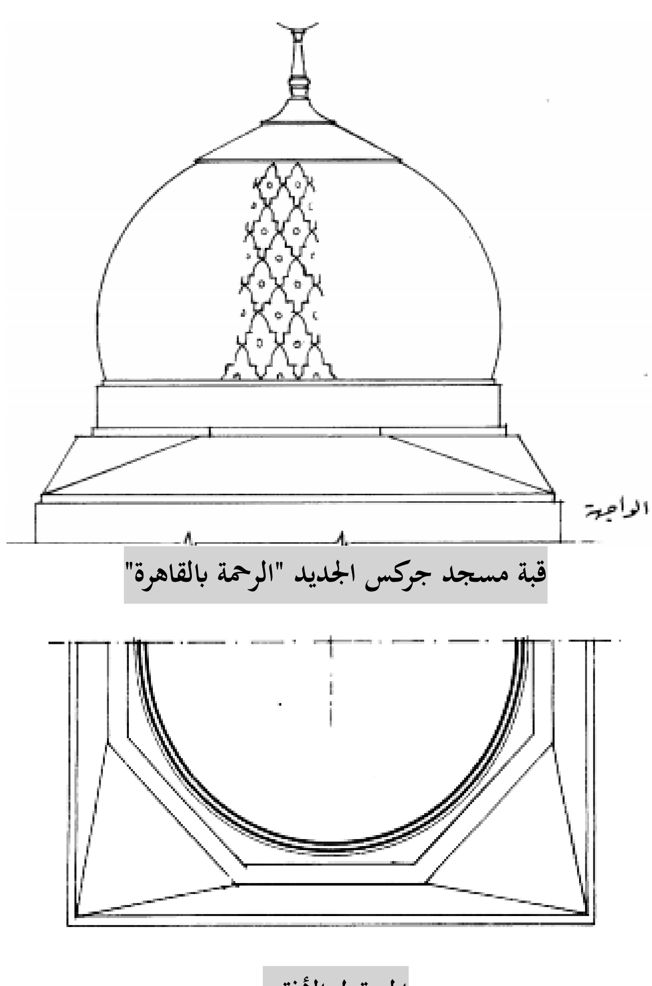
دوران القبة وبها فتحات قندليات وهي زجاج ملون ومثبت بالجبس كما هو موضح بالواجهة والمسقط والقطاع.



قبة مسجد سيدي عبد الرحيم القنائي بقنا

ويكتفى بعمل بانوه خارجي في رقبة القبة يقسم إلى أقسام متساوية داخله وتشغل بزخارف حسب ما يتطلبه التصميم، لقد تطورت هذه القباب حيث استعملت في المباني العامة مثل قبة مبنى قاعة الاحتفالات بالحرم الجامعي بالقاهرة – وكذلك مبنى المدخل الرئيسي بجامعة عين شمس (كلية الهندسة) – لقد استحدث في تصميم القباب بروز حول عنق القبة وأعلى القندليات مباشرة هذا البروز إما أن يكون قرميدا دائريا محملا على كوابيل، أو بروزا محملا على حطات من المقرنصات – إما حطة أو حطتان

– وهذا ما نراه في بعض المساجد المبنية حديثا – قاعدة نهاية الجزء المثمن من الخارج توضع برامق مثبتة في القاعدة المثمنة وحول محيط القبة من الخارج بحيث وضعها بين القنديليات وفي مستواها أو أكثر، حسب نسبتها في التصميم وارتباطها مع أعلى القبة.

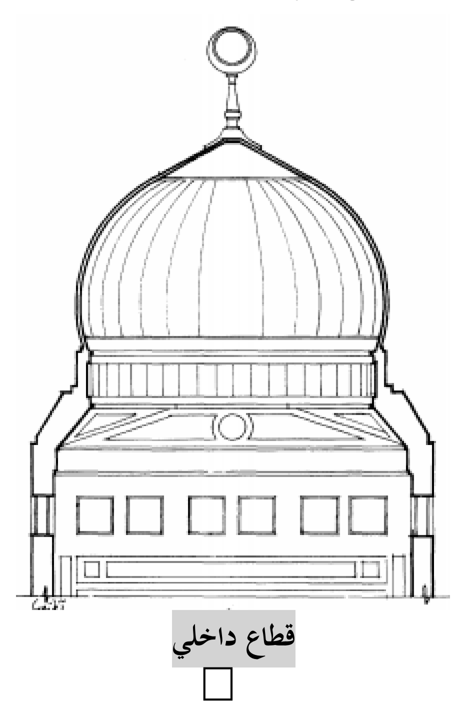


قبة مسجد جركس الجديد "الرحمة بالقاهرة"

المسقط الأفقي

نموذج (٥) قبة مسجد جركس (مسجد الرحمة) القبة نظام العقد البصلي ذي المركز الواحد.

تبدأ من أسفل المربع وتنتهي بشطفات أعلى أركانه لتمهد إلى المثمن ثم دوران القبة وضعت نوافذ الشخشيخة أسفل القبة للإنارة والتهوية، أما المساحات بين الشطفات فهي عبارة عن دائرة بها الطبق النجمي في الوسط وبانوهين متماثلين حول الدائرة ومحليان بزخرفة نباتية أسفل نوافذ الشخشيخة بانوه آيات من القرآن.

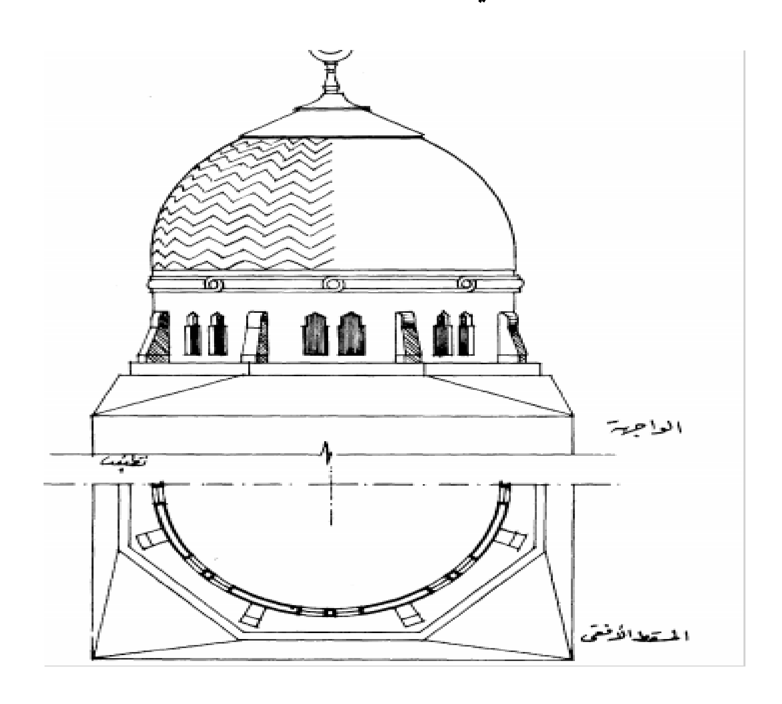


قطاع داخلي

قبة مسجد جركس الجديد "الرحمة" بالقاهرة

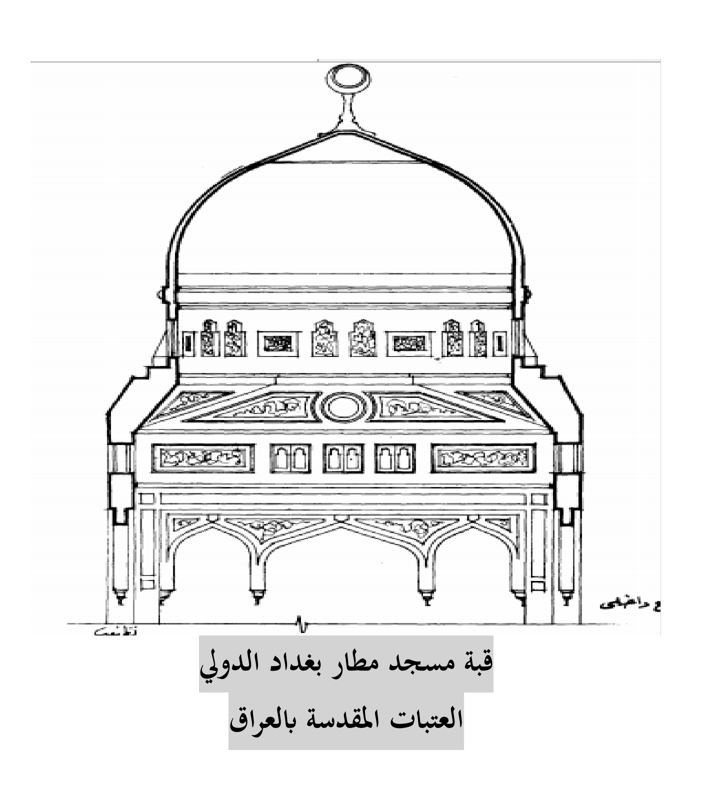
أحياناً تصمم جفوت على القبة من الخارج.. هذه الجفوت تكون طويلة ومتقاطعة وبارزة تنتهي عند أسفل القبة بجفت عرضي مزدوج بميمات مترابطة تعطي شكلاً جميلاً للقباب – أخذت فكرتها من القبة المضلعة ذات الأضلاع الطويلة المسلوبة من أعلى وحتى أسفل القبة.

القباب في إيران والعراق بيضاوية أو بصلية الشكل ومسلوبة إلى أعلى فنجد مثلاً قباب مسجد الإمام موسى الكاظمي بمنطقة الكاظمية ببغداد بصلية الشكل وعنق القباب به استطالة بعض الشيء وذلك بخلاف القباب في الهند وباكستان التي لا توجد استطالة بعنقها.



قبة مسجد مطار بغداد الدولي

هذه القباب أما أن تغطى بصفائح الذهب بمقاسات معينة تسمح بأن تأخذ شكل سطح القبة من أعلى نقطة ارتكاز قاعدة الهلال حتى بداية عنق القبة أو تغطى بالقاشاني بوحدات زخرفية نباتية أو هندسية على السواء. أعلى محيط العنق بانوه دائري به آيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي ولو أن وحدات هذه الزخارف جميلة في حد ذاتها ولكن كثرة استعمالها خارج القبة تفقدها هذا الجمال لذا وجب استعمال الوحدات سواء هندسية كانت أو نباتية في مكانها المناسب في القباب إما من الداخل أو من الخارج لنحصل على النسبة التي ترتاح لرؤيتها العين.

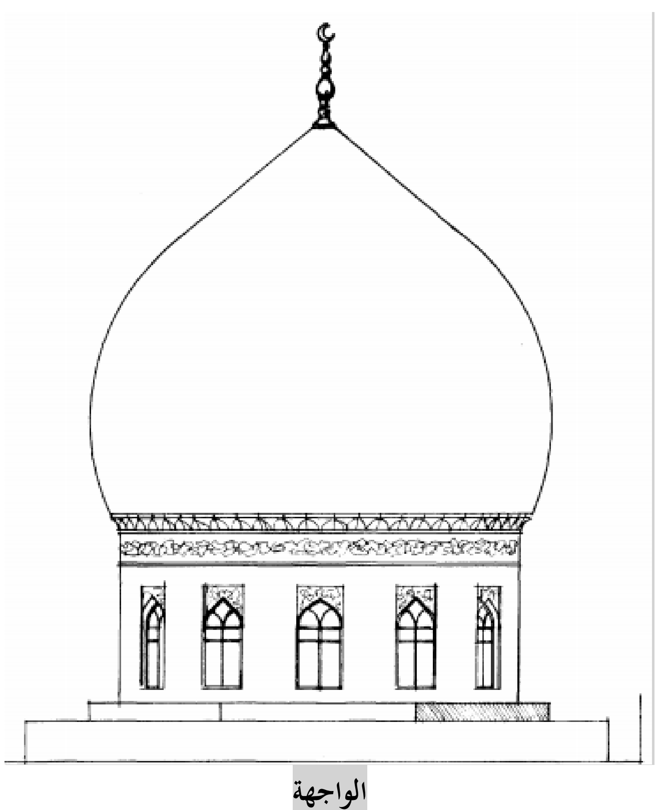


قبة مسجد مطار بغداد الدولي

العتبات المقدسة بالعراق

قبة مسجد الإمام علي "رضي الله عنه"

كان لي شرف معاينة قبة هذا المسجد بتكليف من المرحوم طاهر يحيى رئيس الوزراء في عهد الرئيس الراحل عبد السلام عارف عام ١٩٦٣ بلجنة مشكلة مني وبعض المهندسين المدنيين، وذلك بسبب حدوث تشققات في تكسية رخام الحوائط الحاملة للقبة، وكان المطلوب معاينة القبة ومدى تأثيرها على هذه الحوائط، وهل هناك خطورة من هذه الشقوق من عدمها وقد تمت المعاينة وقدم تقرير بأنه لا خطورة كما شمل التقرير معالجة هذه الحالة وليس هذا هو موضوعنا أما الذي أرمي إليه هو أن هذا المسجد له قبتان: قبة خارجية كبيرة وقبة داخلية أقل منها – حيث يرتكزان على محور واحد هو عنق القبتين المشترك – وقمت ومعي اللجنة بمعاينة القبتين من الداخل، والذي ساعدنا على ذلك هو الفراغ بين القبتين والذي دخلنا فيه عن طريقة فتحه بالقبة الخارجية تسمح بالمرور..



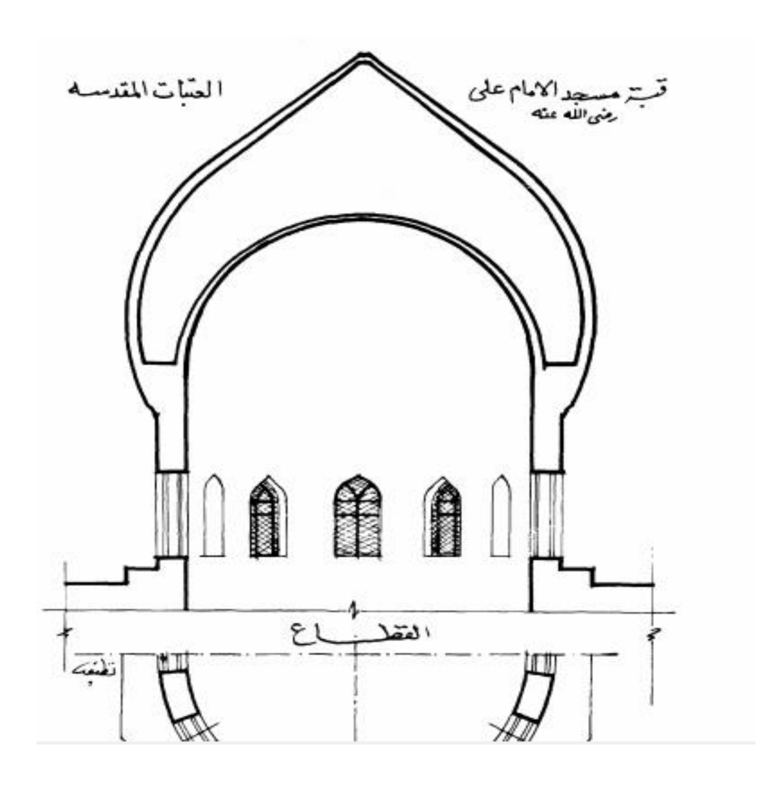
الواجهة

كروكي قبة مسجد الإمام علي ﷺ

"العتبات المقدسة" – بالعراق

القبة الخارجية الكبيرة مكسوة بصفائح من الذهب بمقاسات معينة وهو الشكل البصلي الذي ينسب إلى القباب الفارسية والإيرانية – أما القبة الداخلية فهي محلاة بالزخارف الهندسية والنباتية هذه الزخرفة عبارة عن قطع البلور جمعت على شكل أطباق نجمية متكررة والتي تعطي ألوان الطيف وخاصة حينما تقع عليها الإضاءة، وهو منتهى الجمال والإعجاز في تكسية هذه الأسقف مما يدل على مهارة الصناع في تجميع هذه الزخارف الهندسية ليعطي الزخرفة الهندسية للطراز.. القبة في جميع المباني

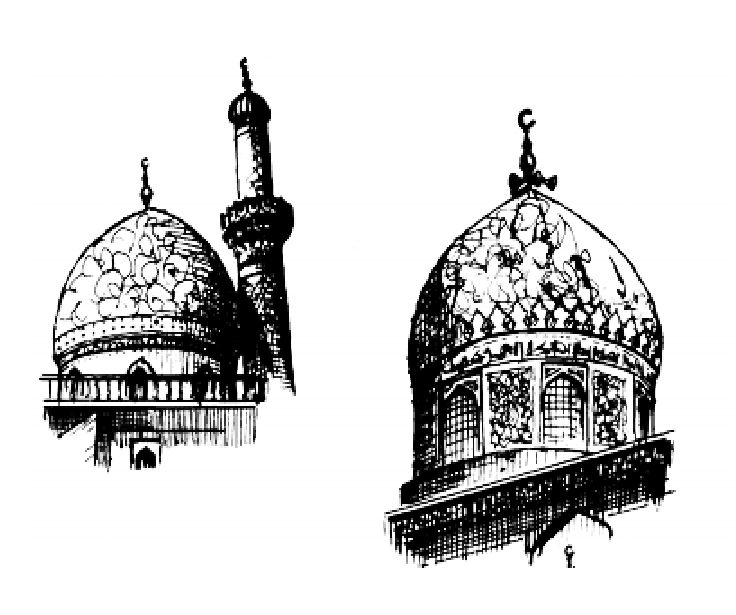
الاسلامية سواء أكانت دور عبادة أو قصوراً، هي عبارة عن القبة المتعارف عليها وهي تبدأ أولا بالمربع المشطوف أعلاه تمهيداً إلى الثمن فدوران القبة التي ترتكز عليه – أما في المسجد العتبات المقدسة فهي قبة مزدوجة – قبة خارجية وقبة داخلية – ترتكزان على محور واحد كما سبق شرحها كما يوضح ذلك الكروكي الخاص بالمسقط والواجهة والقطاع..

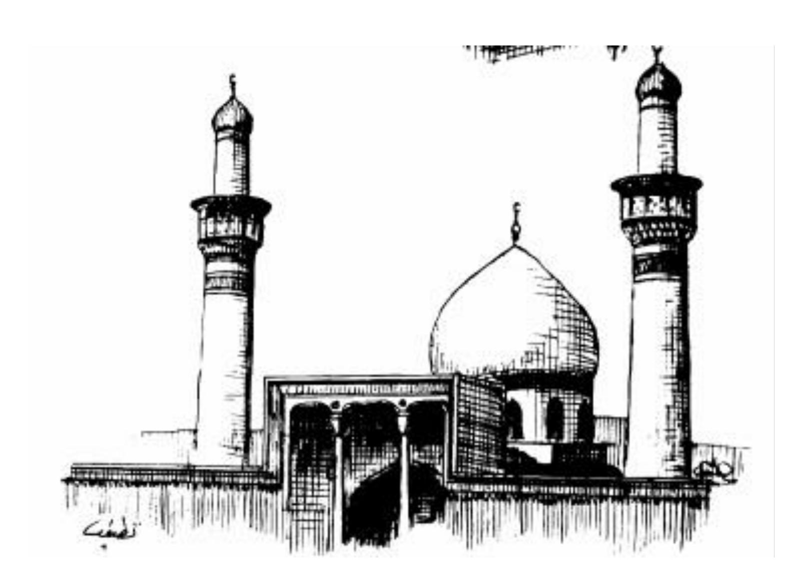


قبل العصر الإسلامي كانت القباب تبنى فوق معابد النار في إيران ولا تزال بعض العمائر الإيرانية الساسانية قائمة – لقد نجح المعماريون الإيرانيون في إقامتها على قاعدة مربعة وسبقوا بذلك روما التي لم تتعد في تصميمها إلا إقامة القباب على دائرة من الأعمدة أو على قاعدة

أسطوانية. وقد توصل المعماريون الإيرانيون إلى بناء القبة باستخدام المقرنصات (الدلايات) بحطاتها التدريجية للتمهيد من أركان المربع إلى المستوى الدائري أسفل القبة.

أما القبوات فقد استخدام المتخصصون القبوات نصف الدائرة في التغطية كما ظهر نبوغ الإيرانيين في بناء القبوات الكبيرة لاسيما في عمائر الأسواق كالسوق الشاهاني في أصفهان وفي بعض المساجد كمسجد شاه والمسجد الجامع بأصفهان.

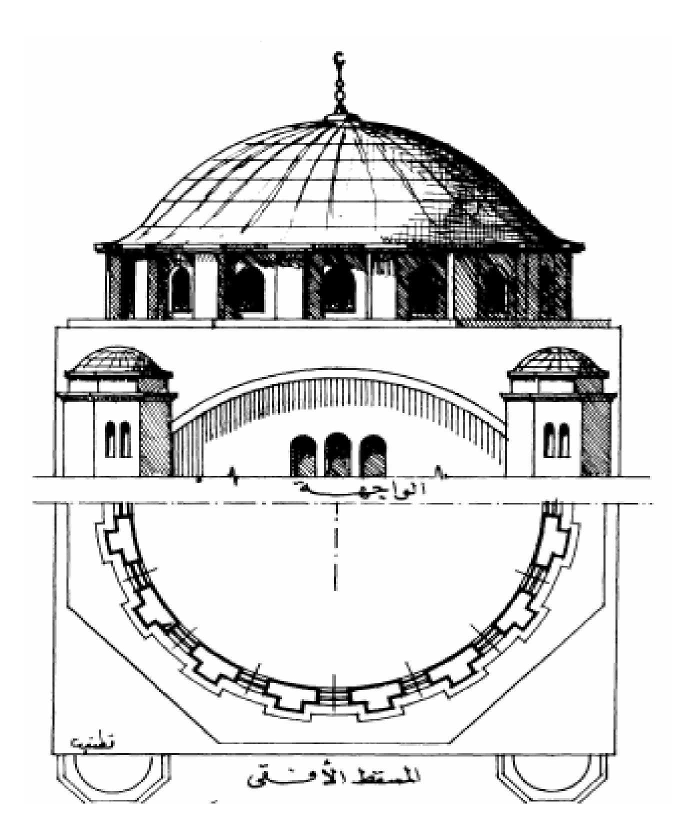




بعض نماذج للقباب والمآذن بالعراق

٥- أما القباب في الطراز العثماني فهي على شكل نصف كرة غير كاملة، وفي معظم الأحيان تحيط بالقبة الرئيسية قباب صغيرة أو أنصاف القباب أما في الهند فيكون عنق القبة منخفضاً والقبة بيضاوية أو على هيئة اللوتس.

بنيت القباب للأضرحة وكانت هذه ظاهرة، ثم اختلف الوضع وأصبح استعمالها في المساجد الحديثة والقصور الكبيرة، والقباب تعطي عظمة الشكل المعماري في الطراز.

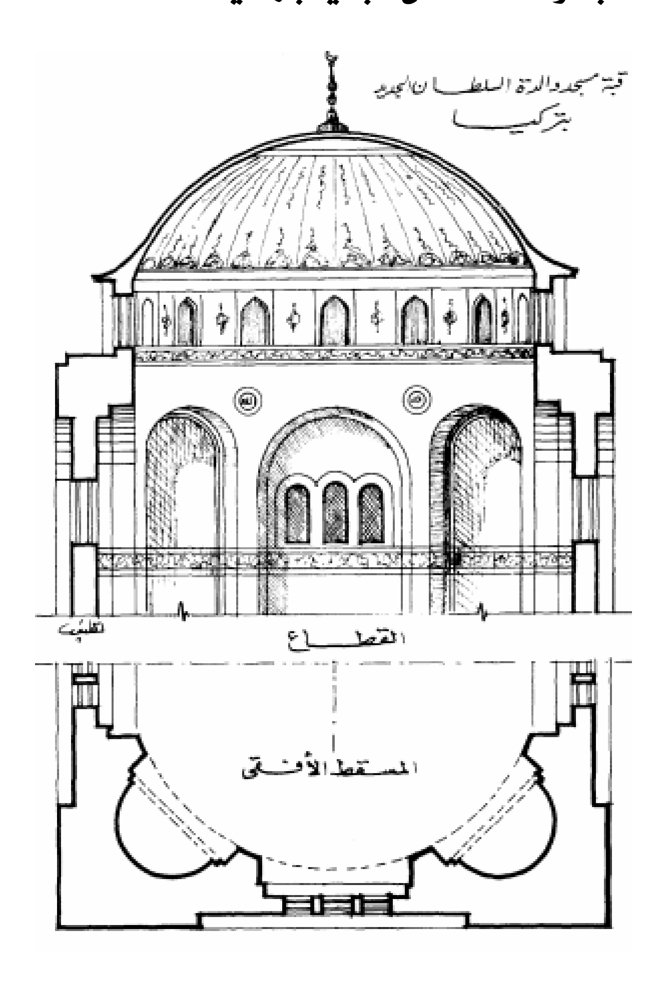


قبة مسجد والدة السلطان الجديد بتركيا

تبدأ أولاً بالصحن المربع ثم يمهد إلى المثمن يعلوه عنق القبة الدائري ويشمل على شبابيك (قندلية) بين أكتاف بارزة لتحمل كورنيش أسفل نهاية القبة والذي يعطي شبة مظلة دائرية تحيط بها. واجهة الجزء المربع من الخارج بها قوس (فولت) وردود في الاتجاه الأفقي يتصل يمينا ويسارا بنصفي مثمنين بارزين ومتدرجين. النصف المثمن العلوي لكل منهما يرتكز عليه نصف قبة من نفس الطراز ومثبتة في أحد أضلاع الحائط كما هو واضح في كروكي الوجهة والسقط. ومن الداخل يشمل على حنيتين نصف

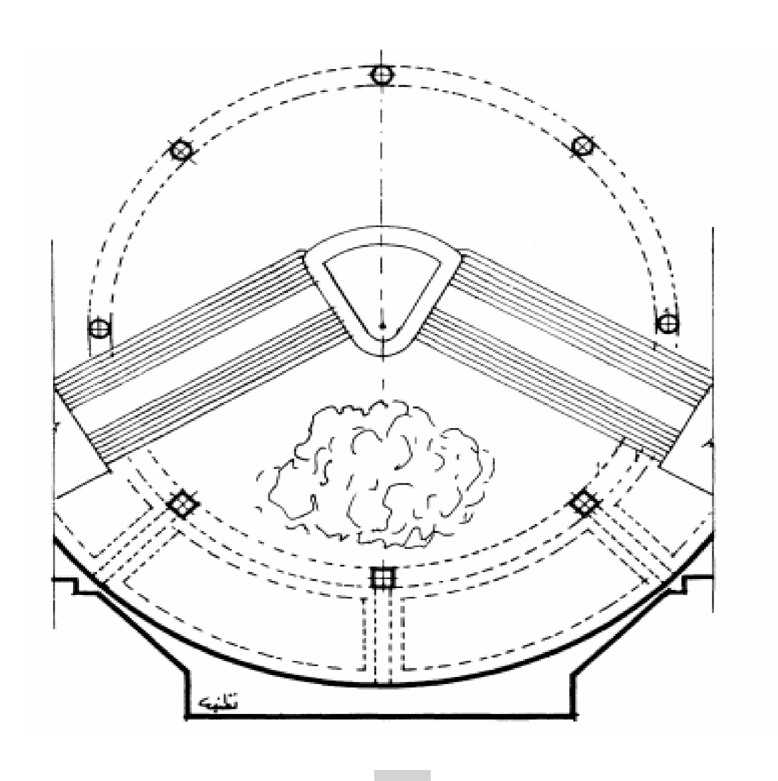
دائرية في ركني المربع بينهما مجموعة من ثلاثة قندليات وسط بانوه من الخارج بردود معين وبانوه من الداخل بعمق أكثر – الجزء العلوي للقبة من الداخل مقسم إلى مسافات رأسية ومنسوبة من أسفل إلى أعلى بينها زخارف نباتية تبدأ أعلى القندليات العلوية تشمل على إطار دائري محلي بزخرفة نباتية يوجد إطار بعرض مناسب ومحلى بآيات من القرآن.

قبة مسجد والدة السلطان الجديد بتركيا



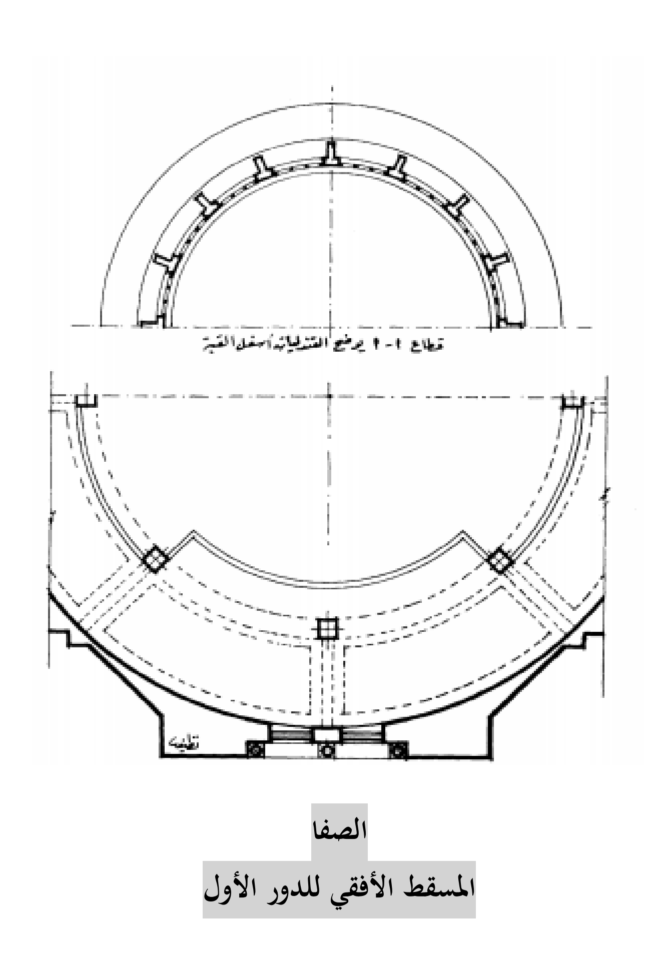
ساحة الصفا

هي عبارة عن قاعة دائرية قطرها **٣٦** مترا تقريباً وارتفاعها حوالي **٣٠**م – تشمل على ثمانية أعمدة على محور دائري قطره **٢٦** متر بين بدن العمود وحائط الصفا الدائري خمسة أمتار – تقع ساحة الصفا أسفل الطرف الأيمن لواجهة المسعى المرموز لها بالواجهة د للحرم المكي الشريف والذي يبدأ السعي من هذه الساحة. على يسار هذه الساحة ومن الخارج تقع المئذنة – ارتفاع أرضية قاعة الصفا عن منسوب أرضية المسعى أكبر من ٢٫٠٠ متر في هذا المسقط صممت درجات تؤدى إلى المسعى كان ذلك قبل التعديل وحتى يكون هناك أمان في السعي بين الصفا والمروة مع الأعداد الكبيرة من الحجاج ألغيت هذه الدرجات وحل محلها ميل بينهما نزولا إلى المسعى – في نهاية حائطي الصفا والمروة توجد أحجار من البازلت ذات القيمة الروحية والتي تحدد السعي بينها من مكان أحجار الصفا حتى أحجار المروة. .



الصفا
المسقط الأفقي للدور الأرضي قبل التعديل

الطابق الأول للصفا به شرفه دائرية ترتكز عل خمسة أعمال وتؤدي إلى الطابق الأول للمسعى حتى تستوعب العدد الكبير للسعي بين الصفا والمروة في هذا الطابق إلى جانب السعي بينهما في الطابق الأرضي – كما أن ساحة الصفا هذه هي حلقة اتصال بين المسعى والحرم الشريف بواسطة خمسة فتحات. ومع إلغاء درجات الصفا ألغيت المكاسل التي كانت تحدد هذه الدرجات وأصبح الميل من الصفا حتى بداية المسعى.



الصفا

المسقط الأفقي للدور الأول

ارتفاع العمود من أرضية الصفا حتى أسفل الكمرات ١٦ مترا – الجزء العلوى من العمود بعرض ٢ر٤٠ متر وارتفاع ١ر٤٠ محلى من الجانبين بكابولين مروحة مزدوجة – يأتي أسفله بعرض ٢ر٠٠ وارتفاع ١ر٠٠ مترا، محلى بجانبيه بكوابيل صغيرة مزدوجة أي كابولين في كل جانب – ثم يبدأ بدن العمود المربع بارتفاع ١١ر٤٠ مترا حتى قاعدته التي ترتكز على أرضية الصفا – وذلك بالنسبة للأعمدة الثلاثة ذات البدن المربع أما الأعمدة الخمسة ذات البدن المثمن فيبدأ أسفل الجزء

العلوى ذي الكوابيل الصغيرة وهو عبارة عن تاج أندلسي مورق ثم بدن مثمن وقاعدة ناقوسية ارتفاع العمود ٦٠ر١٠م ويشمل على تاج بارتفاع ٧٠ر١م وبدن ٨٠ر٦م وقاعدة ١٠ر٢م.

يوجد كورنيش دائري مجوف أعلى الكمرات الدائرية هذا التجويف يسمح بوضع لمبات كهربائية غير ظاهرة لتعطى اضاءة غير مباشرة إلى أعلى – الجزء العلوي الدائري بعد الكورنيش يشمل على طبقة من المقرنصات أعلى هذه الطبقة يقل قطر الدائرة حتى يصل إلى شبابيك القندليات محلاة بالزجاج الملون المثبت بالرصاصي يعلو هذه الشبابيك مباشرة القبة وهي أقرب إلى القباب التركية.

يوضح ذلك القطاع الداخلي للصفا – والمسقط الافقي للدور الأرضي والمسقط الافقي للدور الأول وكان ذلك قبل التعديل وإن كان التعديل لم يمس جوهر التصميم. (١)

---

(١) من كتابه "دراسات في العمارة الاسلامية" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩

قبتان مخروطيتان من بغداد

عطا مُحَمَّد صالح الحديثي

نبذة تاريخية:

إن دراسة الطبيعة الجغرافية لوسط وجنوب العراق توضح لنا أن ثمة عوامل طبيعية وبيئية قد تحكمت في أساليب البناء؛ نتيجة لندرة مواد إنشائية معينة ووفرة أخرى، وفي دراستنا للقباب وما لوفرة مادة الطين بكميات هائلة في هذا الوسط وندرة مادة مهمة كالخشب والحجر، دفعت المعمار العراقي القديم إلى ابتكار فنون معمارية جديدة في تسقيف الأبنية؛ وذلك باستخدام العقود والأقبية عوضًا عن السطوح المستوية، والاستغناء عن استخدام الأعمدة والدعائم، طالما أن مادة الطين بطبيعتها مادة مرنة تعطي البناء القدرة والكفاءة في التحوير والتحكم، إن هذا العامل لعب دورًا كبيرًا في تحديد أنواع وفن العمارة في العراق.

لذلك فإن دراسة مراحل التطور الثقافي والحضاري لوادي الرافدين، الذي كان له أوفر نصيب في بلوغ النضج الحضاري وإقامة حضارة أصيلة في تاريخ البشرية، مقارنة بالحضارات الأخرى التي قامت إلى جانب حضارة وادي الرافدين، توضح لنا أن الإنسان في هذه المنطقة ابتدع كل ما هو جديد في الفنون المعمارية، وعلى ذلك يمكن أن نجد أصول الأبنية المقببة

في العمائر القديمة التي شيدت في بلاد وادي الرافدين ومنها انتشرت إلى العالم القديم.

فالقبة إذن عنصر عماري محور عن فنون الأزج[1] العمارية، التي تعد من أهم الخصائص البنائية المميزة لأبنية وادي الرافدين عن سواها، "فابتداع التاريخ في البناء وحز الحنائز كان فتحًا عظيمًا في الفن العماري، فهو يساوي اختراع العجلة في آلاته وأدواته، مع اشتهار الرومان ببناء القناطر التي هي حنائز وببناء عقود الظفر المعروفة بأقواس النصر، فأول من ابتدع الحفر والتأريخ والتقويس في البناء هم سكان وادي الرافدين القدامى"[2].

فقد هدتنا التنقيبات الأثرية إلى نمط التسقيف في أبنية مرحلة القرى الزراعية المتطورة، الألفين السادس والخامس قبل الميلاد[3]، فحفريات تل

---

(1) الأزج: ضرب من الأبنية ومصطلح عماري للدلالة على كل بناء شيد مقوسًا. الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج١ ص١٧٧، دار الفكر، بيروت. والدكتور مصطفى جواد، سومر م٢٥ ص١٦٤، بغداد ١٩٦٩.

(2) الحنيزة: عقد الطاق المبني والقوس أو بلا وتر والعقد المضروب ليس بذلك العريض. الفيروز أبادي: القاموس المحيط ج٢ ص١٤، دار الفكر، بيروت. د.مصطفى جواد، سومر م٢١ ص١٦٤، بغداد ١٩٦٩.

(3) فؤاد سفر سومر ١ ج٢ ص٢١، بغداد ١٩٤٥.

حسونة أثبتت لنا أن السقف كان مسلمًا بينما ظهر في عصر حلف[١] على شكل قبة[٢].

وقد دلت الحفريات التي أجريت في موقع الأربجية[٣] عن بناء القبة، وأورد الأستاذ ملوان نماذج مختلفة لها وأشار إلى أن الطراز (أي بناء القبة) يختلف من مكان لآخر، فهناك نموذج يشكل قبة دائرية وآخر يشكل قبة مخروطة[٤].

وقد وجد الأستاذ ليونارد ولي في المقبرة الملكية بـ(أور) في العهد السومري، الألف الثالث ق.م، نماذج لسقوف معقودة بشكل أقبية وقباب مخروطة.

---

(١) تقع قرية حسونة على نحو ٥كم في الضفة اليمنى لدجلة وعلى ٢٥ كم جنوب الموصل، نقبت فيها مديرية الآثار العراقية في عامي ٩٤٣-١٩٤٤، وهي قرية كبيرة في العصر الحجري الحديث، يقدر تاريخها بنحو (٥٨٠٠-٥١٠٠ ق.م).

(٢) يقع تل حلف في شمال سوريا على ٥كم جنوب غربي رأس العين قرب منبع الخابور، نقبت فيها بعثة ألمانية عن متحف برلين سنة ١٩١٠، ١٩١٣، ١٩٢٩.

(٣) الأربجية: موقع أثري يقع بالقرب من أطلال نينوى، ويرجع تأريخه إلى (٤٩٠٠-٤٣٠٠ ق.م).

(4) **M.E.L. Mallawan and Jerviklovnd Rose, Excavations at Tell Arpa-chiyah Iraq Vole. 11, Part LPP, 25 Lonlan 1935.**

أما في العصر الإسلامي فإن أقدم مثال عراقي للقباب ما زال قائمًا فيه، هو قبة قصر الاخيضر التي تعود إلى النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، أما أقدم قبة إسلامية في بغداد ذكرها لنا المؤرخون العرب فهي قبة قصر المنصور الخضراء.

إن خير من وصف قصر المنصور وقبته الخضراء هو الخطيب البغدادي، حيث روى أنه: "كان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون ذراع، وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه إلى حد عقد القبة عشرون ذراعًا، تصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعًا"، ويضيف أنه كان على رأس القبة الخضراء تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يتجه مع الريح، وكانت ترى من أطراف بغداد.

ويذكر لنا الخطيب أن قبة المنصور بقيت قائمة حتى سقط رأسها، في يوم الثلاثاء لسبع خلون من جماد الآخر سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وكان ليلتئذٍ مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد وكانت هذه القبة تاج بغداد وعلم البلد ومأثرة من مآثر بني العباس، بنيت أول ملكهم وبقيت إلى هذا الوقت "إلى آخر أمر الواثق"[1].

([1]) الخطيب، ج٧٣/١، طبع المكتبة السلفية، الرياض.

ويذكر لنا ابن الفوطي في حوادث سنة **٦٥٣** أن سبب سقوط القبة الخضراء هو الغرق العام الذي خرب مدينة بغداد، حيث كانت تتعرض لفيضانات مستمرة، وبالتأكيد أن تأثير المياه على العمران كان كبيرًا[١].

إن ما يعنينا من هذا الموضوع هو دراسة قبتي زمرد خاتون والسهروردي، وهما "وأمثالهما من القبب المخروطية تكاد تكون خاصة بمشاهد الأئمة والكبراء والكبيرات منذ زمن العباسيين"، وقد انتشرت في العراق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن السابع الهجري، ومما بقي منها في العراق قائمًا حتى الآن ثماني عشرة قبة، وفي الغالب تكون قبة الضريح منفردة، وقد تكون ملحقة بمدرسة أو جامع، وتكون شرفة الضريح على الأكثر ثمانية أضلاع؛ لأن كثرة الأضلاع في الشكل المضلع تعني غالبًا قيام بناء مخروطي، وتأتي بعدها الثرية الرباعية الأضلاع.

والقباب المخروطية أنواع، منها ذات المقرنصات من داخل البناء وخارجه وهو السائد، ويكون هذا المخروط صفوفًا من المقرنصات تستمر حتى نهاية القبة، ويكون الشكل الخارجي مشابهًا للشكل الداخلي، ومن القباب ما تكون مخروطًا من الداخل وهي مضلعة من الخارج، وهذا النوع يكون على شكل قبتين داخلية وخارجية بينهما فراغ، كما في قبة يحيى أبي القاسم في الموصل.

---

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص٧٠٢.

قبة السيدة زمرد خاتون:

تقع قبة السيدة زمرد خاتون في الجانب الغربي من مدينة بغداد (جانب الكرخ)، إلى الجنوب الغربي من ضريح الشيخ معروف الكرخي في وسط المقبرة المعروفة باسمه[1].

يعرف الضريح –عند العامة– باسم (الست زبيدة) ولا زال. وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الضريح، وأغلب الآراء لا تنسبه إلى السيدة زبيدة بنت أبي جعفر المنصور، فقد رأى المرحوم الأستاذ عباس العزاوي في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين، أن الضريح يعود إلى زبيدة بنت هارون الجويني المتوفاة سنة ٧٠٦هـ[2] في حين يذكر لنا الأب انستاس الكرملي أن الضريح تعود نسبته إلى زبيدة خاتون ابنة السلطان بركياروق، زوجة السلطان مسعود ابن السلطان ملكشاه المتوفاة سنة ٥٣٢هـ، ويؤيد هذا الرأي الأستاذ عبد الرزاق الحسني[3].

---

(1) تسمى المقبرة التي دفن فيها الشيخ معروف الكرخي بمقبرة باب الدير، ثم بنيت له ثرية واحترقت عام ٤٥٦هـ، ثم أمر الخليفة القائم بأمر الله بعمارة المكان. د.مصطفى جواد: العمائر الإسلامية العتيقة، سومر م٣، سنة ١٩٤٧.

(2) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ١ ص٤٠٦.

(3) الأب انستاس ماري الكرملي، لغة العرب، مج٦ ص٧٥٥. دائرة المعارف الإسلامية جـ٤ ص١٧ (حاشية).

ويرى السيد محمود شكري الألوسي أنه ربما كان يمثل ثرية لزوجة أو بنت أحد الأمراء أو ملك من الملوك، أي لا صلة له بالسيدة زبيدة زوج هارون الرشيد[1].

أما الدكتور مصطفى جواد فينسب الضريح إلى السيدة زمرد خاتون أم الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ، وهو الرأي الراجح الذي تؤكده الراويات التاريخية[2].

تقوم قبة السيدة زمرد خاتون على قاعدة تتكون من ثمانية أضلاع؛ لأن كثرة الأضلاع في الشكل المضلع تساعد كثيرًا على قيام بناء مخروطي عليها، أي قيام دوائر في البناية متضائلة شيئًا فشيئًا، حتى تنتهي بسماوته أي بنقطة أعلاه[3]، انظر صورة رقم (١).

يتوسط أحد أضلاع القبة مدخل تتقدمه غرفة مربعة تعود إلى فترة متأخرة من العهد العثماني، كما يدل على ذلك طرازها المعماري، حيث سقفت بقباب نجمية الشكل عرفت بالصينية، وهو طراز شائع في بغداد في تلك الفترة[4].

---

(١) محمود شكري الألوسي: تأريخ مساجد بغداد وآثارها، ص١٢٩.

(٢) د.مصطفى جواد: سيدات البلاط العباسي، ص١٨١.

(٣) د.مصطفى جواد: العمائر الإسلامية العتيقة سومر م٣، سنة ١٩٤٧.

(٤) عطا الحديثي وهناء عبد الخالق: القباب المخروطية في العراق، ص٢٩.

تقوم القبة على جدران صلبة ثمانية الأضلاع مبينة بالأجر والجص، أما خارجها فتزينها زخارف أجرية بسيطة محفورة حفرًا قليل الغور، ومكونة من نجوم وبعض الأشكال الهندسية والزخارف النباتية، انظر صورة رقم (٢).

وشكل رقم (١) الذي يمثل نماذج لحشوات زخرفية أجرية.

وفي ظاهر كل وجه من أوجه القاعدة الثمانية بابان معميان وفي صورتها التي صورت قبل سنة ١٨٥٠ أربعة أبواب معماة، اثنان من فوق واثنان من تحت، ولم تحافظ هذه العمارة على شكلها القديم نتيجة الترميمات الحاصلة عليها ولعدة مرات[1].

أما ظاهر القبة فقد غطي بالجص.

تتراوح أطوال أضلاع المثمن ما بين ٢،٧٢م – ٢.٩٣، وهذا الاختلاف في الأطوال متأتٍ من الترميمات العديدة التي أجريت عليها خلال الأزمان. يتوسط الضلع الشمالي الشرقي مدخل القبة الأصلي، وإلى يساره درج البناء قد فتح من صلب الجدار يؤدي إلى سطح البناء.

يبلغ ارتفاع أضلاع الشكل المثمن أي الجدران الحاملة للقبة ٤،٨٠م، وهي قائمة ليس بها أي عيب.

---

(1) د.مصطفى جواد: العمائر الإسلامية العتيقة سومر م٣، سنة ١٩٤٧.

تقوم في أعلى زاوية المثمن مقرنصات معقودة ومركبة لتكون منطقة الانتقال من الشكل المثمن إلى القاعدة الدائرية، وتتكون من ثلاثة صفوف متتالية الواحد فوق الآخر تنتهي بقاعدة نجمية ذات ستة عشر رأسًا. انظر صورة رقم (٣).

هناك اختلاف واضح في مقرنصات منطقة الانتقال عنها في مقرنصات الحناء القبة، وهذا الاختلاف متأتٍ من الغرض المعماري في أحداثها.

فمقرنصات منطقة الانتقال هو تحويل القاعدة المثمنة إلى قاعدة ذات ستة عشر ضلعًا، كما أن التثبيت على قواعد ذات ستة عشر رأسًا تبدأ من ارتفاع ٥.٩م، ففي هذه الحالة يكون ارتفاع منطقة الانتقال ٤.٧٠م.

تكون مقرنصات القبة الدائرية عشرة صفوف متتالية، يحوي كل صف من الصفوف السبعة الأولى ستة عشر مقرنصًا[1]. بينما تحوي الصفوف الثلاثة الأخرى ثمانية مقرنصات لكل منها.

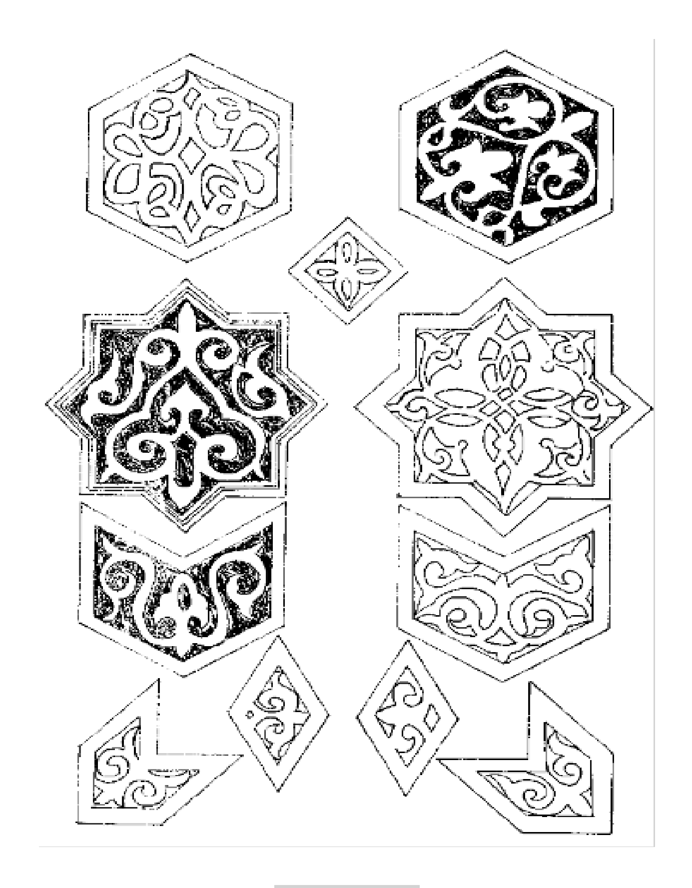
يتم الانتقال من السابع إلى الثامن بعقود صغيرة تجمع رءوس كل مقرنصين متجاورين، ويفصل بين كل ضلعين من صفوف مقرنصات القبة قاعدة نجمية، ذات ستة عشر رأسًا في الصفوف السبعة الأولى، وذات

---

(1) عطا الحديثي وهناء عبد الخالق: القباب المخروطية في العراق.

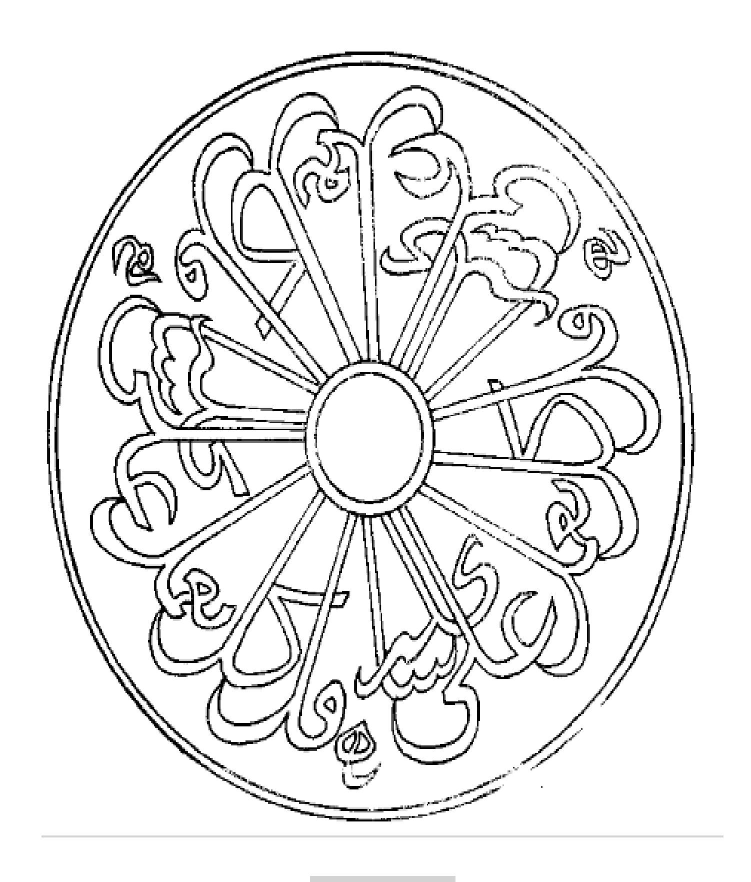
ثمانية رءوس في الصفوف الثلاثة الباقية، حيث ينتهي الصف العاشر بقبة صغيرة نجمية ذات ثمانية رءوس[1].

ومن دراسة العناصر المعمارية والزخرفية للقبة إضافة إلى الروايات الاستطرادية، نستطيع تنسيب تأريخ بنائها إلى القرن السادس الهجري. هذا وإن المرقد يحتوي على خمسة قبور إضافة إلى قبر السيدة زمرد خاتون.

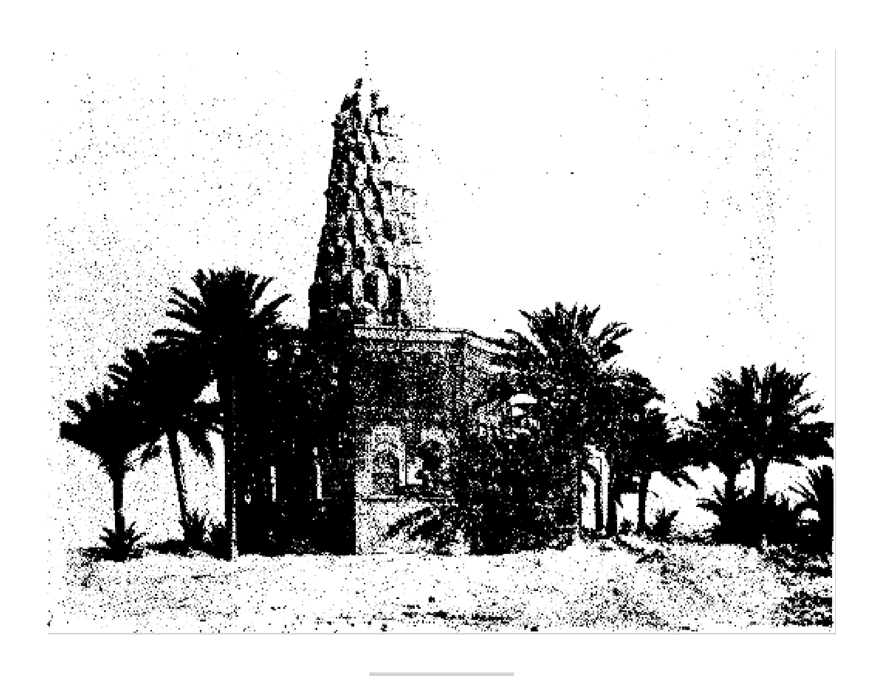


شكل رقم (١)

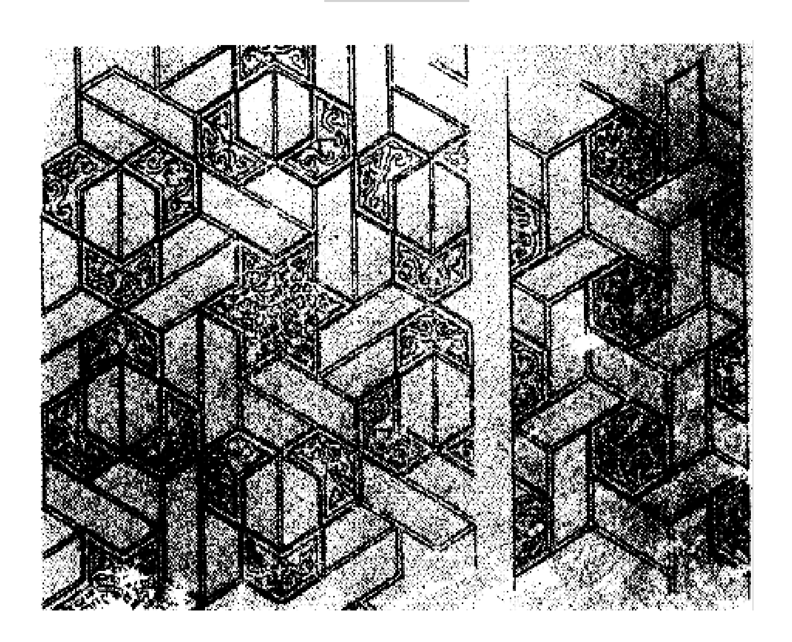
(1) عطا الحديثي وهناء عبد الخالق: القباب المخروطية في العراق.



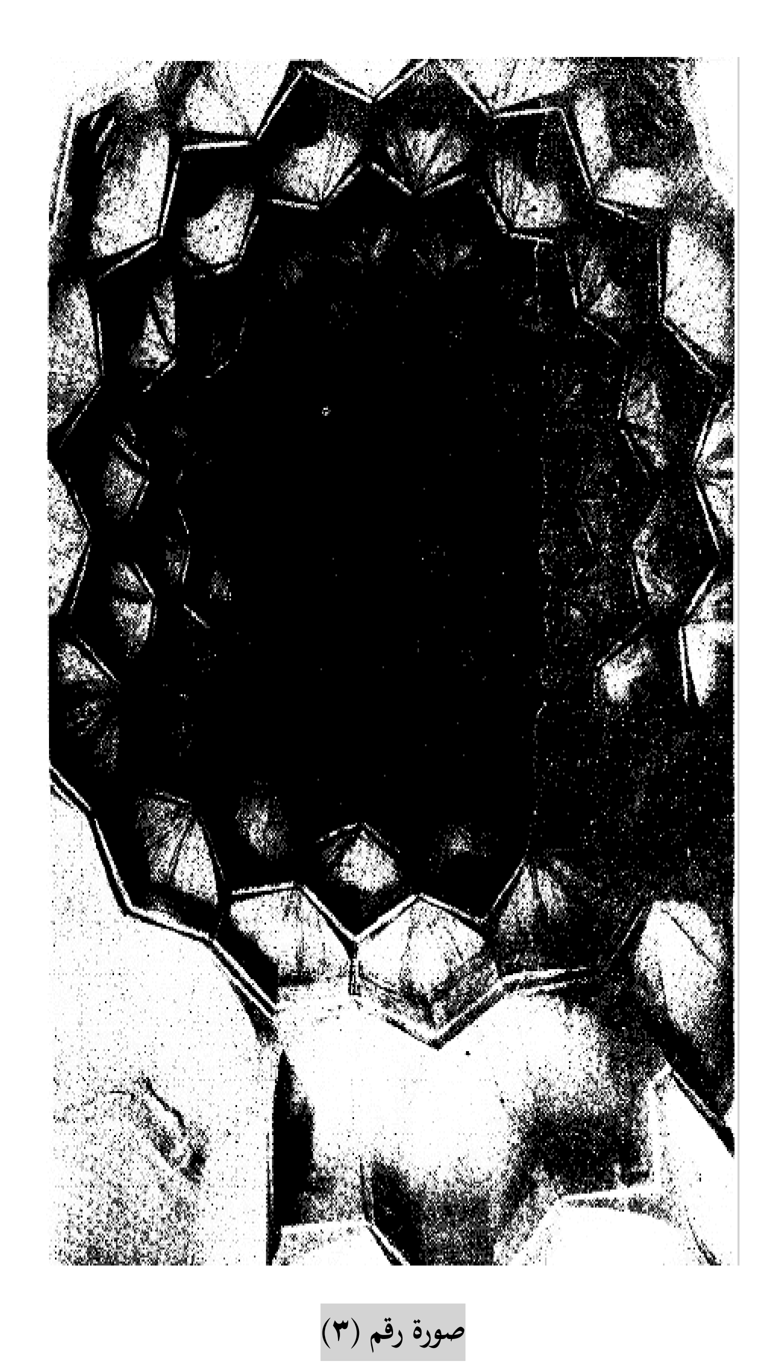
شكل رقم (٢)



صورة رقم (١)



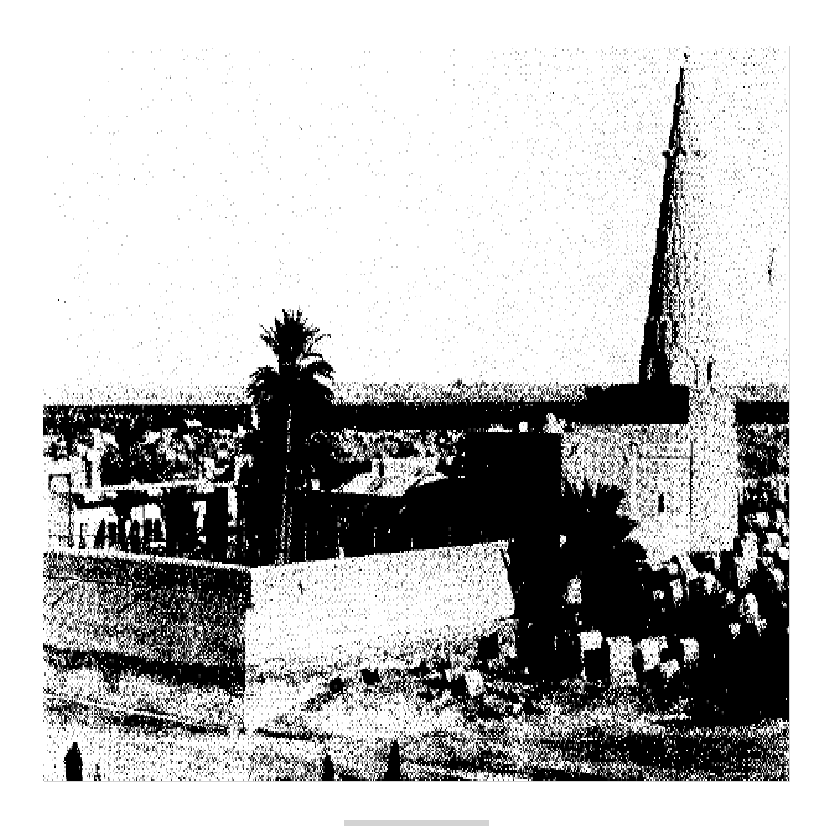
صورة رقم (٢)



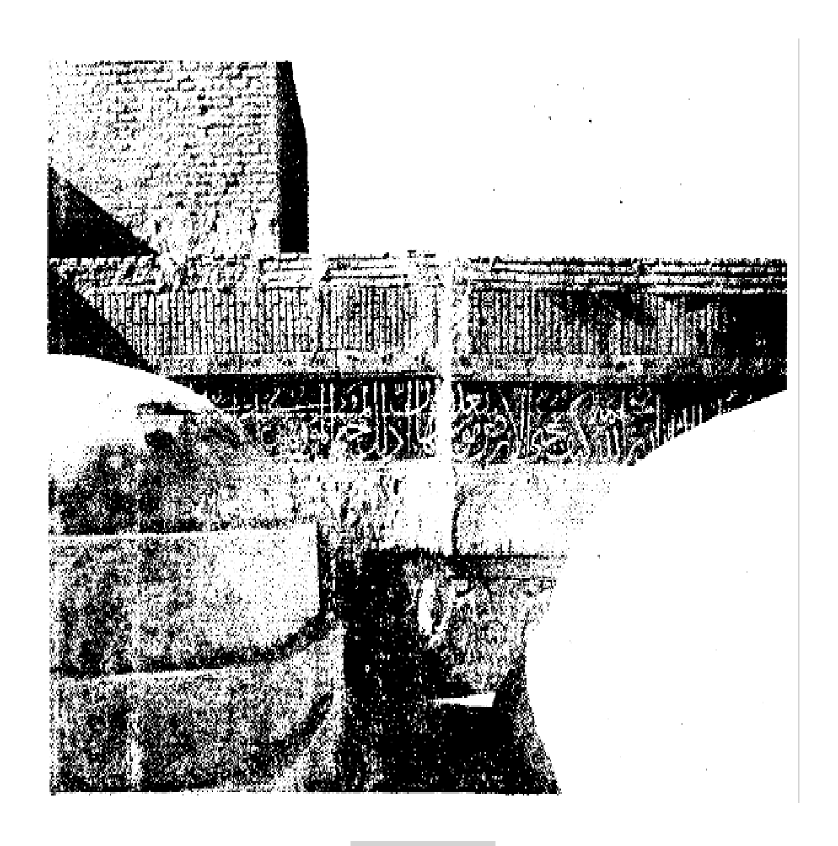
صورة رقم (٣)



صورة رقم (٤)



صورة رقم (٥)



صورة رقم (٦)

قبة ضريح السهروردي

تقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد (الرصافة) بالقرب من الباب الوسطاني، أحد أبواب مدينة بغداد الذي لا يزال قائمًا[1]، وفي المحلة التي تنسب إليه وهو الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي المدفون في المقبرة الوردية[2].

---

(1) الباب الوسطاني: ويسمى قديمًا باب الظفرية وهو أحد أبواب سور الجانب الشرقي الأربعة.

وظل معظم هذا السور قائمًا مع أبوابه إلى عهد قريب، حيث اندثر على عهد الوالي مدحت باشا. ثم زالت أقسامه الباقية منه مع الأبواب بعد ذلك، ولم يبقَ منه غير باب واحد في جهته الشمالية الشرقية، وهو الباب الوسطاني الذي رقمته مديرية الآثار واتخذت منه متحفاً للأسلحة القديمة في سنة ١٩٣٩.

(2) أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه، واسمه عبد الله البكري، الملقب شهاب الدين السهروردي. ويصل نسبه إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، كان خطيبًا شافعي المذهب شيخًا صالحاً ورعًا كبير الاجتهاد في العبادة والرياضة، وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية، وصحب عمه أبا النجيب وعنه أخذ التصوف والوعظ، والشيخ أبا محمد عبد القادر صالح الجيلسي وغيرهما من الشيوخ، وعقد مجلس الوعظ سنين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وتوفي سنة اثنين وثلاثين وستمائة ببغداد ودفن بالوردية.

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣ ص٤٤٦، دار الفكر، بيروت.

في الأصل يتكون البناء من غرفة الضريح، وألحق بها مؤخرًا مسجد يعود تأريخ بنائه إلى سنة ٩١٧هـ، لها مدخلان: الأول، وهو الباب الرئيس من داخل المسجد تعلوه كتابة تحمل تاريخ إصلاح القبة، ونصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، جدد هذه العمارة المباركة الشريفة لضريح الشيخ القدوة الرباني خطب الأولياء والعارفين: شهاب الدين عمر بن مُحَّد السهروردي (روض الله مرقده) مُحَّد بن رشيد (أصلح الله شأنه)، وذلك في شهور سنة خمس وثلاثين وسبعمائة، والحمد لله وحده وصلواته على نبيه مُحَّد وآله). انظر صورة رقم (٤).

والثاني يدخل من مجاز أضيق إلى البناء سنة ٧٣٥هـ.

تقوم القبة على غرفة مربعة الشكل أبعادها ٤.٧٠م ٤.٩٠م، خالية جدرانها من الزخرفة على علو ٦.٥م حيث تزين الجدران دخلات عددها اثنتا عشرة دخلة تلف مع جدران الغرف، تحيط بها أعمدة خمسة من هذه الدخلات، تتوج قسمًا منها عقود مفصصة والآخر عقود مدببة. يعلوها صفان من المقرنصات يقوم فوقها غطاء القبة تزينه كتابة حديثة العهد.انظر الشكل رقم (٢).

ومن الخارج فإن ظاهر القبة مكون من أحد عشر صفًا من فوق المنحني الذي تقوم عليه القبة. فهناك اختلاف في مقرنصات القبة الخارجية عنها في الداخلية. صورة رقم (٥).

فتكون قبة السهروردي مكونة من قبتين: الأولى وجه المخروطية وهي الأصلية، والثانية أضيفت فيما بعد وهي في باطن القبة الأولى وبينهما فراغ.

وفي سطح المسجد وعلى الواجهة الخالية للقبة من الخارج شريط كتابي:

"فَانْظُرْ إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". أمر بتجديد بعد ثورة. صورة رقم (٦).

أما تاريخ بناء القبة استنادًا إلى الرواية التاريخية حيث ذكر د.مصطفى جواد بن أحمد بن عبد الله البغدادي، ذكر في كتاب أصول الأدب والتاريخ م١٦ ص٢٢ عن حوادث سنة ٦٣٢هـ، وفيها توفي الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي، ودفن قريبًا من الباب الوسطاني داخل بغداد، وعقد على قبره إضافة إلى هذا وعلى ضوء الصيانة التي أجرتها دائرة الآثار مؤخرًا، حيث أظهرت لنا زخارف بنائية[١] ملونة وصفوف المقرنصات، فاستنادًا إلى أسلوب رسم الزخارف البنائية وطريقة تصفيف المقرنصات يمكن نسبة بناء القبة إلي سنة ٦٣٢هـ، وهي سنة وفاة الشيخ السهروردي[٢].

---

(١) د.مصطفى جواد: العمارات الإسلامية العتيقة سومر م٣، سنة ٤٧.

(٢) عطا الحديثي وهناء عبد الخالق: القباب المخروطية في العراق.

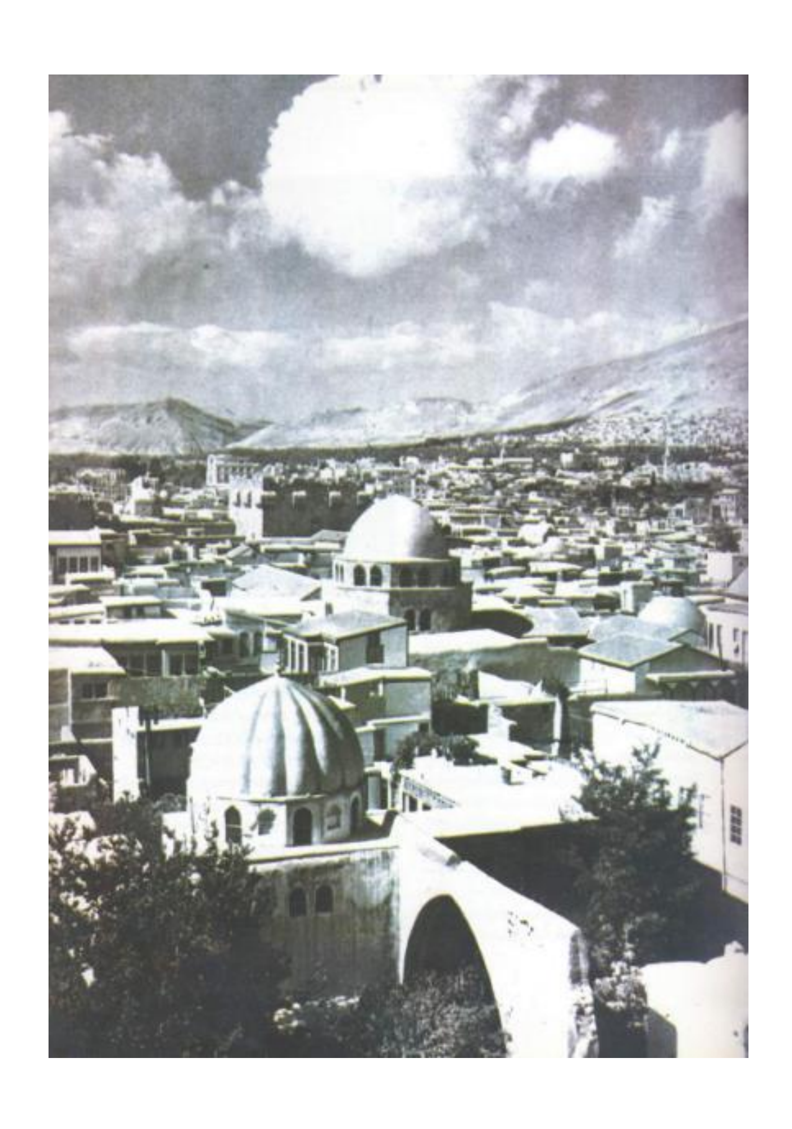
نصب دمشق..القباب والأعمدة التذكارية

د.عفيف البهنسي

أقيمت القباب في العمارة القديمة لتغطية المنشآت عند توفر مادة الطين وندرة الخشب، وكانت عمارة هذه القباب من الطين المجفف أو الطين المشوي بالنار (الآجر) على شكل ألواح ذات قياسات محددة، وتعود هذه القباب إلى عصور التاريخ القديمة، واستمر استعمالها في القرى السورية الشمالية حتى اليوم. ثم استعمل الحجر كما في القباب المعروفة في العصور الرومانية والبيزنطية، واستمر استعمالها في القصور الإسلامية، وكانت قبة الصخرة في القدس، وقبة النسر في الجامع الأموي بدمشق ٧١٥م من أقدم القباب الإسلامية وأكملها، وهي مبنية من الخشب وغطاء ألواح التوتياء.



ساحة المرجة







نصب وزارة الداخلية.

واستمر استعمال القباب في المساجد، ثم تطور استعمالها في المدارس والأضرحة والمزارات، حاملة أشكالًا مختلفة: المهدية والبصلية، والمقرنصة والمخططة، والمزخرفة والمبسطة، مما عرفناه في العصور السلجوقية والمملوكية والعثمانية، وقد أنشئت غالبًا من الحجر.

ومن الوظائف النادرة التي استعملت فيها القباب الوظيفة التذكارية التخليدية، ونحن نعرف منها عددًا محدودًا منتشرًا في بلاد الشام حصرًا، وبخاصة في دمشق.

وهذه القباب هي قبة عين جالوت، وقبة الانتصار على تنكز، وقبة السيار، والقبة الزرقاء، وقبة النصر على سوار.

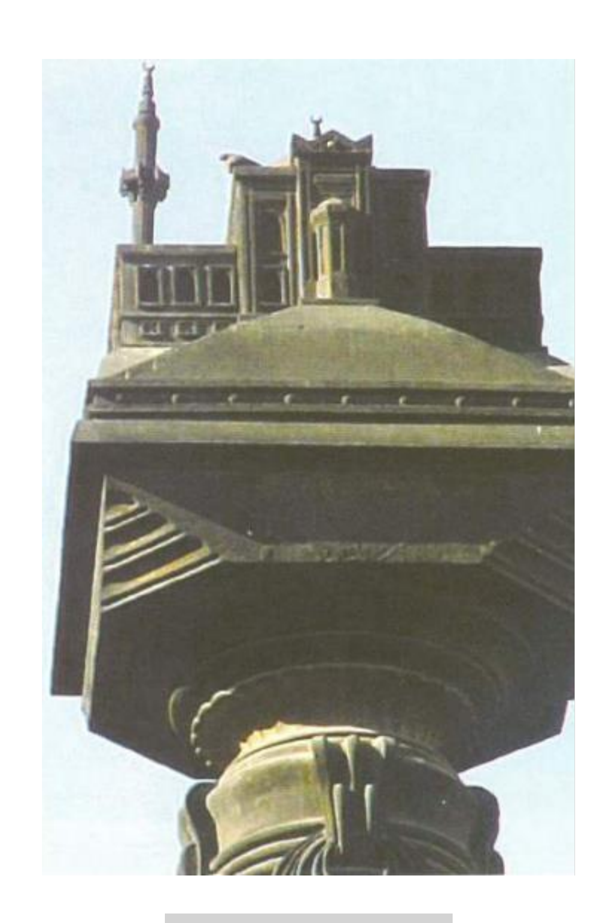
قبة عين جالوت:

ولا بد أن نقف أولًا عند قبة قرية عين جالوت، وعلى أرضها تمت المعركة الفاصلة التي قادها السلطان قطز ضد التتار بقيادة هولاكو وقائده كتبغا، وانتصر عليه فأقيمت قبة تذكارية في هذه القرية، هي الأولى من نوعها في العمارة الإسلامية.

وكان جيش هولاكو قد دخل بلاد الشام واتجه عبر فلسطين إلى مصر، وفيها كان قطز من أبرز قادة الأيوبيين والملكة شجرة الدر، ومملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد أصبح أول سلطان مملوكي بعد وفاة سيده. وكان قطز قد جهز جيشًا عظيمًا لملاقاة جيش هولاكو بقيادة كتبغا، ولما بلغ عين جالوت الواقعة قرب بيسان ونابلس التقى العدو الشرس سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، وانتصر فيها السلطان على التتار.

كان الملك الظاهر بيبرس مساعدًا له ثم أصبح سلطانًا بعد مقتل قطز، وسمي في دمشق أول نائب للمماليك سنجر الحلبي، وكان من أهم منشآت الملك الظاهر بناء القصر الأبلق الذي هدمه تيمورلنك، وقد وصف ابن طولون هذه القصر بالتفصيل، وأقام مكانه السلطان سليمان القانوني التكية السليمانية.





نصب ساحة الشهداء، المرجة

ثم استخدم المماليك دار السعادة من العصر الأيوبي مقرًا لهم، كما أكملوا في قلعة دمشق بناء الطارمة الأيوبية، وهي من أبراج قلعة دمشق الغربية (٦٩١هـ/١٢٩٢م)، كانت مخصصة لجلوس السلطان صلاح الدين وثم الملك الظاهر بيبرس.

القبة الزرقاء:

أنشئت القبة الزرقاء قريبًا من الطارمة. لا ندري السبب في بناء هذه القبة، ولعلها كانت قبة تذكارية سجلت انتصار الملك الظاهر بيبرس على الصليبيين، أو أنها كانت قبة قصر قصور القلعة.

قبة الانتصار على تنكز:

القبة التذكارية الأكثر أهمية هي قبة العصافير، أنشئت هذه القبة بعد مقتل الأمير تنكز، وهو الأمير الكبير العالم العادل تنكز سيف الدين الذي دخل دمشق نائبًا للسلطان المملوكي سنة (٧١٢هـ/١٣٦٠م) واستمر فيها أطول مدة أمضاها نائب في دمشق حتى عام (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، ويعود السبب إلى علاقته بالسلطان الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون فلقد تزوج هذا السلطان بنت تنكز، كما تزوج أولاد تنكز من بنات السلطان.

وكان السلطان يعامله بامتياز ومودة ويصاحبه في دورات الصيد في مصر، وكان شديد الإنعام عليه. ولكن أحد أولاد السلطان –ولعله الملك المنصور أبو بكر، وكان والده الناصر مُحَمَّد مريضًا– سعى إلى قتله، وقد هلك في الإسكندرية بتأثير السم ولم يتجاوز الستين من عمره.

وبهذه المناسبة أقام السلطان قبة تذكارية للنصر على الأمير تنكز، مازالت قائمة على بعد ٤٠ كيلومترًا في طريق حمص بحالة جيدة بعد ترميمها، وتعرف بقبة العصافير، وهي قبة صغيرة تعلو بناءً مربعًا مفتوحًا من جهاته.

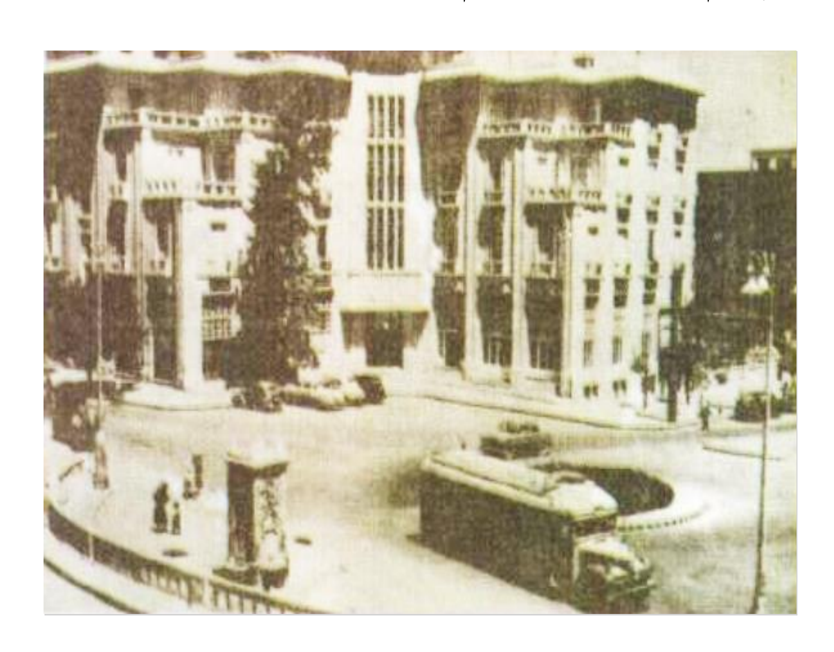


نصب الشهيد الطبيب مسلم البارودي إمام محطة الحجاز

قبة النصر:

القبة التذكارية الأكثر شهرة هي قبة النصر، التي كانت تعلو قمة جبل قاسيون، واسمها قبة النصر على سوار، وسوار هذا كان ابن الأمير سيف الدين دلغادر أو (الغادري)، الذي قتل غدرًا وقام سوار بإعلان

العصيان على الدولة المملوكية لاستلام الإمارة في كيليكيا، حيث كانت تحكم هذه الأسرة. واستمر عصيانه خمس سنين كانت قاسية على المماليك، فقام أمير من القاهرة مع نائب دمشق برقوق بحمله عليه، وتم حصار سوار هذا، وأرسل أسيرًا إلى القاهرة وفيها أعدم سنة (٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م)، وفي هذه السنة شيد نائب دمشق برقوق الظاهري قبة تذكارية على أعلى جبل قاسيون سماها (قبة النصر على سوار). وسقطت هذه القبة سنة (١١٧٣هـ/١٧٥٩م)، بتأثير زلزال كبير وبقي فيها أثر على شكل كرسي، أطلق عليه العوام اسم كرسي الداية، ولقد زال أثر هذه القبة نهائيًا في عام (١٣٦٠هـ/١٩٤١م)، إبان الحرب العالمية الثانية.



موقع النصب في الساحة قبل نقله

قبة السيار:

ثمة قبة هامة مازالت مهيمنة على مشهد مدينة دمشق تعلو الفرع الغربي من جبل قاسيون، تسمى قبة السيار، ونحن نعتقد أن هذا الاسم قد حرّف عاميًا، إذ لا وجود له في قائمة من ولي من النواب في دمشق. وأن الاسم الصحيح هو سنجر، أعني سنجر الشجاعي نائب الشام وهو علم الدين وزير الديار المصرية، والذي دخل دمشق نائبًا من (٦٩٠هـ / ١٢٩١م)، وكان شديد الاهتمام بالعمارة على الرغم من قصر مدة حكمه، فهو الذي أكمل بناء الطارمة في دور السلطانية في قلعة دمشق، كما أنشأ القبة الزرقاء التي جاءت في نهاية الحسن والكمال والارتفاع (كما في كتاب السلوك)، ولعل قبة السيار أو قبة سنجر، كانت تذكارية أقيمت مكان مرصد عسكري.

وفي العصر العثماني أقيمت أعمدة تذكارية عوضًا عن القباب التذكارية، نذكر منها العمود المقابل لبناء السرايا (مقر وزارة الداخلية اليوم)، وعليه كتابة تسجل الاحتفال بمرور خمسة وعشرين سنة على تولي السلطان عبد الحميد الثاني الحكم، وعليه شعار السلطان عل شكل طغراء، ويعلو العمود شكل ما حتى بدا مبتورًا، ولقد أقيم في العام ١٩٠٠م عند بناء السرايا.



موقع النصب الذي أصبح السبع بحرات

والعمود القائم في ساحة الشهداء، وعليه كتابة أيضًا تؤكد صفته كرمز لمد الخط الحديدي الحجازي، والاتصال البرقي بين استنبول والمدينة المنورة مرورًا بدمشق، وثمة عمود مماثل أقيم في حيفا (فلسطين) ولكن بحجم أصغر، وهما من تصميم المعماري الإيطالي دا ارونكو الذي صمم جامع السلطان عبد الحميد في قصر يلدز، وفي أعلى عمود ساحة الشهداء مصغر برونزي عن هذا المسجد.

نصب الشهيد الطبيب مسلم البارودي:

في التقاء الشوارع الثلاثة: شارع النصر شرقًا، وشارع السليمانية شمالًا (سعد الله الجابري)، وشارع المستشفى الوطني إلى الغرب (سمي باسم مسلم البارودي منذ ١٩٤٧)، وأمام محطة القنوات (التسمية الرسمية) أي محطة الحجاز، في هذه الساحة أقيم نصب تذكاري للطبيب (مسلم

البارودي) الذي استشهد إبان العدوان الفرنسي على دمشق سنة ١٩٤٥م وهو يؤدي واجبه الوطني والإنساني، وقد نقل النصب من وسط ساحة الحجاز إلى الرصيف أمام مبنى المحطة، إثر تنظيم المنطقة، وكان في الأصل سبيلًا للمسافرين[١].

نصب ديكار بانتري:

في ساحة السبع بحرات التي أنشئت عام ١٩٢٥، باسم ساحة ديكار بانتري (نسبة للكابتن ديكار بانتري الذي كان قائدًا للهجانة (حراس البادية) ولقي حتفه على يد جنوده أنفسهم حوالي عام ١٩٢١، فأقيم له نصب يحمل اسمه في هذه الساحة، وهو عبارة عن قبة وأربع واجهات ذات أقواس ذات بحرات سبع، صممت جميعها على الطراز الإسلامي لفن العمارة، ثم هدمت كغيرها سنة ١٩٤٦م؛ للتخلص من آثار حقبة الاحتلال الفرنسي لدمشق.

في عام ١٩٤٦م صارت التسمية (ساحة ١٧ نيسان)؛ تخليدًا لذكرى جلاء القوات الأجنبية عن سوريا، ثم تبدلت إلى (التجريدة المغربية) إثر اشتراك القوات المغربية بحرب تشرين التحريرية ضد إسرائيل سنة ١٩٧٣م[٢].

---

(١) قتيبة الشهابي: دمشق تاريخ وصور، وزارة الثقافة ١٩٨٦، ص١٤١، ١٦٩.

(٢) المصدر السابق: ٣٥٥.



نصب ديكار بانتري

جماليات القباب في العمارة الإسلامية

عمرو إسماعيل مُحَمَّد

العمارة الإسلامية هي أحد مظاهر الحضارة التي ميزت التاريخ الإسلامي، ولا تزال هذه العمارة إلى الآن شاهدة على عظمة هذه الحضارة وإنسانيتها، وقد نشأت تلك العمارة بفضل المسلمين وذلك في المناطق التي وصلها كشبه جزيرة العرب والعراق ومصر وبلاد الشام والمغرب العربي وتركيا وإيران وخراسان وبلاد ما وراء النهر والسند بالإضافة إلى المناطق التي حكمها لمدد طويلة مثل الأندلس (إسبانيا حاليا) والهند وغيرها العديد من الأماكن، وتأثرت خصائص العمارة الإسلامية وصفاتها بشكل كبير بالدين الإسلامي والنهضة العلمية التي تبعته، وتختلف من منطقة لأخرى تبعا للطقس وللإرث المعماري والحضاري السابق في المنطقة، حيث ينتشر الصحن المفتوح في الشام والعراق والجزيرة العربية بينما يختفي في تركيا نتيجة للجو البارد، وفي اليمن بسبب الإرث المعماري.. وكذلك نرى تطور الشكل والوظيفة عبر الزمن وبتغير الظروف السياسية والمعيشية والثقافية للسكان.

برز العديد من الفنون في الحضارة الإسلامية، ولعلَّ أكثرها ارتباطاً بالأذهان وبهذه الحضارة العريقة تلك الأنماط المعمارية التي تسلب الألباب، والتي تضفي نوعاً من الروحانية على المكان قلَّ أن يجد الإنسان

له مثيلاً في العالم، وباعتبارها فناً متميزاً له طابعه الذي يعبر عن خصوصيته، فهو ذاك الفن الذي يبعث في النفس هدوءًا وسكينة فترتاح العين لرؤيته، ويأخذ النفس بعيدًا لتسبح في الأجواء الروحية لارتباطه بالعقيدة الإسلامية السمحة.

"فقد فتح المسلمون ممالك شاسعة وانضوت تحت راية الإسلام شعوب متنوعة عُرِفت بالعراقة في المعمار مثل: الفرس والرومان والآشوريين والمصريين، ولكن المعمار في تلك البلاد كان يقوم على عقائدهم الدينية، ويتمثل في التماثيل والصور والمحاريب والأديرة، فكان لابُدَّ للمسلمين من فن معماري خاص بهم يختلف في جوهره ومظهره وأهدافه عن المعمار السابق، وهكذا لم يمض القرن الأول للهجرة حتى كان المسلمون قد شيدوا المساجد والمدارس والقصور، وبنوا البيمارستانات (المستشفيات) والحمامات والخانقاوات والاستراحات، وبنوا القلاع العسكرية والحصون والرباطات والأسوار حول المدن والأبواب، وبنوا القناطر والخزانات والسدود للري، كل ذلك بأسلوب الفن المعماري الإسلامي المتميز، وإذا كان الكثير من تلك المباني الإسلامية قد اندثر بفعل الزمن أو الحروب فإن القليل المتبقي يدل على عظمة هذا الفن (فن العمارة) الجميل.

وقد استطاعت العمارة الإسلامية أن تتنقل وتجوب المدن، حاملة ملامح أصيلة، منسجمة مع متطلبات الإنسان ومع تقاليد بيئته، وتتميز الفنون الإسلامية بأن هناك وحدة عامة تجمعها بحيث يمكن أن تميز أي قطعة أنتجت في ظل الحضارة الإسلامية في أي قطر من أقطار العالم

الإسلامي، ولعل هذا سر من أسرار تفوق الحضارة الإسلامية وقدرتها الفنية على صبغ المنتجات الفنية في جميع الأقطار بصبغة واحدة، ومن عظمة هذه الحضارة وتكاملها أنها لم تغفل عامل الجمال كقيمة مهمَّةٍ في حياة الإنسان؛ فقد تعاملت معه من منطلق أن الإحساس بالجمال والميل نحوه مسألة فطرية متأصِّلة في أعماق النفس الإنسانية السويَّة، تلك التي تحبُّ الجمال وتنجذب إلى كل ما هو جميل، وتنفر من القبح، وتنأى عن كل ما هو قبيح.

ولا ريب في أن الإبداع الجمالي يُشكِّل بُعْدًا أساسيًّا في الحضارة الإنسانية، فالحضارة التي تخلو من عنصر الجمال، وتنتفي فيها وسائل التعبير عنه، هي حضارة لا تتجاوب مع مشاعر الإنسان، ولا تُشبع رغباته النفسية، والمشتاقة دائمًا إلى كل ما هو جميل، ومن ثَمَّ نستعرض بعض مظاهر الجمال في الحضارة الإسلامية، تلك التي شَكَّلَتِ الإطار العامَّ الذي تَكَوَّنَتْ فيه هذه الحضارة، فصبغتها بالكمال والجلال والصبغة الإنسانية.

لقد برع المسلمون في تشييد وبناء القباب الضخمة وأدخلت كعنصر من عناصر العمارة، ونجحوا في حساباتها المعقدة، التي تقوم علي طرق تحليل الإنشاءات القشرية (SHELLS)، وهذه الإنشاءات المعقدة والمتطوِّرة من القباب مثل: قبة الصخرة في بيت المقدس، وقباب مساجد الأستانة والقاهرة والأندلس- تعتمد اعتمادًا كُلِّيًّا على الرياضيات المعَقَّدَة، وكانت هذه القباب تعطي شكلاً جماليًّا رائعًا للمساجد، ويكفي أن تنظر

إلى مسجد السلطان أحمد في إستانبول كمثال لهذا الجمال حتى تدرك عظمة الحضارة الإسلامية.

إن روعة العمارة تعبر عن روعة الحضارة التي أنشأتها، وذلك قانون تاريخي كما يقول ابن خلدون: "إن الدولة والمُلْكَ للعمران بمنزلة الصورة للمادَّة، وهو الشكل الحافظ لوجودها، وانفكاك أحدهما عن الآخر غير ممكن على ما قُرِّرَ في الحكمة؛ فالدولة دون العمران لا يمكن تصوُّرها، والعمران دونها مُتَعَذِّرٌ، فاختلال أحدهما يَسْتَلْزِم اختلال الآخر، كما أن عدم أحدهما يُؤَثِّرُ في عدم الآخر" .

فقد أبدع المسلمون في تشييد القباب والأعمدة والمقرنصات التي هي عبارة عن الأجزاء التي تتدلى من السقف، فضلاً عن المشربيات التي لم يزل لها حضور طاغ في العديد من المساجد والبيوت التي اتخذت أشكالاً تراثية بحتة، ويلفت إلى أن قبة الصخرة في بيت المقدس وقباب مساجد الأستانة، والأندلس، والقاهرة، كلها كانت نماذج حية على روعة العمارة الإسلامية، التي هي شاهد حقيقي على الإبداع الإسلامي على مر العصور.

ومن خلال هذا البحث نسعى للتأكيد على جماليات هذا الفن من العمارة الإسلامية، وبراعة المعمارى المسلم في توظيفها داخل البنايات من مساجد وقصور وأضرحة وغيرها، مما أضفي الكثير من الجمال خاصة بعد أن استخدم المقرنصات والزخرفة الموجودة بوفرة في البيئة، وهذا ما نجده

واضحاً في الأبنية والقصور والمساجد التي أنشاها المعمارى المسلم، فمن غير المنتظر أن يتخذ نشاط البناء والإنشاء المعماري فيها طرازاً واحداً ذا اهمية واحدة متميزة بخصائص واضحة تتصل بالمواد المستعملة والطرق الفنية التي لجأ إليها المعماريون في علاج المشكلات المعمارية..

فالفرد يكتشف نتيجة استعراض بعض الخصائص الكامنة في المادة الخام، ومن ثم يعين ما يحتمل تحقيقه، كما يعين تصور بدائل المحتملات المستندة على هذه الخصائص الكامنة عن طريق الإبداع والابتكار، وقد كثر الحديث عن الفنون الاسلامية بشتى أنواعها: زخرفة، خزف، عمارة.. الخ. وعصورها المختلفة: أموي، عباسي، فاطمي.. الخ. وهذا يرجع إلى أنه لم يكن مجرد فن، ولكنه نوع من العيش بالطريقة التي تخدم وتحترم عقيدة المسلم وأخلاقه حتى في الفن، مما دعانا الى توضيح ودراسة جماليات القباب في العمارة الإسلامية من نشأتها وحتى العصر الحديث

القبة أو القباب ـ لغة واصطلاحا:

لغة: مفرد قباب، وهى بناء مستدير، أو خيمة صغيرة أعلاها مستدير، كما في اللسان.

واصطلاحاً: عنصر إنشائى كروي يغطي مساحة معينة من المبنى ليزيد من ارتفاع فراغها الداخلي.

والقبة dome عنصر معماري كروي الشكل، أو قطّاع من كرة، يهدف إلى حلّ إنشائي لتغطية الفراغات الكبيرة عن طريق تحويل الحمولات الأفقية إلى حمولات شاقولية، وذلك بأقل سماكة ممكنة، ومن دون الحاجة إلى ركائز استنادية داخل الفراغ المغطى.

وقيل: القبة عبارة عن نصف كرة مجوفة تقف على أعمدة أو جدران ومصنوعة من مواد مختلفة، هي نوع من الأقبية التي تستخدم للتسقيف وهي بأبسط أشكالها عبارة عن نصف كرة مجوفة تقف على أعمدة أو جدران ومصنوعة من مواد مختلفة. وتعتبر القبة عنصرا من عناصر العمارة الإسلامية، كما تستعمل كلمة قبة للدلالة على بناية جنائزية مربعة ومغطاة بقبة.

وتعد القبة من العناصر المعمارية المهمة في بناء المساجد والأضرحة والمشاهد، وهي تخلق نوعاً من التضاد المتوازن مع المئذنة، وتتنوع القباب في أشكالها وزخارفها ما بين مضلعة أو على شكل زجزاج، وقد وصلت زخارف القباب إلى الذروة باستخدام نقوش الأرابيسك، وتعد قبة مسجد "جانم البهلوان" من أمراء المماليك بشارع السروجية بالقاهرة أروع قبة استخدمت فيها نقوش الأرابيسك في العالم الإسلامي؛ فهي تحدو المتأمل في زخارفها في رحلة في التيه الحميم حيث لا بداية ومهما دقق النظر فلن يصل إلى نهاية.



(شكل ١) مسجد جانم البهلوان

القبة نوع من الأقبية التي تستخدم للتسقيف وهي بأبسط أشكالها عبارة عن نصف كرة مجوفة تقف على أعمدة أو جدران ومصنوعة من مواد مختلفة. وتعتبر القبة عنصراً من عناصر العمارة الإسلامية، والقباب هي إنشاءات هندسية معمارية مقوسة (منحنية الشكل) ليس لها نهايات زاوية أو زوايا هندسية، وهي تغلف مساحات كبيرة دون الحاجة لوجود أعمدة داعمة، وعلى الرغم من سماكاتها القليلة إلا أنها تعتبر من الإنشاءات الأقوى والأثبت في إنشاءاتنا العصرية.



(شكل ٢) مسجد بن طولون

والقبة في العمارة الإسلامية تحمل دلالة روحية تضاف إلى مفهومها المعماري الجمالي، خاصة في المساجد، فهي من الخارج نصف كرة يتجه إلى الأسفل، ومن الداخل تجويف نصف كروي يحلق فوق رؤوس المصلين.

نشأة القبة

وقد ظهرت القبة في المباني قبل ظهور الإسلام وبعده، كما ظهرت في عمارة المسلمين وفي عمارة غير المسلمين، وهي ليست بالضرورة عنصرا مميزا في العمارة الإسلامية على الرغم من انتشارها في تراث هذه العمارة، وقد اشتهرت العمارة البيزنطية باستعمال القباب في تغطية مساحات كبيرة من المباني ثم انتقل استعمالها إلى العمارة الإسلامية في تركيا والعراق ومصر والشام.

قبل وجود القبب، كانت هناك الأبنية المستطيلة المدعومة بالأعمدة، فمعظم الأبنية والإنشاءات القديمة كالمعابد كانت تقوم على سقوف مدعومة بغابات من الأعمدة، وتتميز الأعمدة بالقدرة الكبيرة على دعم الأسقف وحمايتها من الانهيار إلا أن الحاجة إلى العدد الكبير منها يخلف مساحات حرة قليلة مقارنة بما تسمح به القبب.

قام البناؤون الرومان بتدوير أقواس حجرية حول مركز دائري فاكتشفوا أن الشكل الناتج وهو القبة أن الشكل الثلاثي الأبعاد الناتج يتمتع بقوة كبيرة، وبعدها بدأت الكنائس والمساجد تغطى مع الوقت بالقبب التي خلقت المساحات الواسعة، كانت القبب الحجرية والأعمدة الداعمة قديماً تعاني من الأوزان الكبيرة، لذلك لجأ المهندسون وقتها الى الأشكال المعقدة، التي تدعى بالصناديق coffers على طول الجدران للتخفيف من الأوزان في الأبنية الضخمة، كما عمدوا إلى ترك فتحات في ذروة القبب تدعى أوكالاس oculus، والتي في نفس الوقت تؤمن الإنارة اليومية في الهياكل والمعابد الضخمة.

ظهرت القباب في المباني عمومًا أول الأمر في آسيا، ثم انتقلت إلى الفرس واليونان فالرومان قبل أن يتلقاها المسلمون، ولا يخلو طراز من طرز الفنون الإنسانية الكبرى من القباب إلا الطراز المصري القديم.

عرفت القباب بشكلها البدائي قبل الإسلام فكانت إما صغيرة وتتكون من قطعة واحدة أو مبنية بعدة طبقات مركبة، أما بعد الإسلام

فبدأ استخدام القبب الحقيقية ذات الهيكل الداخلي المتصل والموحد. وأول القباب في المنطقة العربية كانت مبنية بالطوب في منطقة الجزيرة الفراتية في شرق سورية وشمال العراق وذلك في الألفية الرابعة قبل الميلاد (القرن الأربعين قبل الميلاد)، قبل الحضارة السومرية. وكانت تستخدم لتسقيف الأكواخ الطينية والمخازن والقبور. بعد ذلك تطور استخدام القباب بتطور مواد البناء حين شاع استخدام الطابوق والحجر على أيدي الأمم التي توالت على المنطقة.

وظلت المعرفة بالقبب في تلك المنطقة حتى انتقلت إلى الإغريق، وأول ما استخدمه الإغريق كان في المقابر على شكل قباب منحدرة مدببة، كونها كانت جديدة على بيئتهم البنائية التي استغنت عنها بخامة الحجر، وذلك باستعمال أسلوب الأطر الحجرية (عمود– جسر) الذي برع به الكنعانيون والمصريون. وفيما عدا ذلك لم تحظى القباب بأهمية كبرى في العمارة اليونانية القديمة، ولم تتطور لديهم، حتى جاء الرومان.

ويذكر أن الرومان تعلموا استخدام القباب من المعماريون الشاميين الذين اشتهروا بقطع الأحجار ونحتها وبناءها بشكل محكم فاستخدموها وطوروها ثم أضافوا موادا جديدة للبناء (مادة تشبه الخرسانة)، ونجد اليوم أقدم ذكر لتلك الموائمة في القبة الخشبية الموجودة في كنيسة القديس سمعان التي يعود إنشاؤها إلى عام ٥٠٠ م، ومن أشهر الطرازات في استخدام القبب قبل الإسلام استخدام المناذرة لثلاث قباب في أبنيتهم مثل قصر الخورنق.

عرفت القبة في عمارة المسجد تحديداً في عهد الدولة الأموية، إذ لم يكن ذات المعرفة في عهد الرسول (ﷺ) وفي أيام الخلافة الراشدة، وفي جميع الحقب التي تبعتها كانت القبة رمزاً وعنصراً أساسياً في عمارة المسجد، وقد برع المسلمون في الإنشاءات المعقدة والمتطوِّرة التي تعتمد على تحليل الإنشاءات الخارجية وعلى الرياضيات المعقدة ومن الأمثلة عليها: قبة الصخرة في بيت المقدس، وقباب مساجد.



(شكل ٣) قبة الصخرة

أخذ الفن الإسلامي في بناء القباب عن الساسانيين والأقباط والبيزنطيين، وأقبلوا على استعمالها في الأضرحة حتى أطلقت جزءًا على الكل وصارت كلمة قبة اسماً للضريح كله، وقد انتشرت في العالم الإسلامي

أنواع مختلفة من القباب، ولعل أجمل القباب الإسلامية هي الموجودة في مصر وسوريا ويرجع أقدمها إلى العصر الفاطمي.

وقد كانت القباب في العهد الأول حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي صغيرة، واقتصر استعمالها لتغطية الأمكنة أمام المحراب، ثم انتشر استعمالها للأضرحة، واستعين في أول الأمر لهذا بعمل عقود زاوية لتيسير الانتقال من المربع إلى المثمن، ولما أن تعددت مثل هذه العقود وصغرت ونظمت في صفوف، نشأت الدلايات المقرنصة التي انتشر استعمالها في جميع القباب في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ولكن عند بناء قبة الصخرة عام ٦٩٢ م، وهي من أوائل القبب الإسلامية بنيت بالنظام الإسلامي البحت المتطور.

وهكذا فان القبة تحولت من تغطية للحجرات المدورة في العراق القديم بسبب سهولة الانتقال من الدائرة للدائرة، لكنها خلقت إشكالا حينما وظفت في المسقط المربع للحجرات، واقتضت إيجاد حلول للانتقال من زوايا المربع إلى المثمن والذي شكل رقبة (طنبور) القبة تباعا، فجيء بحلين أحدهما شامي بالمثلثات الكروية والثاني عراقي بالمقرنصات البدائية، تبعا لما تسمح به خامة البناء (الحجر أو الطابوق) والتي نسبت كعادتها لتسميات (بيزنطية وساسانية).

عندما بنى رسول الله ﷺ مسجده في المدينة المنورة، كان سقفه من السعف المحمول على جذوع النخيل، وظل الحال على ذلك فيما بني من مساجد ولم تكن القبة قد دخلت بناء المساجد.

أما أول قبة بنيت في عصر الإسلام فهي قبة مسجد الصخرة المشرفة في القدس التي بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام ٧٢ هجرية. وتسنى للمسلمون أن ينقلوا أعرافها إلى المغرب العربي والأندلس، ونجد اليوم مثلا جميلا لمدينة وادي سوف (ولاية الوادي) في شرق الجزائر التي تشكل القباب العنصر الأساس في تسقيف حجراتها. وما زال القوم يطلقون في المشرق وبعض المغرب على الحجرة أو الغرفة اسم قبة.



(شكل ٤)   القباب فى ولاية سوف – الجزائر

تعتبر القبة من أهم وسائل التغطية التي استخدمت في العصور المختلفة، خاصة في تغطية المساحات المربعة، وقد تناول العديد من الدارسين للعمارة الإسلامية نشأة القبة وتطورها في مصر والعالم الإسلامي. ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أهمية استخدام القبة كوسيلة للتغطية في الأضرحة الإسلامية كميزة معمارية فريدة خاصة، وأن قبة الصليبة تعتبر أقدم ضريح في الإسلام استخدمت فيه القبة كوسيلة للتغطية، أما استخدامها في مصر في هذا النوع من العمائر فقد وجد في القباب السبع بالقرافة الكبرى، كما أنها استخدمت في مقابر أسوان (جنوب مصر) على نطاق واسع وذلك في الفترة الفاطمية، ولم يقتصر استخدام القبة في العصر الفاطمي على تغطية الأضرحة، وإنما تعداه إلى تغطية أروقة المساجد، كما هو الحال في الجامع الأزهر ومسجد الحاكم، واستمر استخدامها في العصر الأيوبي، فوجدت تغطي المساحة التي بها قبر الإمام الشافعي، وكذلك قبة الصالح نجم الدين أيوب.

وصارت القبة في العصر المملوكي في مدارج الرقي والتطور، وتبعت في تطورها تخطيط المساجد والمساحات التي تغطيها، إذ أصبحت أكبر حجماً عن ذي قبل، كما استخدم في تشييدها مواد مختلفة، لا سيما الخشب، كما هو الحال في مسجد بيبرس البندقداري بالظاهر ٦٦٦هـ/١٢٦٩م والناصر مُحَّد بالقلعة، وأصبح تشييد القبة ملاصقاً لبناء المسجد، حتى كان يطلق على هذه المنشآت اسم: المجمعات الدينية.



(شكل ٥) قباب الأضرحة

وظاهرة إدماج القبة الضريحية بالمنشآت الدينية هي ظاهرة محلية أيضاً ظهرت بمصر منذ العصر الأيوبي، إذ نلحظها في مجموعة المدارس الصالحية، حيث ألحقت شجرة الدر بالمدرسة الصالحية قبة لدفن زوجها الصالح، ومنذ هذا العصر والمعماريون يدمجون قباب السلاطين والأمراء ضمن منشآتهم، كما في قبة المنصور قلاوون، وقبة سنجر وسلار التي استخدم فيها الحجر لأول مرة في تشييد القباب ٧٠٣هـ، واستمر الحال بعد ذلك طيلة العصر المملوكي، وفي العصر العثماني بدأ يظهر التأثر بمثل هذه الظاهرة المحلية، فنجد أن مسجد المحمودية قد ألحقت به قبة للدفن خلف جدار المحراب مباشرة تأثراً بمدرسة السلطان حسن التي لا تبعد كثيراً عنها.

وقد تفنن المعماريون المسلمون في بناء القباب بأشكال هندسية تلفت الانتباه، وتعبر عن روح فنية مرهفة، فهناك القباب المستديرة والمضلعة والمؤلفة من دور واحد أو دورين أو أكثر، وهناك القباب ذات الزخارف الدقيقة والأخرى المغطاة بصفائح الذهب أو الرصاص، وبلغ بناء القباب وزخرفتها قمة إبداعه في عهود الفاطميين والمماليك في مصر ولا يزال معظمها باقياً إلى يومنا هذا..

كما اعتبرت القباب أسلوبا مميزا في العمارة العثمانية التي اتسمت ببناء قبة كبيرة في المسجد الواحد، ومعها قباب صغيرة كثيرة، وهو ما نراه بوضوح في معظم المساجد العثمانية الكبيرة داخل تركيا وخارجها، وبشكل خاص في القطاع العثماني من عمارة المسجد الحرام المبارك في مكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة، ثم توالت القباب في المساجد حتى ندر أن نرى مسجدًا له مئذنة دون قبة، بل إن القباب قد زادت على المآذن من حيث استخدامها في غير المساجد كالقصور والأضرحة وغيرها.

كما استخدمت القبة خلال العصور الإسلامية في المباني السكنية على هيئة فسقيات بوسط البيوت، وفي المباني الخدمية وجدت لتغطي حجرات الحمامات، وبها فتحات مصنوعة من الجص المعشق بالزجاج الملون وتسمى خشخاشية، حتى يدخل الضوء لرواد الحمام من خلالها ولا يراهم من بالخارج، وقباب الحمامات مازالت موجودة إلى الآن في حمام السكرية وحمام الملاطيلي.



(شكل ٦) جامع السلطان أحمد – تركيا

الغاية من القبة

يُعد بناء القبة المرحلة الأهم في مراحل تطور الفن المعماري عبر التاريخ، حيث توصلت العمارة بوساطتها إلى تصميم وتنفيذ الفراغات العامة الكبيرة الخالية من الأعمدة أو الركائز التي كانت تتطلبها التغطيات المستوية، وأصبحت القباب إحدى العناصر المعمارية المهمة التي يسعى إليها المعماريون والإنشائيون لإبراز قدراتهم وإبداعاتهم الفنية والجمالية والهندسية.

ولا شك أن القباب قامت بأكثر من دور وأعطت أكثر من فائدة للمسجد؛ فإضافة إلى الدور الجمالي في كسر جمود المبنى الكبير في بيت الصلاة وتخفيف حدة الكتل الضخمة الصامتة، فللقبة فوق ذلك دور مهم

في إيصال الإنارة إلى قلب بيت الصلاة عن طريق الشمس المتغلغلة من النوافذ الكثيرة المحيطة برقبة القبة، حتى قيل: إن نوافذ قباب بعض المساجد صممت لتدخل الشمس كل يوم من طاقة في القبة حسب مطالع شروقها أو غروبها على مدار السنة، وبذلك كان قلب المساجد مضاءً دائمًا متسمًا، بالوضوح عكس معابد الأديان الأخرى.

ومع الإنارة يأتي دور التهوية، فعندما تغطي القبة بيت الصلاة بالمسجد تسحب الهواء الساخن الذي يرتفع إلى أعلى، فيخرج من النوافذ المطلة على الناحية المشمسة، أما النوافذ التي في الناحية الظليلة، فيدخل منها الهواء الرطب البارد مما يفسح المجال أمام التيارات الهوائية الصحية الصافية للتردد على جنبات المسجد طاردة الهواء الفاسد إلى الخارج، بل إن التحكم بالتهوية والاستفادة من حركة الهواء من خلال نوافذ القباب أوجد الحلول لبعض المشاكل الناتجة عن دخان قناديل الإنارة الليلية في المساجد قديما، فقد استحدث المعماري التركي الشهر سنان في مسجد السليمانية بإستانبول فتحات صغيرة تحت القبة في اتجاهات متنوعة ليضمن تيارًا صاعدًا يجذب وراءه الدخان المتصاعد من لمبات الزيت المستخدمة بكثرة للإضاءة، وبذلك حلت مشكلة تراكم (السخام) على النقوش العليا، بل واستفيد من تجميعه عبر الفتحات في صناعة الحبر.

وقد استحدث المعماري التركي «سنان» في مسجد السليمانية بإسطنبول فتحات صغيرة تحت القبة في اتجاهات مختلفة لتُحدث تياراً صاعداً يسحب الدخان المتصاعد من قناديل الزيت المستخدمة في

الإضاءة الداخلية، كما أن القبة تساعد على تجسيم الصوت في بيت الصلاة، ويتضح ذلك جلياً في مسجد طوبي بكراتشي. وكثيرا ما يزعم أن مسجد طوبى أكبر مسجد في العالم يحوي أكبر قبة، المسجد مكان جذب سياحي رئيسي في مدينة كراتشي، تم بناء مسجد طوبي من الرخام الأبيض النقي، قطر القبة ٧٢ مترا بنتية بشكل متوازن على الجدار المقابل مع عدم وجود عدد من الأعمدة المركزية، والمسجد بمئذنة واحدة يبلغ طولها ٧٠ مترا .



(شكل ٧) مسجد السليمانية – إسطنبول



(تابع شكل ٧) مسجد طوبى – كراتشى

وقد ظهرت آثار التأثر بعمارة القباب الإسلامية بوضوح في العمارة الأوروبية، ففي إيطاليا، نجد الأقواس التي تصل جوانب قبة مونت سانت إنجلو، وفي قصر روفولو في رافيللو الذي بني في القرن الحادي عشر، ومازال يدل بتفاصيله المعمارية على أصوله الإسلامية، وبرج قبة سيوليتو التي تشبه إلى حد كبير مئذنة سنجر الجاولي في القاهرة.



(شكل ٨) كاتدرائية فلورنسا – إيطاليا



(تابع شكل ٨) مسجد سنجر الجاولى

ولا يفوتنا أن ننوه إلى دور القبة في تضخيم الصوت في بيت الصلاة، حتى إن بعض المساجد إذا وقفت في وسطها تحت القبة، وتكلمت بصوت عادي سُمع صوتك بوضوح في جميع أرجاء بيت الصلاة على سعته، وهذا ما لاحظه المهندسون في مساجد عديدة شهيرة، منها مسجد طوبى بكراتشي، الذي تتجلي فيه هذه الظاهرة بوضوح لكون سطحه كله قبة واحدة.

ومهمايكن من أمر، فإن ظهور هذا النوع وغيره من الابتكارات وتوافق الأفكار التى مرت بنا من قبل والتى سنرى تفصيلا لها فيما بعد لدليل قاطع على وحدة فى التفكير وعلى التقارب الكبير بين الأحاسيس الفنية والحضارية بطبيعة الحال لدى المعماريين المسلمين .

كما استخدمت القباب لأسباب وظيفية وجمالية ورمزية وانشائية ولم يقتصر وجودها في المسجد بل في كل الانماط الوظيفية في العمارة الإسلامية، وأقدم وأول قبة في العالم الإسلامي هي قبة الصخرة في القدس.

لقد تعدد وجود القباب في المساجد أو في انماط الأبنية الغسلامية المختلفة، كما تنوعت في طريقة بناءها وانهائها حيث استخدم فيها الحجر والاجر وحتى الطين المجفف والخشب فاستخدمت المواد حسب البيئة والمكان الموجود فيه وكانت تزخرف ايضا بالحجر أو الفسيفساء وتنوعت في أشكالها وطرزها حيث أخذت في البداية شكل نصف كروي وبتطورها أخذت اشكال مختلفة هندسية أخرى مشتقة من الاشكال المختلفة للاقواس فقد تكون مدببة او بصلية او مثمنة او ذات قطع مكافئ ومع تطور بناء القباب استخدمت عدة أساليب انشائية للانتقال من المسقط المربع إلى شكل القاعدة الدائري الذي يحمل القبة حيث تم ابتكار المحاريب الركنية (الحنائية) عند الركن وتمت قرنصتها وبتطورها ظهرت القباب المخروطة ذات المقرنصات وهي أروع ماابتكره العرب المسلمون في هذا الحقل حيث اعتمدت في بناءها بالدرجة الأولى على المقرنصات والحنايا صعودا إلى الأعلى وقد تنوعت في عدة طبقات مقرنصاتها ومظهرها في الداخل والخارج.

أسباب تعدد وجود القباب في الأبنية الإسلامية:

انشائية: لتسقيف الفضاء فالمادة المستخدمة غالبا كانت الحجر والاجر فبالتالي تغطي بحور صغيرة وجدران سميكة اوذات اعمدة كثيرة

فكانت القباب لمعالجات انشائية للتسقيف والحصول على فضاءات كبيرة نسبيا تعطي شعور بالراحة والانفتاح.

جمالية تكوينية.

رمزية: حيث ارتبط وجودها بالغالب بالابنية الدينية من جوامع واضرحة لتأكيد المعنى الرمزي المرتبط بقدسية المكان والفعالية التي تتم تحتها.

وظيفية: جزء منها معالجة الصوت.

بيئية مناخية: فالشكل الكروي لها يقلل من شدة الاشعاع الشمس الساقط على وحدة المساحة بالتالي انخفاض في معدل درجة حرارة السطح كما ان تعرض جزء من سطحها للاشعاع الشمسي ووقوع الجزء الباقي في الظل ساعدنا في خلق تيارات هوائية بفعل اختلاف الضغط الحراري كما تساعد الفتحات الموجودة في اسفل واعلى القبة على تهوية الفضاء.

وصف القبة

القبة يمكن اعتبارها قوس متكرر وملتف حول وسطه، فالقبة لها قدرة كبيرة على تحمل الأحمال الإنشائية ويمكن مدها على مساحة واسعة، في حالة كون القاعدة التي ترتكز عليها القبة مدورة تنتقل الأحمال إلى القاعدة مباشرة. إذا كانت القاعدة مربعة، يجب أن تنشر الأحمال باستخدام وسائل إنشائية مثل المقرنصات وغيرها.



(شكل ٩) القبة وقد استخدمت فيها المقرنصات

نادرا ما تكون القبة كروية تماما، فأشكال القباب تختلف حسب مواد البناء المستخدمة، التكنولوجيا المتوفرة، الطرز المعمارية السائدة وغيرها من المؤثرات، فهناك القباب المستديرة والمضلعة والمؤلفة من دور واحد أو دورين أو أكثر، وهناك القباب ذات الزخارف الدقيقة، والأخرى المغطاة بصفائح الذهب أو الرصاص.

نقطة البداية في عمل القبة هي ابتكار العقد أو القوس، وأصل ذلك من ابتكار آسيوي، ولكنه تطور على أيدي الفرس والرومان تطورًا واسعًا، ثم جاء المسلمون فساروا بالعقود مدى أبعد وأكثر تنوعا

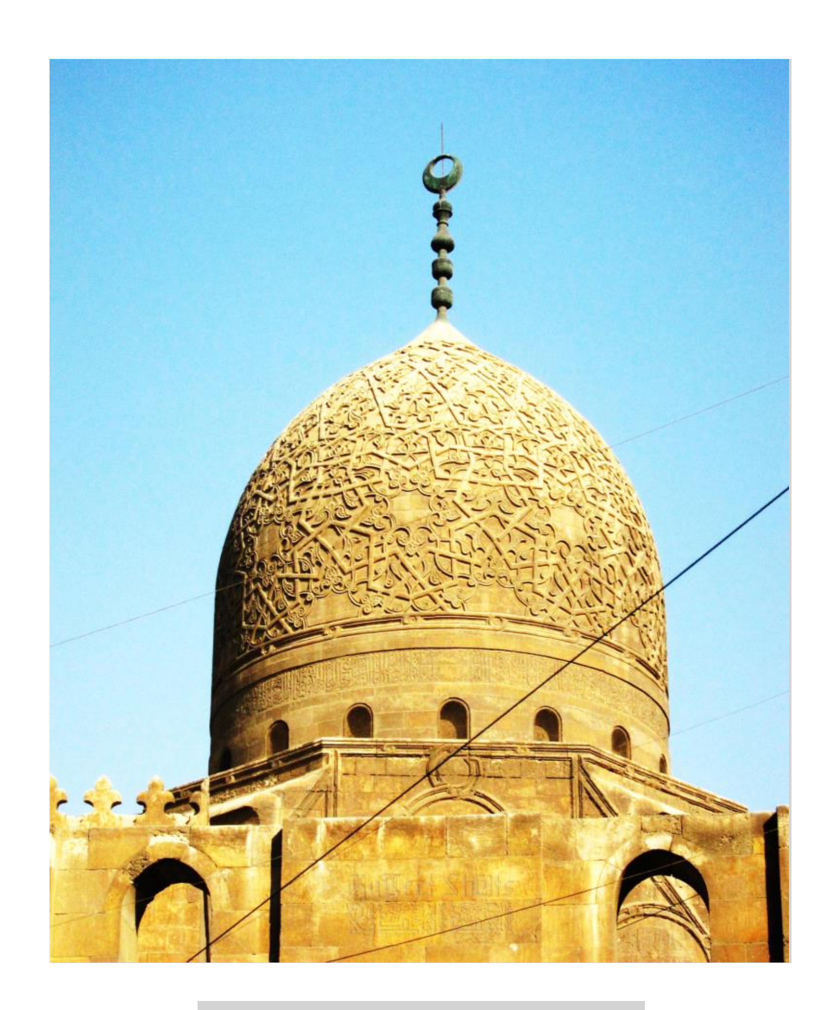
والملاحظ في العقود أن قوة الدافع الحادثة من ضغط الأحجار بعضها على بعض، وكذلك من وزن البناء الذي سيحمل على العقد، تتوزع في العقود على قطع العقد وأرجله بصورة كاملة التوازن تنتهي باتجاه عمودي نحو الأرض، وهكذا فالقبة تنشأ من عقود متقاطعة في مركز واحد،

هو المفتاح الرئيسي الأعلى للقبة كلها، وقد لجأ المعماريون المسلمون لإقامة القباب إلى العقود فقط لأن سقف المسجد لا يحمل في العادة إلا القبة فقط.

أنماط معمارية

ونظراً لتباين المواد التي شيدت بها القباب فقد تعددت أنماطها المعمارية وزخارفها تبعاً لتغير المادة البنائية، فظهرت القباب ذات المقطع نصف الدائري، وكذلك المقطع المدبب في القباب المشيدة من الحجر والآجر على حد سواء، ونظراً للإقبال الشديد على استخدام العقود المدببة في العمارة الإسلامية نظراً لاتساع فتحة العقد وارتفاعها مقارنة بالعقود النصف دائرية، فقد تسيدت القباب ذات المقاطع المدببة العمارة الإسلامية، وفي كل الأحوال كان استخدام الأحجار في تشييدها علامة على تمكن المهندسين من معالجة المشاكل الإنشائية الناجمة عن قوة رفص العقود أي مقاومتها وميلها للانفراط بسبب الجاذبية الأرضية.

وتعد القباب الحجرية التي شيدها المماليك في مصر والشام، وكذلك القباب الضخمة للمساجد العثمانية من أهم الإنجازات الحضارية للفن الإسلامي المعماري والزخرفي، وإذا كانت هذه القباب صامدة إلى اليوم بوجه عاديات الزمن برهاناً ساطعاً على عبقرية المعماري المسلم، فإن زخارفها أيضاً تشرح بلسان بليغ عبقرية فنون الزخرفة الإسلامية.



(شكل ١٠) مدرسةومسجد السلطان قايتباي

أولا: زخارف هندسية

ففي الأسطح الخارجية للقباب المملوكية المشيدة بالحجر الجيري نرى شتى أنواع الزخارف الهندسية والنباتية وأبسطها على الإطلاق الضلوع التي تتماشى مع المقطع المدبب للقبة، وهي محفورة حفرا في الحجر مثلما نرى قبة جوهر اللالا التي تعود للقرن التاسع الهجري، وهذا النمط من القباب

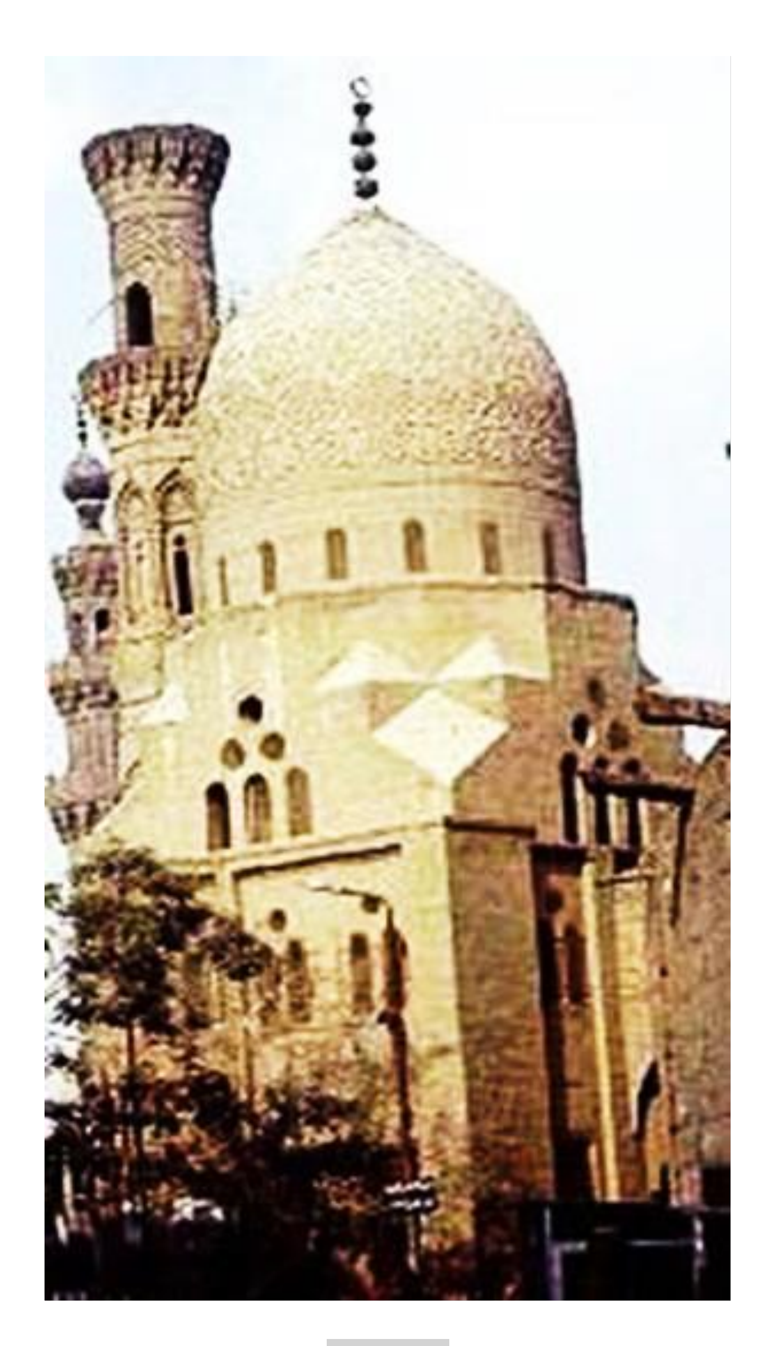
المضلعة في حقيقتها محض تكرار لما رأيناه منذ وقت مبكر في قباب جامع سيدي عقبة بالقيروان، ولا يعد مما تفردت به القباب المملوكية، إذ نرى أيضاً هذا النمط من القباب المضلعة في مساجد إسلامية كثيرة منها مسجد بيبي هيبات في باكو عاصمة أذربيجان.



(شكل ١١) مسجد السيدة بيبى هيبات

ثم نرى أيضاً الضلوع تتخذ هيئة حلزونية تبدأ من نقطة مركزية بقمة الخوذة ثم تدور مع انحناءات عقد القبة، وهناك أيضا الأشكال المتعرجة التي تشابه مثلثات متصلة مثلما نرى في قبة المدفن الملحق بمسجد قايتباي المحمدي بشارع الصليبة بالقاهرة، أما الإبداع الحقيقي لزخارف القباب فنراه في القباب المملوكية التي ازدانت أسطحها الخارجية بزخارف التوريق

العربية «الأرابيسك» مثل قبة مدرسة قانيباي الرماح أمير آخور أي المسؤول عن الإصطبلات المملوكية، وهي بميدان القلعة بالقاهرة، وكذلك في قبة مدرسة خاير بك أول حكام العثمانيين لمصر بعد سقوطها بأيدي سليم الأول العثماني، وفي العديد من القباب المملوكية بمقابر المماليك في صحراء العباسية، ولم تعدم مثل هذه القباب استخدام خط الثلث المملوكي الذي كتبت به نصوص تأسيسية تدور حول رقبة القبة، والقباب المملوكية التي جاءت خالية من الزخرفة الخارجية مثل قبة الميضأة التي شيدها السلطان حسام الدين لاجين بصحن الجامع الأموي ازدانت من الداخل بخط الثلث الذي سجلت به آية الوضوء من سورة المائدة، وشيدت أيضاً القباب لتغطية قاعات الحمامات، وفي هذه الحالة كانت تزدان بفتحات تغطى بالزجاج الملون لإضفاء طابع من النعومة المترفة مثلما نشاهد في قبة حمام بيت السحيمي بالقاهرة.





(شكل ١٢)

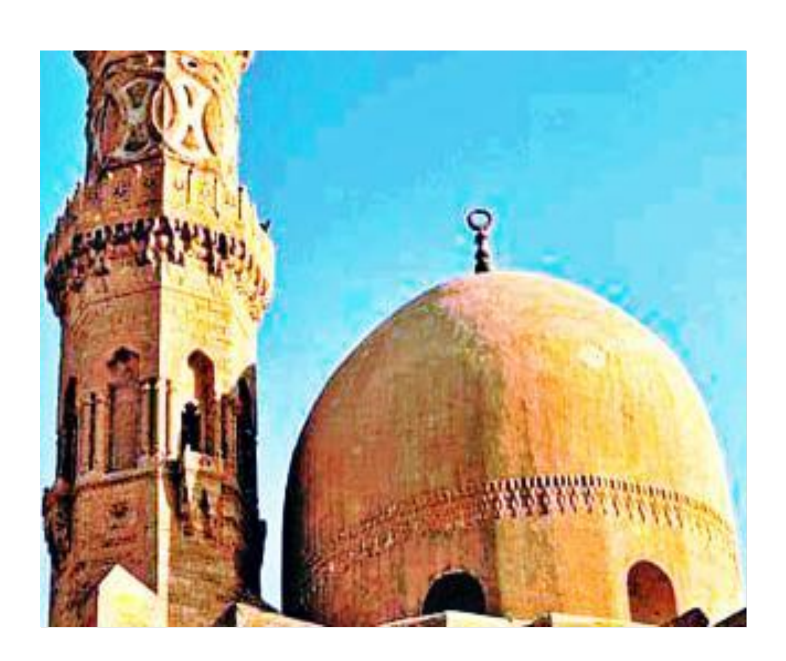
ثانيا: الفسيفساء الرخامية والكسوات المزخرفة

تفرد الأندلس بين ممالك الإسلام بالعناية المسرفة بزخرفة داخل القباب، وخاصة باستخدام الفسيفساء الرخامية والكسوات المزخرفة من الجص مثلما نرى في قبة جامع قرطبة وقباب قصر الحمراء بغرناط، وساهم الشرق الإسلامي بسهم وافر في مجال إنشاء القباب وزخرفتها، فتميزت المدن الفارسية بعمائرها ذات القباب المدببة والتي تزدان من الداخل والخارج ببلاطات الخزف المتعدد الألوان، وهي تزدان غالباً بالزخارف النباتية والكتابية مثلما نرى في عمائر مدينة أصفهان.

وكانت لأواسط آسيا – وبالتحديد لمدن الأوزبك الرئيسة بخارى وسمرقند خلال عصر التيموريين – إسهامات باهرة في إنشاء القباب المضلعة من الآجر وكسوتها بمربعات من الآجر المزجج والمزخرف بالزخارف النباتية والهندسية والكتابة، وتعد قباب شاه زنده في بخارى خير شاهد على الإبداع الفني البنائي والزخرفي للمسلمين في تلك الأصقاع، وقد تركت قبة مدفن تيمورلنك والمعروفة باسم غور أمير أثراً واضحاً على عمائر المسلمين حتى أن حاكم بخارى عندما منحه القيصر الروسي نيقولا الأول الإذن ببناء مسجد للمسلمين في العاصمة القيصرية سان بطرسبرج اتخذ له قبة تحاكي قبة غور أمير بألوانها الخضراء والزرقاء.

ثالثا: بيضة الدجاج

تعرف القباب السمرقندية بأنها تشبه بيضة الدجاج لارتفاع طبلتها، وهي معدودة بين الابتكارات العبقرية للعمارة الإسلامية في آسيا. أما في الهند ورغم بساطة المظهر الخارجي لقباب مساجدها وروضاتها في عصر أباطرة المغول واعتمادهم على إبراز جمالها بالأحجار الحمراء أو المرمر الأبيض، فقد كانت سباقة لتزويد العمارة الإسلامية بالقباب البصلية والتي تعد عنواناً موحياً لشخصية الهند المعاصرة.



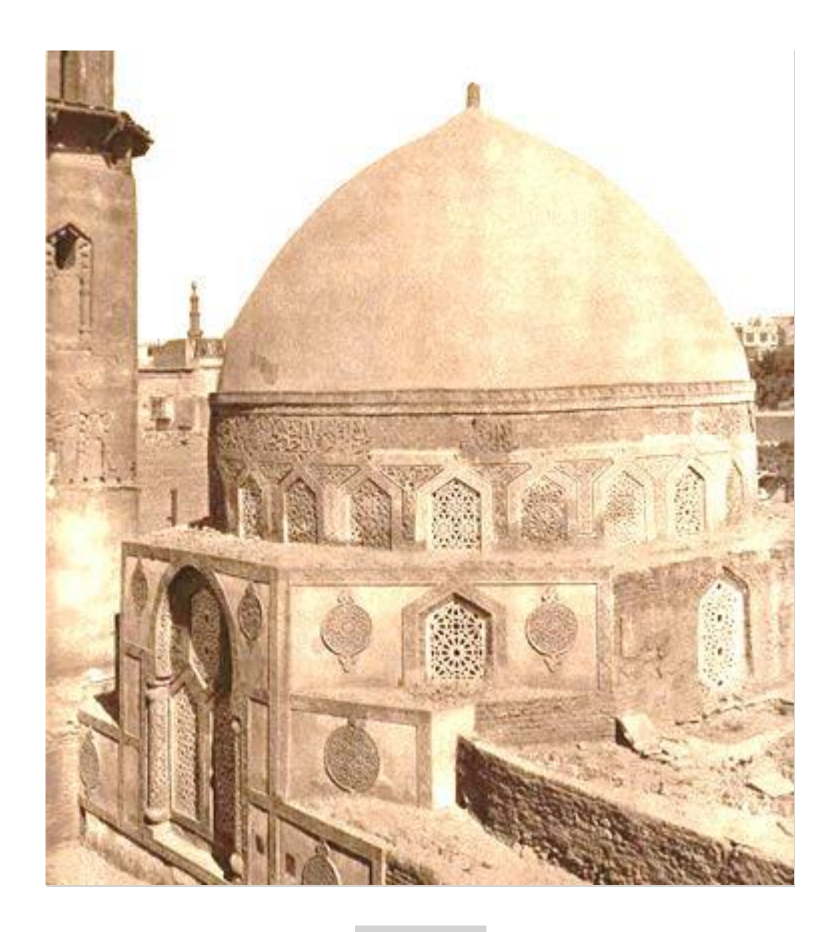
(شكل ١٣)

أنواع القباب

القباب الخشبية:

كانت البداية في عمل القبة من ابتكار آسيوي للعقد أو القوس، ثم تطور على أيدي الفرس والرومان، حتى جاء المسلمون وأضافوا عليها الكثير، وتنوعت القباب من حيث مادة الصنع، ففي بداية الأمر كانت هناك القباب الخشبية، كقبة الصخرة، وقباب الإمام الشافعي – الأولى – ٦٠٨ هـ، وجامع بيبرس ٦٥٥ – ٦٦٧هـ، ومدرسة السلطان حسن ٧٥٧هـ، بالقاهرة – وكانت القباب الخشبية تُكسى من الخارج بطبقة من صفائح الرصاص للحماية من العوامل الجوية، ومن الداخل بطبقة من الجص تضاف فوقها الزخارف المختلفة، ولا شك أن استخدام الخشب أسهل عند بناء القبة من استخدام الحجر، إلا أنه أضعف منه.

ومن الطبيعي أن القباب الخشبية تكسى عادة من الخارج بطبقة من صفائح الرصاص للحماية من العوامل الجوية بينما تكسى من الداخل بطبقة من الجص كبياض داخلي عليه زخارف متنوعة.



(شكل ١٤)

القباب الحجرية أو المصنوعة من القرميد (الطوب):

وهى المصنوعة من الطوب، ومنها قبة مسجد الغوري بالمنشية ٩٠٩هـ، وقبة خانقاه فرج بن برقوق ٨٠١هـ، وقبة أروقة الجامع الأقمر ٥١٩هـ، وقبة مسجد السلطان سليمان ١٦٠٩م بإسطنبول، ولثقل الحجر فقد كانت قبابه أصغر من القباب المبنية من الطوب، وقد اختلفت القباب من حيث الشكل الخارجي من قبة ملساء أو مضلعة أو بصلية أو

مخروطية، تبعاً للطراز أو العصر، فالقباب البصلية ترى في المساجد الهندية، والطويلة العنق للمساجد السلجوقية، والمدورة في أغلب المساجد، وخاصة الأيوبية والمملوكية والفاطمية.

وقد لجأ المعماري المسلم لحل المعضلة الهندسية المتمثلة في الانتقال من المربع إلى المدور، إلى استعمال العقود المتقاطعة لإقامة القباب، ومن هنا كانت الحلول المستعملة لتحويل المبنى المربع الشكل أو المستطيل إلى دائرة عن طريق ما يسمى المثلثات الكروية (وهي طريقة رومانية) أو محنية الأركان (وهي طريقة فارسية)، أو تحويل الحافة المربعة للجدران إلى هيئة مثمنة، ثم إقامة أعمدة تعتمد على الأكتاف الثمانية وتتلاقى في نقطة واحدة (وهي طريقة إسلامية مبتكرة) وهكذا كان الشأن في عامة القباب الحجرية أو القرميدية القديمة.



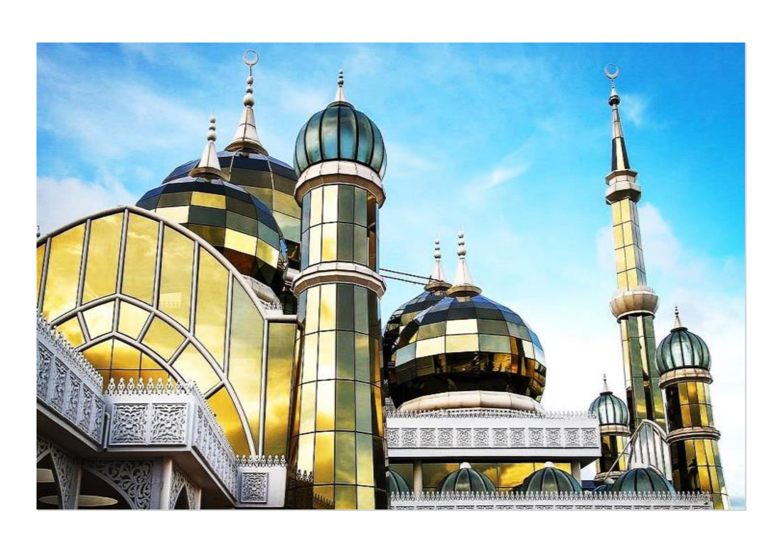
(شكل ١٥)

القباب الحديثة:

هي بوجه عام تقوم على هيكل حديدي (أسياخ معدنية متشابكة) يصب فوقه الأسمنت المخلوط بالجص، فإذا جف بلغ الغاية في المتانة

والتماسك، وبواسطة هذه القوالب التي يصب فيها الأسمنت لصنع القبة أمكن التحكم في حجم القبة وشكلها ومتانتها إلى حد بعيد.

وثمة قباب حديثة بدأت تظهر منافسة لقباب الحديد والأسمنت، وهي القباب المصنوعة من مادة الفيبرجلاس والخيوط الزجاجية، وميزتها أنها تسمح بنفاذ الضوء إلى باطن القبة دون أن تسمح لحرارة الجو أو برودته بالنفوذ، إضافة إلى خفة الوزن مع متانة الصنع والقدرة على اختيار الشكل المختار بحرية تامة.



(شكل ١٦)

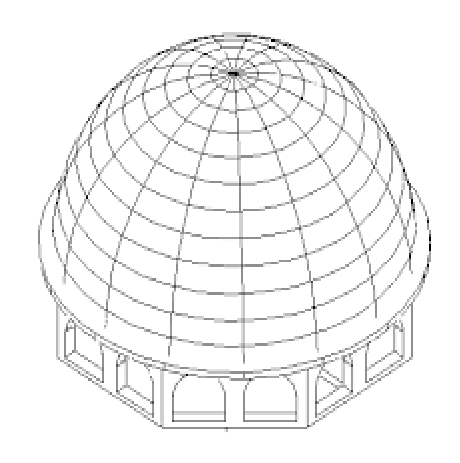
الشكل العام للقبة

فقد تنوعت إلى قبة ملساء أو مضلعة أو قبة بصلية أو مخروطية الشكل، والقباب البصلية ترى واضحة في المساجد الهندية، والقباب

الطويلة العنق ترى في المساجد السلجوقية، والقباب المدورة ترى في عموم المساجد، خاصة الأيوبية والمملوكية والفاطمية.

الثبات والحركة

فإن الأصل في القباب (كالمآذن) أن تكون ثابتة فوق سطح المسجد، إلا أن التقنيات الحديثة مكنت المعماريين من ابتكار القباب المتحركة التي تتحرك على سكة، ويتحكم بها بواسطة آلات يحركها مفتاح آلي (مباشر أو ريموت كنترول)، ومثل هذه القباب المتحركة عرفت في المساجد الحديثة الضخمة، كمسجد الملك الحسن الثاني بالرباط، والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة في التوسعة الأخيرة (وزن القبة ٨٠ طنًا)، وبذلك استفيد من تحريك القبة في تجديد هواء المسجد، وفي إنارته، وفي التمتع بالجو الطبيعي المناسب بل استخدمت القباب المتحركة على سكة عالية، وهي مرفوعة على جدران تحتها فوق السطح استخدمت في تظليل جزء لا يستهان به من السطح يكون موائما للصلاة فيه، وهذا ما يراه الحاج في أسطح المسجد النبوي الشريف.





(شكل ١٧) قبة المسجد النبوى

أجزاء القبة

تبدو القبة للوهلة الأولى، وكأنها قطعة واحدة إلا أن المتمعن فيها يستطيع رؤية أجزائها التالية:

قاعدة القبة: هي منطلق تحول مسقط البناء من المربع إلى المدور، وقد تكون قاعدتها على هيئة مسدس أو مثمن.

رقبة القبة: يسمى بالطنبور وفيه تجد أحيانًا كثيرة نوافذ تجهز بقمريات بالزجاج الملون، وقد يفصل بين كل نافذة وأخرى قوصرة وفي نهاية الطمبور فوق النوافذ في الخارج يوجد أحيانًا نص قرآني على سطح يرتد عن سطح الحائط يعمل بالجص على القباب القرميدية، أو ينحت نحتًا في القباب الحجرية أو يكتب بالقاشاني أو غيره، وبعض القباب تمتاز برقابها الطويلة التي تشبه عنق الزجاجة.

جسم القبة: هو يكون مدورًا أملس، أو مدورًا مضلعًا، أو مخروطيا منتفخ البطن منقبض ما فوق الرقبة تحته.

خاتمة القبة: هي ذروتها العليا، وقد رأينا بعض القباب تختم بمنور مكون من طاسة فيها نوافذ متناظرة ترفع فوق جسم القبة، كما اشتهرت القباب الهندية بخاتمتها العليا الشبيهة ببصلة مقلوبة إلى أسفل.

معمار جمالي: اشتهرت القباب بدورها الجمالي أساسًا، وقد تفنن المعماريون المسلمون في إبراز جمال القبة، إضافة إلى شكلها المميز عن البناء وذلك باستخدام عناصر التجميل الأخرى، سواء داخل القبة أو خارجها.

تزيين القبة من الخارج: فقد استعملت زخارف دائرية القطاع (فصوص) بينها مثلث وذلك في القباب المتخذة من الطوب، أما بالنسبة للقباب الحجرية فقد استعملت دالات (زخرفة متتابعة على شكل حرف الدال) كما في قبة المدفن بجامع المؤيد، وقبة خانقاه فرج بن برقوق، وقبة بيبرس الخياط، كما استخدمت أشكال هندسية أو زخارف بنائية مجتمعة، أو كل على حدة، كما في قبة المدرسة الجوهرية بالأزهر، وقبة مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية، ووجدت كتابات بالقاشاني على مثل قبة أسلم السلحدار، بل إن قباب المساجد في الشرق (إيران على وجه الخصوص) لم تترك مجالًا للمنافسة في تزيين القباب بالقاشاني الأزرق التقليدي (مسجد شاه عباس في أصفهان) أو الوردي (مسجد الشيخ لطف الله في أصفهان)، ولا ننسى أن بعض القباب تم تزيينها من الخارج بألواح من الذهب الخالص (كما كان في قبة الصخرة وبعض المساجد الأخرى حاليًا في العراق)، كما أن بعض القباب اشتهرت بلون خاص بها (كالقبة الخضراء فوق الروضة الشريفة في الحرم المدني)

تزيين القبة من الداخل: تزيين القبة من الداخل؛ فزينت بعض القباب بالرخام الملون الذي ينتهي من أعلى بطراز، كما تحدد المنطقة السفلى من القبة (العنق) في أغلب الأحيان بكورنيش، كما استخدم الجص المصنوع على أشكال تزينية شتى في القباب من الداخل.

وقد اشتهر العثمانيون بالتأنق في استخدام الألوان واختيار النصوص المزينة للقباب من الداخل إلى درجة لا مزيد عليها، كما اشتهرت القباب

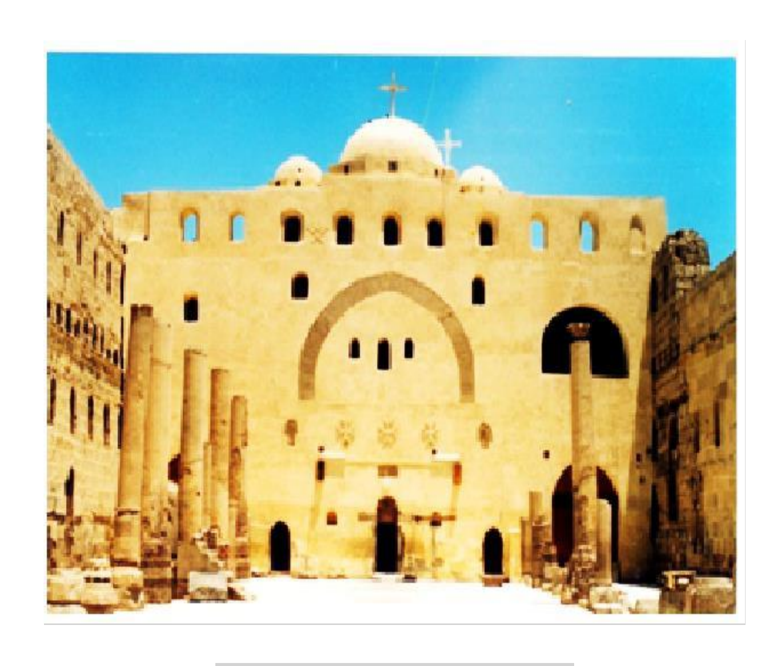
في العراق وإيران بالنقوش والزخرفة والجمال الباهر، ولا شك أن المبالغة أحيانا في تزيين باطن القبة جاء تعويضًا عن البساطة الملحوظة في تزيين بيت الصلاة في المساجد؛ فتزيين القبة لا يشغل المصلي، على العكس من تزيين بيت الصلاة، ويدخل في تزيين القبة الهلال الذي يرتفع دائما فوقها ومن تحته تفاحات معدنية، فيتولد بذلك منظر متكامل رائع، لينتشر استخدام القبة في مصر والعالم الإسلامى بمختلف المواد المستخدمة في بنائها سواء من الطين أو الطوب أو الحجر أو الخشب، وطرزها المختلفة، وتطورها من حيث الارتفاع وأشكال الزخارف النباتية والكتابية.

المثلثات الكروية: استخدم عنصر المثلثات الكروية في القباب الحجرية في الأردن وانتشر استخدامه تبعا للتوسع في استعمال القباب وأنصافها، وهي المثلثات التي يرجع الفضل في ابتكارها إلى العرب الشاميين، إذ استعملوها للانتقال بالمساحات المربعة إلى مناطق مستديرة ترتكز عليها الحافات السفلى للقباب، ثم خرجت من بلاد الشام لينتشر استعمالها في مستعمرات الدولة البيزنطية وغيرها، واستمر في العصر الإسلامي حيث وجد بقبة حمام قصير عمرة وحمام الصرخ.

والمثلثات الكروية إما أن تكون أقطارها الكروية هي نفسها الأقطار الكروية للقباب التي تحملها وفي هذه الحالة تبدو المثلثات كأنها جزء من القبة، كما يبدو الجزء الكامل من القبة فوق المثلثات على هيئة قصعة كبيرة أو قطعة كروية ضحلة، وفي حالة أخرى يختلف القطر الكروي للمثلثات عنه للقبة وذلك حتى يمكن عمل القبة من نصف كرة تماما أو

أكثر قليلا، وقد ظهرت المثلثات الكروية في جبانة البجوات بالوادي الجديد بمصر (القرن ٤–٦م) وفي منطقة الشيخ عبادة بمحافظة المنيا واستخدمت في باب الفتوح والجامع الأقمر بمحافظة القاهرة وبقمائن الجير بجوار الدير البيض بسوهاج (القرن ٦ه/١٢م) وبالقبة الآجرية بالدير نفسه وهي معاصرة للجامع الأقمر، كما وجدت ببعض قباب جبانة أسوان.

وظهرت المثلثات الكروية في كنائس أرمينية ككنيسة آني (٩٨٩م–١٠٠١م) وكنيسة بتليني وكنيسة مارماشين وكنيسة أودزون وهي أمثلة تقارب زمنيا ظهورها في العمارة الفاطمية التي أنشئت في عهد بدر الجمالي، وبخاصة أبواب القاهرة التي استخدم فيها هذا النوع من المثلثات وهو ما يرجح أنها تأثير أرمني، ونجد تشابها واضحا بين المثلثات الكروية بقبة الدير الأبيض بسوهاج ومثيلاتها بقبة كنيسة أودزون بأرمينية، وإذا كان انتشار استخدام المثلثات الكروية في قباب أبواب القاهرة يراه بعض الباحثين تأثيرا أرمينيا فإن أصل هذه المثلثات يرجع إلى منطقة سوريا وبادية الأردن.



(شكل ١٨) الدير الابيض–سوهاج

الحنايا الركنية:كما تدين العمارة البيزنطية بالفضل للعرب الشاميين في ابتكار المثلثات الكروية في مناطق الانتقال، وهي التي انتشرت في الطراز البيزنطي، فإنها تدين أيضا بالفضل من ناحية أخرى للعرب العراقيين في تزويدها بالابتكار الثاني لمنطقة الانتقال وهي حنية الأركان التي تتخذ هيئة قمع أو مخروط تبلغ زاوية رأسه ٩٠ درجة يوضع على جنبه بحيث ينصف هذا المحور زاوية الركن القائمة، أي أن قاعدته النصف بيضية أو النصف دائرية قد وضعت في مستو رأسي ووضع ضلعا نصف المخروط في مستوى أفقي بحيث ينطبق في كل ركن من جانبيه المستقيمين على ضلعي زاوية مربع المنطقة التي ستغطى بقبة.

أما القباب التي يتم فيها تحويل المسقط المربع إلى مثمن ودائرة بواسطة الحنية في الأركان فقد وجدت في قصور الساسانيين، ووجدت أمثلة للحنايا الركنية بوحدات قصر الأخيضر ومنها القبة التي تقع بدهليز المدخل الرئيسي والطاقات بالجدران حول الفناء الكبير الذي يتوسط القصر على هيئة طاقية من نصف قبة مدببة، كما ظهر في باب العامة بالجوسق الخاقاني بسامراء.

وهذا النموذج الذي انتقل إلى مصر وظهر بقباب أسوان حيث نجد نموذجين أحدهما النوع الذي يشبه نصف مخروط مجوف وضع قطاعه المثلث أفقيا بحيث تنصف محوره زوايا المربع وبحيث تنطبق حافتا المثلث على ضلعي الزاوية، أو من حنية على هيئة طاقية من نصف قبة، ويتميز هذا النموذج بأن جميع الحنايا سواء ما وضع منها في الأركان أو في الأضلاع تبدو واضحة من داخل البناء على عكس نماذج المجموعة الأولى التي تختفي داخل كتلة البناء، وهذا النموذج المركب تختص به منطقة الصعيد الأقصى.

وقد وجدت أمثلة للحنايا الركنية بقباب جامع الحاكم وقبة مشهد الجيوشي وقباب السبع بنات، أما بالكنائس في العصر الفاطمي فقد ظهرت بكنيسة الأنبا بيشوي بوادي النطرون وبالمدخل (الدوكسار) الذي يقع في الناحية الشمالية بكنيسة العذراء بدير السريان. وهو ما يشير إشارة واضحة إلى أن الحنايا الركنية التي شاع استخدامها في العمارة الإسلامية الفاطمية بشكل فاطمي مميز وجدت أمثلة لها بالعمائر المسيحية

التي أنشئت في العصر الفاطمي وتعتبر ملمحا آخر من ملامح انتشار عناصر الطراز الفاطمي في العمائر المسيحية.



(شكل ١٩) قباب أسوان

المقرنصات: يرى المعماريون أن المقرنصات شكل متطور عن الحنايا الركنية، وقد ابتكرت المقرنصات في بلاد فارس وإيران حيث كان أول ظهور لها بعضد باب مدفن جنبادي كابوس في جورجان بإيران، وقد انتشرت المقرنصات انتشارا سريعا مع نهاية القرن الحادي عشر، ويعد النموذج المكون من حطتين هو أول مراحل تطور المقرنصات، ويؤكد كريسويل أن القباب الفاطمية لم تتأثر بمثيلاتها الأرمينية حيث أنه لا يوجد بآثار سوريا أو العراق أي مثيل للمقرنصات بالآثار الفاطمية، ويتكون المقرنص من حطتين الأولى من ثلاث قوصرات والثانية من قوصرة واحدة،

وبذلك استعملت المقرنصات كعنصر إنشائي ووجدت في القباب الفاطمية في مشهد الجعفري وعاتكة والسيدة رقية وأحد المشاهد بجبانة أسوان..

وظهرت المقرنصات كوحدات معمارية زخرفية بإحدى النوافذ المطلة على داخل المدينة بالسور الشمالي وفي باب زويلة في الدخلة الشرقية في رحبة المدخل وفي واجهة الجامع الأقمر، وظهرت في دير الشهداء كعنصر إنشائي لتحويل المسقط المربع للقبة إلى مسقط مستدير، ويعتبر وجودها في هذه القبة مظهرا من مظاهر انتشار العناصر المعمارية الفاطمية في العمارة المسيحية المعاصرة أيضا.

قال المستشرق الإنجليزي «هاتير لويس» واصفاً أقدم القباب الإسلامية «قبة الصخرة» في القدس «٦٦/ ٧٢هـ»، والتي رصد لبنائها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان خراج مصر لسبع سنين: «إن مسجد الصخرة بلا شك أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه البسيطة، لا بل إنه أجمل الآثار التي خلدها التاريخ»، ويرتفع فوق القبة هلال ضخم، والقبة الحالية ترجع إلى عهد الخليفة الفاطمي الزاهر الذي جددها العام ٤١٣هـ، وقد صمم مسجد قبة الصخرة المعماري المسلم «رجاء بن حيوة» ثم أشرف على التنفيذ مع «يزيد بن سلام»، ولم يتقاض الاثنان أجراً على عملهما، وأمر عبد الملك بن مروان أن تسبك ١٠ آلاف دينار صفائح تزين بها القبة، والتي تحملها عقود الأعمدة في قلب المسجد، وليس الجدار الخارجي، وعدد تلك العقود ١٦ عموداً وأربع دعائم.



(شكل ٢٠)

طرز القباب في العمارة الإسلامية

أولا: الطراز العباسي

ظهر ذلك الطراز بظهور الدولة العباسية ببغداد، وفيه تغيرت أساليب العمارة وغلبت الأساليب الفنية الساسانية على الفنون الإسلامية، وقد شيَّد الخليفة المنصور مئذنة بغداد عام ٧٦٢ ميلادي، وفيه تم بناء المسجد الجامع في سامراء ومسجد الرقة وأبي دلف بالعراق ثم جامع أحمد بن طولون بالقاهرة وجامع نابلين في إيران. ونجد أن المسجد الجامع شيِّد ما بين ٢٣٤هـ إلى ٢٣٧ (٨٤٩م-٨٥٢م) ولكنه لم يبق منه إلا السور الخارجي.



(شكل ٢١) جامع أحمد ابن طولون –القاهرة

ثانيا : الطراز السلجوقى:

السلاجقة هم قبائل من التركمان الرحل قدموا من آسيا الوسطى واستقروا في الهضبة الإيرانية، وقد استخدموا الزخارف المجسمة خاصة في الواجهات مثل القبة الصغرى في مسجد الجمعة بأصفهان بنى عام ٤٨١هـ (١٠٨٨م). ونجد أن السلاجقة تميزوا ببناء العمائر ذات القباب والأقبية وتميز بالعناصر الزخرفية الهندسية، وقد انتشرت القباب المخروطية التي تعود إلى العصر السلجوقي، ولا تزال ١٧ قبة منها منتشرة في عديد المناطق العراقية خاصة في تكريت والأنبار، وقد مثلت القباب المخروطية رمزا لمختلف الديانات في البلاد، لكن عددا منها تم تدميره من قبل تنظيم داعش.



(شكل ٢٢) القباب المخروطية

ومن الجدير بالذكر أنه ليس فى مصر قباب قائمة ترجع إلى عصر الدولتين العباسية والطولونية وكذلك الإخشيدية، وكل ما بقى من آثار هذه الفترة مسجد عمرو بن العاص سنة ٢١هـ / ٦٤١م، ومقياس النيل سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م، ومسجد أحمد بن طولون سنة ٢٦٣-٢٦٥هـ / ٨٧٦-٨٧٩م، ومشهد آل طباطبا (النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، القرن العاشر الميلادى) .

ثالثا: الطراز الفاطمي

في عصر الفاطميين أنشئت مدينة القاهرة وشيدت الأسوار الحربية للدفاع عنها يكتنفها بوابات وأبراج للدفاع عنها، وكان من أهم أعمال الدولة الفاطمية: الجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الحاكم وجامع الأقمر جامع الجيوشي، وجامع الصالح طلائع فضل عن أسوار القاهرة التي تميزت بالطابع الإسلامي في شمال إفريقيا وجزيرة صقلية.

ونجد أن الجامع الأزهر أنشئ بالقاهرة على يد القائد جوهر الصقلي عام ٣٦١هـ (٩٧٢م)، ونجد أن ذلك المسجد بني ليكون جامعاً للقاهرة الفاطمية، وليحل مقام الجامع الطولوني بالقطائع وجامع عمرو بالفسطاط، وكان بذلك المسجد ثلاث قباب إحداهما في المنطقة التي تعلو المحراب الأصلي وواحدة في كل مكان من ركن رواق القبلة.



(شكل ٢٣) جامع عمرو – القاهرة

وفى هذا الطراز نرى أن الفاطميين أدخلوا عناصر معمارية وزخرفية جديدة، فظهر العقد الفارسى فيما يعلو الأعمدة وفى رءوس التجاويف كما فى الأزهر الشريف، والمحاريب وظهرت القباب فوق الأضرحة.

وظلت القبة الفاطمية فى أول الأمر بسيطة فى مظهرها الداخلى والخارجى(أى ملساء)، ثم تطورت بأن أدخل عليها التضليع من الداخل والخارج مثل قبة السيدة رقية، والسيدة عاتكة.

وقد رفعت القبة أولا على مقرنصات ثم تطور هذا العنصر فيما بعد فى نهاية العصر الفاطمى إلى وجود مقرنص فى كل زاوية من الزوايا الأربع، يعلو أحدهما الأخر.

جامع الأقمر: بني عام ٥١٩ هـ (١١٢٥م) ويقع بشارع المعز لدين لله وبناه الخليفة الآمر بأحكام الله، ويعتبر ذلك الجامع من أجمل المساجد الفاطمية على الإطلاق، ويمتاز بجمال زخرفة واجهته وهى من أول الواجهات المزخرفة في المساجد المصرية وهى مبينة من الحجر ويتكون المسجد من صحن به أربعة أروقة مكونة من قباب منخفضة محمولة على مثلثات كروية، وهنا يظهر التأثير البيزنطي في طريقة التشييد للقبة.

الطراز الأيوبي: ظهر ذلك العصر بقدوم صلاح الدين الأيوبي ويلاحظ أن العمارة والفنون الإسلامية ازدهرت في ذلك العصر، ومن مميزات ذلك الطراز تطور المئذنة وكذلك القبة إذ تعددت فيها حطات المقرنصات، ومن أهم بنايات ذلك العصر: قبة ومسجد الإمام الشافعي.

وأول ما نلاحظه فى هذا الطراز أنه حافظ على التقاليد المعمارية الفاطمية وعلى الأخص فى العمارة الدينية .

وأول هذه التقاليد استعمال الآجر فى بناء القبوات ، أما العقود فبنيت من الحجارة غالبا. وقد ابتدعوا من بناء العقود أنصاف الدوائر. وبنوا القبوات والعقود المدببة أو المنكسرة، وقد استعمل الآجر فى الأجزاء العليا من المبانى لأنه أخف وزنا، أما المقرنصات فاستمرت فى طريقها للتطور .

الطراز المملوكي: يعتبر العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر ففيه ذاع بناء المدافن الكبيرة (مدفن قايتباى وبرقوق بالصحراء الشرقية المصرية)، وكان فيها نوع من الإتقان في شتى العناصر المعمارية كالقباب والزخارف وفيه بنى مسجد الظاهر بيبرس وجامع السلطان حسن.

وقد احتفظ فى عصر المماليك بهذه الأشكال فى البناء بالحجارة، إذ بنيت قباب مضلعة بالحجارة، كما لو أنها بنيت بالآجر، مثل قبة تانكزبغا بمقابر الخلفاء .

وقدابتكرت أيضا فى هذا العصر أشكال زخرفية بديعة، منها قبة الجاى اليوسفى سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م، التى اتخذت شكلا حلزونيا رائعا .

ومن الجدير بالذكر أن قباب هذا العصر عادة ترتكز على رقاب مستديرة مسدودة أحيانا، وأحيانا أخرى تنفتح بها نوافذ ، وتدور حولها إطارات زخرفية هندسية أو كتابية، وأيضا قد تتحلى هذه بتجاويف، وتركز هذه الرقبات المستديرة بدورها على طابق مثمن الأضلاع تنفتح فيه النوافذ، واتبع فى تقسيم هذه المضلعات الطرق الفاطمية نفسها من التدرج وكذا المقرنصات المعقودة أو التجاويف.

وقد ظهر فى نهاية عصر المماليك البحرية نوع جديد من المقرنصات لقى حظا كبيرا في عصر المماليك الشراكسة من التطور وهذا يبين جليا فى مدخلى مدرسة ومسجد السلطان حسن؛ إذ تكونت المقرنصات فى مجموعة من المقرنصات المعقودة، وهذا نوع جديد يجمع من نظام المقرنصات المثلثة ونظام المقرنصات المعقودة التى عرفت فى العصر الفاطمى .

مدرسة وضريح قلاوون بالنحاسين: أهم ما يسترعي النظر بتلك المجموعة المعمارية القبة التي تعلو الضريح، فهى مقامة على قاعدة مثمنة مكونة من أربع دعائم مربعة، وهذه الدعائم تحمل عقوداً مدببة تعلوها رقبة مثمنة بها نافذة في كل ضلع من أضلاعها، ثم تعلو تلك الرقبة المثمنة قبة مستديرة، ونجد أن قطاع القبة من الخارج على شكل عقد مدبب بيضاوي الشكل وتسندها أكتاف ساندة موضوعة فوق أركان المثمن الخارجي.. ويمتاز المبنى بالقبة ذات المقرنصات التي تعلو غرفة الضريح، ففيه نجد أن القبة التي تعلو المحراب تشغل ثلاث بلاطات مربعة.

مدرسة السلطان حسن: تقع بميدان صلاح الدين وأنشأها السلطان حسن بن قلاوون (١٣٦٢م) وهي من أجمل الآثار الإسلامية في القاهرة إذ أن مبانيها تجمع ما بين قوة البناء وعظمته ودقة الزخارف وجمالها، وهى تتكون من أربعة إيوانات، وأكبر الإيوانات إيوان القبلة، ويوجد خلفه ضريح يتكون من قاعة مربعة تعلوها قبة محمولة على ست صفوف من المقرنصات المصنوعة من الخشب المنقوش والذهب.

الطراز الإيراني المغولي: يمتاز بأنه مشبع بالأساليب الفنية الصينية، ونجد أن العمارة الإسلامية زادت أناقة واتزانا، ونجد أن الفنانين اهتموا بالمقرنصات واستخدامها في تزيين المباني.

الطراز المغربي: لم يتأثر هذا الطراز بغيره من الطرز الإسلامية تأثراً كبيراً، وكان تطوره بطيئاً مقارنة بباقي الطرز الإسلامية، ونجد أن المساجد بوجه عام في المغرب هي عبارة عن صحن داخلي تحفه البواكي وفي وسطه فسقية، والغالب في هذا الطراز الإسراف في عناصر الزخرفة.

الطراز الصفوي: أسسته الأسرة الصفوية، وهي أول الأسرات التي أصبح المذهب الشيعي لها المذهب الرسمي للدولة الإيرانية، ومن أبدع العمائر بها جامع الشيخ صفي الدين أردبيل ومدرسة مادرشاه.

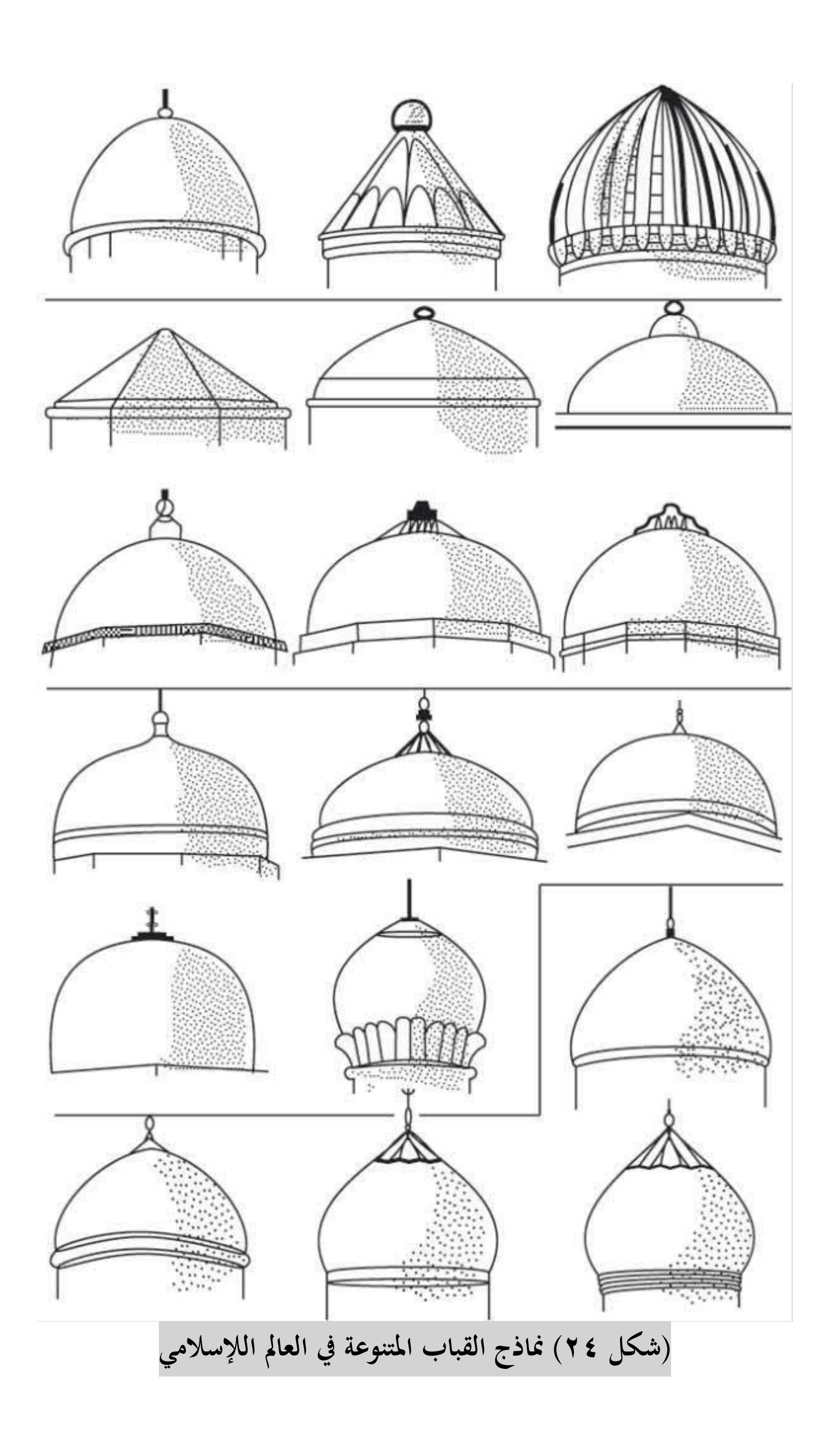
الطراز الهندي المغولي: نشأ ذلك الطراز في ظل أسرة المغول الهندية، وهو الطراز الهندي الإسلامي، وامتازت العمارة الهندية الإسلامية بالأضرحة الضخمة وأشهرها تاج محل ومسجد الجمعة بدلهي، ويتميز ذلك الطراز بقبته البصلية الشكل.

الطراز العثماني: قامت الدولة العثمانية وعملت على مد سلطانها في بلاد الجزيرة والشام ومصر، وفيها ازدهرت الفنون والعمائر الدينية العثمانية، وهى كانت حركة انتقال من الطراز السلجوقي إلى الطراز العثماني، ومن أمثال المساجد التركية الجامع الذي شيده مُحَّد علي في قلعة الجبل بالقاهرة عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) ويوجد أمام المسجد من الجهة الغربية صحن مربع تقريباً تدور حوله أربعة أروقة محمولة على أعمدة فوقها قباب صغيرة، ويتوسط ذلك الصحن قبة تقوم على ثمانية أعمدة، وهي مكان للوضوء.. أما القسم الشرقي فهو المسجد ويتكون من صحن المسجد الرئيسي مربع الشكل تتوسطه قبة كبيرة تحملها أربع عقود كبيرة على أربعة أكتاف وتحف بالقبة أربعة أنصاف قباب.

تطور القباب في العمارة الإسلامية

تطورت القباب بعد ذلك ومن ثم تطورت مقرنصاتها، واختفت المقرنصات المقوسة، وحلت محلها المقرنصات الهندسية، كما هو ظاهر فى قبة تلمسان سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥م فى بلاد المغرب، إذ تقوم ضلوع ازداد عددها وفرغت الحشوات التى بينها وملئت بتجويفات زخرفية.

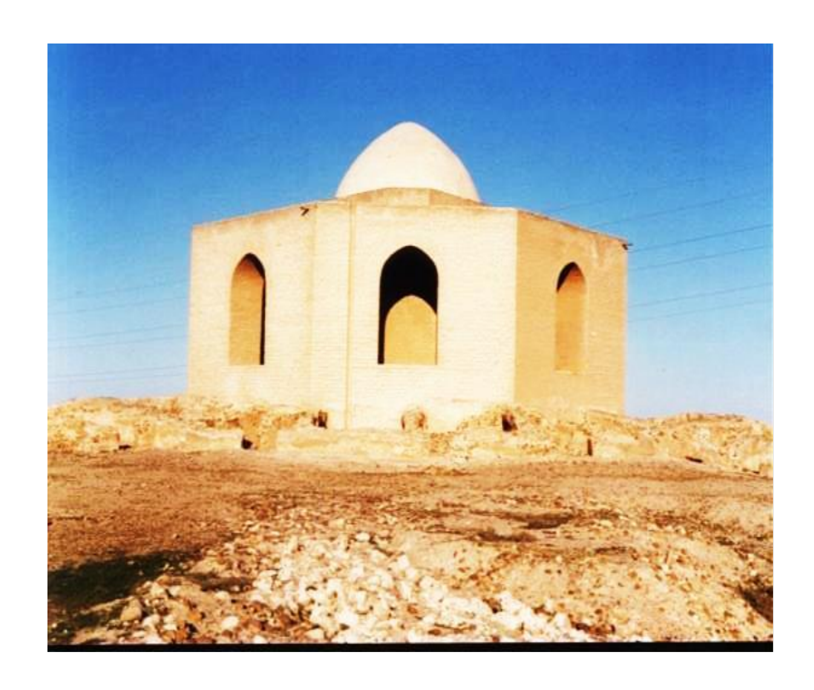
وتطورت هندسة القباب على أيدي العرب المسلمين نتيجة تراكم الخبرات وتنوع مواد البناء إضافةً إلى تقدُّم تقنيات وأساليب الإنشاء، فتعددت أشكالها من الداخل والخارج. وإليك نماذج لقباب اشتهرت في العالم الإسلامي منها: القبة البصلية المحززة، والقبة المخروطية، والقبة الكروية وغيرها.



(شكل ٢٤) نماذج القباب المتنوعة في العالم الإسلامي

وتعد قبة الصخرة Dome of the Rock **في القدس باكورة القباب الإسلامية، وتعود للعصر الأموي (٦٦١ – ٧٥٠م)، شيدها الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ، ومسقطها مثمن طول ضلعه ٢٠.٩٥م، وارتفاعها ٣١.٥م، تتألف القبة من طبقتين، العلوية خشبية تكسوها صفائح من الرصاص وفوقها ألواح من النحاس المذهب، ولها رقبة تتخللها ست عشرة نافذة قوسية للإنارة.**

ومن قباب العصر العباسي، قبة ضريح mausoleum **الصليبية في سامراء** Samarra**، وهو الضريح الأول في الإسلام، ويضم رفات الخلفاء: المنتصر والمعتز والمهتدي. وهنا بدأت القبة تأخذ بعداً فكرياً فلسفياً، وهو ما يُدعى بالعمارة الرمزية؛ فالقبة تُمَثِّل السماء، وتعني الأزلية والخير والاتصال بالخالق وبالكون اللا محدود، والمكعب يرمز إلى الأرض باتجاهاتها الأربعة، وفصولها الأربعة، ويعني الفساد والفناء، ورمزت العلاقة بينهما إلى الثنائية بين الخير والشر، وإلى الانعتاق من الفساد باتجاه النفوس السماوية الخيّرة في جدلية معمارية بين القبة والمربع الذي ترتكز عليه، وقد تجلى إيمان المعماريين والأمراء والسلاطين بهذه الفلسفة، التي تعود إلى أصول يونانية ومصرية ورافدية، فيما يُسمى بعمارة المدافن التي كانت القبة عنوانها الرئيسي.**



(شكل٢٥)

وفي مسجد ابن طولون في القاهرة، الذي بني بين عامي ٨٧١ و٨٧٩ م، تتميز القبة بجمالها من حيث الحجم والنحت، والانتقال الرائع من المكعب إلى الدائرة وبتراجع الرقبات التي تستند إليها.

أما القباب الإسلامية في المغرب العربي فكثيرة، ومنها قبة جامع القيروان في تونس، الذي بناه عقبة بن نافع عام ٤٦هـ/ ٦٦٣م، وهي قبة محززة، لها ٢٤أخدوداً، ولها رقبة تخترقها ثماني نوافذ للإنارة، يحمل الرقبة مثمن مزين بمقرنصات صدفية الشكل في أركان البناء الأربعة.

بعد تأسيس الخلافة الأموية في الأندلس (إسبانيا) على يد عبد الرحمن الداخل، شهدت القباب تنوعاً في الشكل وغنىً في الزخرفة، فظهر

فيها الرقش Arabesque **عنصراً إنشائياً زخرفياً، إضافةً إلى تطور استخدام المقرنصات** stalactites **التي حلّت محل المثلثات الكروية كعنصر انتقال من المكعب إلى الكرة، ولم يتطلع المعماريون الأندلسيون إلى محاكاة القباب ذات المجازات الواسعة، بل تجلت إبداعاتهم في ترسيخ خصائص المدرسة الفنية الإسلامية التي ابتعدت كلياً عن التصوير، ويتجسد هذا الأمر في قباب مسجد قرطبة** Cordobaالكبير **الذي شرع ببنائه عام ٧٨٥م.**

أما القباب السلجوقية، فأشهرها قبة البيمارستان النوري الذي شيده نور الدين محمود بن زنكي، في محلة سيدي عامود (الحريقة) بدمشق، ويبلغ قطرها ٥م، وهي على شكل مقرنصات من الداخل ومن الخارج، كما تشكل نموذجاً فريداً من نماذج العمارة الإسلامية.

وأما أشهر القباب العثمانية، فهي قبة جامع السلطان سليم الثاني Selim II **في أدرنة** Edirne (Adrianople**)، المشيد بين العامين ١٥٧٠ و١٥٧٤م، وهو متأثر بالطراز المعماري لكنيسة آيا صوفيا (الشكل).**



(شكل٢٦) جامع السلطان سليم الثاني في أدرنة

حافظت الفترات الإسلامية المختلفة على الشخصية الخاصة للقباب، التي تميزت بتأكيد الرمزية، وجمالية النسب والحجم المعماري، علماً أن القبة في العمارة الإيرانية تميزت بإضافة التوريق (الزخرفة النباتية)، واستخدام قطع القيشاني الذي يغلب عليه اللون الفيروزي في السطوح الخارجية. كما في قبة مدرسة الشاه سلطان حسين Chah Sultan Housein **في أصفهان** Isfahan**، العائدة لعام ١٧١٠م.**

القبة في العمارة المعاصرة والحديثة

استمرت عمارة القباب في التطور، ولم يتخل الفن المعماري عن هذا العنصر الوظيفي والجمالي، بل سُخرت كل الإمكانات المتاحة في العصر الحديث لإبراز هذا العنصر المعماري المهم..كما أن الوظائف المدينية

الجديدة، التي تتطلب فراغات كبيرة، قد أسهمت في تطوير القباب إلى درجة كبيرة، فالملاعب الرياضية، والمحافل الموسيقية، والمعارض الدولية (الشكل) تطلبت الاستعانة بهذا العنصر المعماري الذي واكب التاريخ البشري كشاهد على حضارة وعظمة الفكر الإنساني الخلاق، وقد أسهمت مختلف الحضارات في تقديم أنواع مختلفة تميز كل منها في هذا المجال، ولا ريب في أن المستقبل سيحمل المزيد من الإبداع في عالم القباب اعتماداً على الإمكانات الهائلة التي تقدمها البرامج الهندسية الرقمية digital في مجال التغطيات المعمارية.

ومن أشهر القباب في العمارة الإسلامية

أولًا: قبة الصخرة في القدس

تعتبر قبة الصخرة أقدم قبة إسلامية إذ يرجع تاريخها إلى عام (٦٦ ـ ٧٢هـ) أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي رصد لبناء مسجد قبة الصخرة خراج مصر سبع سنين حتى استوى له عملًا فنيًا فريدًا من نوعه زائدًا على أمثاله في الفخامة والبهرجة والإتقان، مما حمل جميع الذين اعتنوا بدراسته من المختصين إلى إطرائه إطراءً كبيرًا.

قال المستشرق الإنجليزي هاتير لويس: إن مسجد الصخرة بلا شك أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه البسيطة، لا بل إنه أجمل الآثار التي خلدها التاريخ. صمم ونفذ مسجد قبة الصخرة العالم المسلم رجاء بن حيوة، وهي لا تعتمد على الجدار الخارجي للمسجد، بل إن عقود

الأعمدة (البائكة المستديرة) في قلب المسجد هي الحاملة للقبة، وعدد تلك العقود ١٦ عمودًا وأربع دعائم.

وقبة الصخرة قبة خشبية مزدوجة أي هي عبارة عن قبتين متراكبتين: داخلية وخارجية، يتكون كل منهما من ٣٢ ضلعًا من الخشب على شكل القوس أو فص البرتقال، وهناك مسافة بين القبتين تسمح بمرور إنسان للخدمة، وتغطي القبة الخارجية ألواح من الرصاص، ثم ألواح من النحاس الأصفر اللماع، الذي يتلألأ وينعكس تحت أشعة الشمس على المنطقة من حوله بمنظر غاية في الجمال.

قطر قبة الصخرة من الداخل ٢٠ مترًا و٣٠سم، وارتفاعها ٢٠ مترًا و٥٠سم، وفوقها يرتفع هلال ضخم جميل، والقبة الحالية ترجع إلى عهد الخليفة الفاطمي الزاهر الذي جددها عام ٤١٣هـ ، وقد ذكر التاريخ أن رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام وهما اللذان أشرفا على بناء القبة رفضا قبول أجر على عملهما هذا، فأمر عبد الملك بن مروان أن تسبك الدنانير (١٠ آلاف دينار) صفائح تزين بها القبة، وفي قبة الصخرة من الزخرفة داخليًا ما يعجز اللسان عن وصفه والقلم عن الإحاطة به.

ثانيًا: قبة النسر في الجامع الأموي في دمشق:

سميت قبة الجامع الأموي في دمشق بقبة النسر تشبيهًا لها بالطائر المعروف، وقبة النسر من الأعمال التي تمت في عهد الوليد بن عبد الملك رحمه الله ضمن عمارته للمسجد الأموي، وقد قيل: إنها سقطت أول ما

بنيت فشق ذلك على الوليد، فجاءه بناء شامي ماهر لفت نظره إلى هبوط التربة، مما جعله يعيد بناءها ثانية على أساس قوي متين، ويبلغ قطر قبة النسر ١٦٫٥ مترا، وارتفاعها مع الرقبة ١٧.٥مترا، وارتفاعها من ذروتها حتى أرض الحرم ٤٣ مترًا. وتقوم قبة النسر على جملون معترض (سقف مثلث).

ثالثا: قبة مسجد السلطان أحمد (المسجد الأزرق) في إسطنبول:

وهذه القبة أنشئت بأمر السلطان العثماني الرابع أحمد الأول عام (١٦٠٩م -١٦١٦م) ردًا على تحدي القبة العظيمة لكنيسة (أيا صوفيا) الرومانية التي بنيت في عهد الإمبراطور جوستنيان ٥٣٧م، وقيل: إنها من عجائب الدنيا، ولا يمكن مضاهاتها، لذلك أمر السلطان أحمد المهندسَ الكبير محمد آغا تلميذ سنان باشا أن يبني له مسجدًا، يضم فيما يضم من الروائع قبة أعظم من قبة أيا صوفيا، فجاءت قبة مسجد السلطان أحمد (المعروف بالمسجد الأزرق) أعظم قطرًا منها: ٣٣.٥م (آيا صوفيا ٣١ مترًا)، وهي ترتفع عن الأرض ٤٣ مترًا، وتقوم على أربع قناطر (عقود) كبيرة، تتكىء على أربعة أكتاف ضخمة، يطلقون عليها أرجل الفيل، يبلغ قطر الواحد منها خمسة أمتار.

ويحف بالقبة في المسجد الأزرق أربعة أنصاف قباب أعطت المبنى إحساسًا بالانطلاق والانسيابية، وقد نثر المهندس محمد آغا حول القبة الكبرى والقباب الصغرى المحيطة بها نوافذ أحسن صنعها، وأتقن عقودها، وقدر نسبها وأبعادها، فأصبح المسجد يتلألأ بالضوء من خلال (٢٦٠)

نافذة موزعة على خمسة صفوف ومحلاة بالزجاج الملون، إن قبة مسجد السلطان أحمد واحدة من أعظم القباب في تاريخ المساجد ضخامة وزخرفة وإتقانا.

رابعًا: القبة الخضراء في المسجد النبوي الشريف

اشتهرت القبة الخضراء الشامخة فوق الروضة الشريفة (الحجرة النبوية) التي تضم جسد خاتم الأنبياء ﷺ ومعه صاحباه المخلصان المؤمنان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، اشتهرت شهرة لا مزيد عليها، لشرف مكانها وتعلق قلوب المسلمين بمسجدها، حتى أصبحت مغنى للشعراء، وملهمة للأدباء، ومثيرة للغرام، وعلامة من علامات دار السلام، قال أحدهم: وقد جددت هذه القبة الخضراء الموجودة حاليا عام ١٢٦٦هـ على يد المهندس حليم باشا مهندس قصور العثمانيين في الآستانة ومعه المعلم إبراهيم باشا كبير البنائين المصريين، وشارك في تزيينها من الداخل بأبهى أنواع النقش الخطاطُ التركي المشهور شكر الله، وكان المشرف على البناء إبراهيم باشا ابن مُحَّد على باشا، ويذكر أن الذي بناها لأول مرة السلطان المملوكي قايتباي، ثم جددها من بعده السلطان العثماني محمود الثاني.

العمارة الجنائزية (الأضرحة والقباب Funerary Architecture)

وقد لعبت القبة بشكل عام دوراً مهما كعنصر من عناصر العمارة العربية الإسلامية في تصميم المباني المعماريّة الجنائزية واتخذت أشكالاً

مختلفة، وقد بنيت أغلب القباب الضريحيّة ملحقة بمبان ريفية أو مساجد، وبعضها ألحق بمبان دنيوية أحيانا، وبنيت كثير من القباب الضريحية مستقلة أي غير ملحقة بأى عمائر، كما أن بعض القباب بني الى جوارها جوامع في تواريخ لاحقة.

إن أقدم مثل باق معروف حتى الآن للقباب الضريحيّة عامة والمستقلة منها خاصة هو الضريح المعروف باسم قبة (الصليبيّة) الذي بُني سنة ٨٦٢م (٢٤٨هـ) في سامرا بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة، ويشبه الضريح في تخطيطه تخطيط قبة الصخرة. وتعتبر قبة الصليبية أول قبة ضريحية في العمارة الإسلامية، تلتها قبة بضريح إسماعيل الساماني التي بنيت سنة ٩٠٨م (٢٩٦هـ) في مدينة بخارى الواقعة الآن في جمهورية أوزبكستان، ثم قبة ضريح الإمام علي بن طالب في النجف الذي بناه الحمدانيون سنة ٩٢٩م (٣١٧هـ).

أما أقدم القباب الضريحية الباقية في عمارة مصر الاسلامية فتوجد في جبانة أسوان، وبها بعض القباب التي يرجح أنها ترجع على ما قبل الفاطميين، أما معظمها فيرجع إلى العصر الفاطمي، ومن القباب الضريحية المستقلة التي بقيت في القاهرة من العصر الفاطمي القباب السّبع بالقرافة الكبرى، وقبة الشيخ يونس بقرافة باب النصر وقبة الحصواتي بقرافة الإمام الشافعي.



(شكل٢٧)

وقد استمر هذا التقليد الفاطمي المبكر في بناء القباب الضريحيّة، وظل مستخدما خلال العصر الايوبي ١١٧١ -١٢٥٠م والعصر المملوكي بدولتيه البحريّة ١٢٥٠ -١٣٨٢م والبرجية ١٣٨٢ - ١٥١٧م. أما القباب الضريحيّة التي بُنيت مُلحقة بالجوامع والزوايا فقد انتشرت في القاهرة ومدن مصر بعد دخولها تحت الحُكم العثماني ابتداء من القرن السادس عشر، وقد عُرف هذا التقليد في مصر قبل العصر العثماني خلال العصرين المملوكي البحري والبرجي، وكانت القباب تبنى في الركن الجنوبي للجامع أو الزاوية. وبنيت بعض القباب في الركن الشمالي ووجدت له أمثلة من أواخر العصر الأيوبي متمثلة في قبة الصّالح نجم الدين أيوب،

وفيه أمثلة ترجع إلى العصر المملوكي بدولتيه، وشغلت العديد من القباب الركن الغربي، كما بُنيت بعض القباب الضريحيّة خلف المحراب الجامع وتبرز عن جدار القبلة.

وفي كثير من الحالات كانت القبة الضريحيّة تشرف على داخل الجامع أو الزاوية من خلال فتحة يعلوها عقد مدبب، كان التخطيط النمطي المألوف للقباب الضريحية يتألف من غرفة مربعة بها المقبرة يعلوها قبة وفي صدر الغرفة محراب في اتجاه الكعبة، وكانت بعض الأضرحة تخلو من المحاريب. وكان بالضريح شبابيك أو خزانات حائطيّة، ويوجد مدخله إما في اتجاه المحراب أو في أحد الأضلاع الجانبيّة.

وإلى جانب هذا التخطيط النمطي للقباب الضريحيّة ظهرت في العصر العثماني أنماط أخرى، وقد جرت العادة أن تقام القبة الضريحية في الشارع الرئيسي ذلك أن الضريح كان يعد بمثابة رمز له مكانته، ومن ثم يستلزم أن يبنى في مكان بارز، وكان الوضع الأمثل لإقامة الضريح داخل المدينة هو أن يقام بحيث تكون واجهته في مواجهة الكعبة، ونادراً ما كان بحيث ذلك بسبب صُعوبة إيجاد قطعة أرض داخل المديرية يتوفر فيها هذا الشرط وهو مواجهة الكعبة.

ولإصرار الأمراء والسلاطين على تحقيق هذا الوضع فإنهم لجئوا إلى تشييد مبانيهم على الجانب الغربي من قصبة القاهرة، وهكذا كان الضريح في العادة يتجه ناحية الكعبة، وكان الاهتمام بالجوانب الدينية يضعف

أحيانا لتزايد العناية بأمور تخطيط المدينة فلم يتحقق لكثير من الأضرحة أن تتوجه بشكل ملائم ناحية الكعبة، فجاءت متسقة مع وضع المساحة المخصّصة للصلاة داخل المسجد.

ولدور القبة في إظهار أهمية المكان الذي تغطيه أقبل المسلمون في مصر منذ فجر الإسلام على تغطية الأضرحة التي بها قبور أهل البيت وأولياء الله الصالحين وكذلك الشخصيات المهمة من الخلفاء والسلاطين والأمراء حتى أطلق اسم الجزء على الكل وصارت كلمة "قبة" اسما للضريح بأكمله. وقد جرت عادة المسلمين في مصر على وجه الخصوص أن يزوروا أضرحة آل البيت وأولياء الله الصالحين في المواسم والاعياد الدينية وغيرها للتبرك بهم وإحياء ذكراهم، وأقاموا احتفالات دينية في مواعيد معينة توافق ميلادهم أو وفاتهم عرفت بالموالد.

ومن أشهر القباب الضريحية ومشاهد أهل البيت في القاهرة:

مشهد السيدة رقية:

تشبه طريقة انتقال هذه القبة الطريقة المستعملة في القبتين المجاورتين لها وهما قبتا ضريحي الجعفري وعاتكة إلا أن الاختلاف موجود في شكل النوافذ الموجودة بين المقرنصات، وتوجد زخرفة جميلة من الجص بأسفل النافذة الشمالية الشرقية، وتعتبر هذه الزخارف نوعاً من الأرابيسك في العصر الفاطمي.

وتوجد بين منطقة الانتقال والقبة رقبة مثمنة، وبكل وجه من أوجه هذه الرقبة نافذتان والقبة مضلعة من ٢٤ ضلعاً وهي في الواقع اكثر رشاقة وجمالاً من شكل القبة الموجودة في قبة السيدة عاتقة وتشبه من الخارج شكل القباب المضلعة في شمال إفريقيا أي شكل السنطاوي، وتنتهي أضلاع القبة الداخلية بخطوط ملونة.

مشهد إخوة يوسف:

يقع مشهد إخوة يوسف الذي يعرف أيضاً باسم مشهد المقطم (الربع الأول من القرن السادس هـ -١٢م)، بالقرب من مسجد اللؤلؤة، وفيه لوحة مكتوب عليها بالخط الكوفي "هذا قبر إبراهيم بن اليسع بن العيص من سلالة إبراهيم". والبناء صغير يشبه قبة الشيخ يونس خارج باب النصر فيما عدا عقود نوافذه ومقرنصاته فجميعها مدببة مطولة. يمتاز بوجود ثلاثة محاريب في جدار قبلته، تجمعها وتحيط بها إطارات زخرفية منقوشة بالكتابة الكوفية، كما يحيط إطار كوفي آخر بعقد محرابه الوسط، ويتوج هذه المحاريب الثلاثة عقود منفرجة، ينسب هذا المشهد إلى إخوة يوسف عليه السلام اليسع وبنيامين.

مشهد القباب السبع:

يرجع تاريخ الأضرحة إلى عام ٤٠٠ هـ - ١٠١٠م تقع في السهل الممتد قبلي ضرائب الفسطاط على بعد نصف ميل تقريبا إلى الغرب من ضريح الامام الليث بن سعد أربعة أضرحة صغيرة كانت لها قباب وقد

فقدت كل منها قبتها، وبعضها فقدت بعض أجزائها الكلية. والله أعلم، وكانت هذه الأضرحة في الأصل سبعة كما يدل عليها اسمها كما ذكرها المقريزي بأنها أضرحة لسبع بنات من عائلة المغربي الذي قتله الخليفة الحاكم بعد هرب الوزير أبو قاسم الحسين بن علي المغربي إلى مكة.

كما ذكرها ابن خلكان عام ٤٠٠هـ، وأهمية هذه الاضرحة من ناحية العمارة الإسلامية أنها تعتبر من أقدم الأمثلة الموجودة والأضرحة الأربعة كلها في حجم واحد إلا أن ارتفاعها يختلف قليلا، وكلها مبنية من ثلاث طبقات.

القبة الفاطمية:

تاريخ إنشائها حوالي ٥٢٧هـ/ حوالى ١١٣٣م، على عهد الخليفة الحافظ لدين الله، وتقع بشارع الجمالية تجاه خانقاة بيبرس الجاشنكير

قبة أبو الغضنفر:

قبة أبو الغضنفر الفائزي، بشارع الدراسة: (القرن الثالث عشر) أثر ٣، شيدت في أواخر العصر الأيوبي وهي مضلعة من الخارج مجوفة ما بين الأضلاع من الداخل، يطلق عليه بعض رجال الآثار مشهداً.

قبة أبو تراب:

تقع قبة أبو تراب بشارع بين الجناين من شارع أحمد سعيد بجوار السنترال بحي الوايلي – محافظة القاهرة يرجع تاريخ إنشائها للقرن ١٠هـ/ ١٦م، ومنشؤها سيدي أبو تراب.

قبة الحصواتي:

بني مشهد الحصواتي بالإمام الشافعي (منتصف القرن ٦ هـ – منتصف القرن ١٢) من الآجر مكون من طوابق ثلاثة، الطابق الأرضي، فطابق المقرنصات فالقبة الكروية الشبيهة هي ومقرنصاتها بقبة إخوة يوسف غير أنها لا تحوي طابقاً مثمناً بين المقرنصات والقبة. ويمتاز هذا المشهد بوجود طاقات محارية حول الواجهات الخارجية لطابق المقرنصات، كما يمتاز بمحرابه الجميل.

قبتا سيدي الجعفري والسيدة عاتكة:

قبة السيدة عاتكة والجعفري: بشارع الخليفة (٥١٤/ ٥١٩هـ – ١١٢٠/٢٥) أثر ٣٣٣. تقع هاتان القبتان (الضريحان) بجوار مشهد السيدة رقية، تمتازان بطرازين خاصين في بناء القبة. لها تقدير خاص عند المشتغلين بالعمارة الإسلامية فإنهما يعتبران المرحلة الأولى في تطور القبة إلى النوع المعروف بالقباب المحمولة على المقرنصات أو الدلايات. يحيط بمربع القبة أسفل المقرنص سطر مكتوب فيه بالخط الكوفي آية الكرسي، وحلي

عقد المحراب وتواشيحه بكتابات كوفية وزخارف جميلة تعلوه شرفة متشابكة.

قبة الشيخ يونس:

قبة الشيخ يونس تقع خارج بوابة النصر، وهو ضريح صغير قائم على مربع طول كل ضلع من أضلاعه الداخلية أربعة أمتار ونصف، وجدرانه سميكة، وبناؤه من الآجر المكسو بالجص، وفيه محراب مجوف بقيت من زخارفه كتابة كوفية، في إطار يمتد على جانبي الحراب ومحيط بعقده المنفرج، وعلى هذه الجدران أربعة أمتار، ثم يعلوها طابق ثان مثمن

قبة القاسم الطيب:

القبة لمشهد القاسم الطيب بن مُحَمَّد المأمون (الملقب بالديباج) ابن الإمام جعفر الصادق وهي موجودة في شارع الامام الليثي، بمنطقة الإمام الشافعي رضي الله عنه

قبة موفي الدين:

قبة موفي الدين بقرافة السيدة نفيسة (القرن ٥ هـ-١١م) كانت مكسوة بالزخارف الجصية، وقد انخفض بابها تحت مستوى سطح الأرض، مقرنصاتها الإيرانية جميلة وكذلك مبانيها التي شيدت بالآجر. تنسب إلى العصر الفاطمي (القرن ١١). الضريح نقشت عليه كتابات قديمة، تعرف

القبة بهذا الاسم وبها قبر الشريف مُحَمَّد بن جعفر بن مُحَمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

بقايا مشهد كلثم :

يقع مشهد السيدة كلثم (٥١٦هـ-١١٢١م) بجهة الإمام الليث، وهي من سلالة جعفر الصادق، وهي ابنة القاسم الطيب بن مُحَمَّد المأمون بن جعفر الصادق. عني بإنشائه الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، ولم يبق منه إلا المحراب الفريد الذي حوى دقائق لطيفة وقد ملئ تجويفه بزخارف متقاطعة ملأ فراغها " مُحَمَّد وعلي" بالخط الكوفي.

قبة يحيى الشبيهى:

يقع مشهد السيد يحيى الشبيهي بالقرب من الإمام الليث (حوالي ٥٣٠هـ – ١١٣٥م) وهو مشهد كبير احتفظ بقبته الكبيرة وبقبة فوق المحراب والقبة الكبيرة مضلعة من الخارج مجوفة الأضلاع من الداخل ومقرنصها من حطتين. بالمشهد عدة قبور لأفراد من أسرة الشبيهي عليها شواهد مكتوبة بالخط الكوفي منها ما يرجع إلى سني ٢٦١، ٢٦٣هـ (٨٤٧-٨٧٦م). صاحب هذا المشهد هو يحيى بن القاسم الطيب بن مُحَمَّد المأمون بن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر وقد توفي سنة ٣٦٣هـ.

صورة جمالية وتوازن الشكل

لقد ترك لنا الفنانون العرب في العصور الإسلامية إرثاً عظيماً في فنون العمارة، فنحن بحاجة إلى استيعاب مفردات هذا الفن الذي يصلح لكل زمن ممتد في تاريخ أمتنا، لكى نحافظ على شخصيتنا وهويتنا بين الأمم.

وتعد القباب التاريخية، من أهم روائع العمارة الإسلامية، حيث إن القبة في المسجد تعد أكثر من ظاهرة معمارية، وقد استخدمت لأهداف عدة، وقد ظهرت القباب في المباني على وجه العموم أول الأمر في آسيا، ثم انتقلت فيما بعد إلى بلاد الفرس واليونان فالرومان، قبل أن يتلقاها المسلمون، ولا يخلو طراز من طرز الفنون الإنسانية الكبرى من القباب إلا الطراز المصري القديم علمًا بأن أول قبة عرفت في الإسلام "قبة الصخرة" المشرفة التي بناها الخليفة "عبد الملك بن مروان" في بيت المقدس في فلسطين ما بين عامي ٦٩هـ ٧٢ هـ، ثم بعد قبة الصخرة بني "الوليد بن عبد الملك" المسجد الأموي بدمشق وفيه "قبة النسر" الشهيرة وذلك بين عامي ١٣٢ ـ ١٣٣هـ، ثم توالت القباب في المساجد، إلى أن وصل الأمر بأن أصبحت القبة في المسجد، بمثابة الظل الدائم للمئذنة فيه

إن للقباب موقعًا في المسجد لا يمكن تجاهله أو نكرانه، ومن التشويه لجمال المسجد أن نرفع فوقه مئذنة سامقة لا تجاورها قبة تمهد لامتداد المئذنة في السماء.

اللمسة الجمالية الخاصة بالفن الإسلامي كانت حاضرة منذ أول قبة شيدت في عمائر الأمويين ونعني بها قبة الصخرة، التي أمر عبد الملك بن مروان بتشييدها في العام ٧٢ هـ، فعلى الرغم من أنها جاءت قبة حجرية على هيئة نصف كرة، أي أن عقدها على هيئة نصف دائرة كما في المنشآت الرومانية والبيزنطية، إلا أن الزخارف الداخلية للقبة كانت حافلة بشتى أنواع الزخارف النباتية والهندسية، ناهيك عن استخدام الخط العربي كعنصر نفعي يسجل تاريخ الإنشاء، وقبل ذلك وبعده كأحد مفردات فن الزخرفة الإسلامي، ومما يؤسف له أن القبة الحجرية الأصلية لقبة الصخرة قد تداعت أركانها وتشعثت أحجارها بسبب الزلازل التي ضربت القدس بدءًا من عصر المهدي العباسي حتى لم تفلح محاولات ترميمها، واضطر المعماريون في نهاية المطاف إلى استبدال القبة الحجرية بهيكل خشبي مغطى بألواح أو رقائق معدنية مذهبة.

وأثرت الروح الزخرفية للفن الإسلامي في هيئات القباب الخارجية لتمنحها مظهرا مبهرا تتجلى روعته عندما تظهر الظلال مدى الإتقان الفني لزخارف القباب، حيث دفع فزع الفنان المسلم من الفراغ أي ترك الأسطح ملساء دون زخرفة إلى التخلي سريعا عن خوذة القبة الملساء واللجوء أولا إلى استخدام خوذات القباب المضلعة وهو ما نراه ماثلا إلى اليوم في قبتي ظلة القبلة بجامع سيدي عقبة بن نافع بالقيروان والتي يعود بناؤها إلى أواسط القرن الثالث الهجري «٩ م».

ويعود الانتشار الواسع لاستخدام القبة في العمارة الإسلامية والعناية بزخرفتها من الداخل والخارج إلى أن المساجد الجامعة الأولى اتخذت لنفسها من الجامع الأموي مثالاً يحتذى، وقد زود هذا المسجد منذ تشييده في عهد الوليد بن عبد الملك بقبة فوق بلاطة المحراب، وهو ما تطور لاحقا إلى استخدام قبتين إحداهما في أول بلاطة المحراب من جهة الصحن، والثانية فوق مربع المحراب في نهاية البلاطة وزاد الفاطميون بعد ذلك قبتين صغيرتين في طرفي رواق المحراب.

ومن اللافت للنظر أن القباب في المساجد قد ظهرت لتحقيق وظائف أساسية أهمها زيادة كمية الإضاءة والتهوية بمنطقة المحراب وتضخيم صوت الإمام عند وقوفه للقراءة أمام المحراب بأسفل القبة مباشرة، ولكنها سرعان ما أصبحت وظيفتها الزخرفية على ذات المستوى من الأهمية من ناحية الغرض الإنشائي؛ فتبارى المعماريون في إكساب الخوذات من الخارج مظهراً جمالياً متفرداً ومبتكراً، بينما ترك أمر الزخارف بداخل القبة للفنانين من المزخرفين والخطاطين.

لقد جاءت تعابير القباب في المساجد، عن صور جمالية تضفي على المسجد نوعًا من التوازن في الشكل الذي يستحبه النظر، وفي حالة ما إذا كانت القبة خارج المسجد وكأنها متجهة إلى أسفل فيه رمزا لتواضع المؤمن بين يدي ربه، فإنها من الداخل تعطي انطباعًا عكسيًّا، يعبر عن التصاعد والحركة الرأسية لأعلى، حتى يكون المؤمن وهو يعيش جو العبادة عمليًّا داخل المسجد محاطًا بالإيحاء والارتقاء والسمو، كما زادت القباب على

المآذن، من حيث استخدامها في غير المساجد، مثل القصور والأضرحة وغيرها.

وتوصف نقطة البداية، في عمل القبة بابتكار العقد أو القوس، وأصل ذلك من ابتكار آسيوي، ولكنه تطور على أيدي الفرس والرومان تطورًا واسعًا، ثم جاء المسلمين فصاروا بالعقود مدى أبعد وأكثر تنوعًا، ففي العقود ظهر أن قوة الدافع الحادثة من ضغط الأحجار بعضها على بعض، وكذلك من وزن البناء الذي سيحمل على العقد، وتتوزع في العقود على قطع العقد وأرجله، بصورة كاملة التوازن تنتهي باتجاه عمودي نحو الأرض، ويتضح بذلك أن القبة تنشأ من عقود متقاطعة في مركز واحد، ألا وهو المفتاح الرئيسي الأعلى للقبة كلها، وقد لجأ المعماريون المسلمون لإقامة القباب إلى العقود فقط، لأن سقف المسجد لا يحمل في العادة إلا القبة فقط

لشيوع استخدام القبة في العمارة الإسلامية فقد أصبحت معلما من معالم الحضارة العربية الإسلامية.. هذا وقد تطورت طرق إنشاء القباب على مر العصور تبعا للمواد الإنشائية المتوفرة في كل عصر.

خاتمة

تعد القباب التاريخية، من أهم روائع العمارة الإسلامية، والمُتأمِّل لجماليات العمارة الإسلامية القديمة يجد ثراءها بالتفاصيل والعناصر التصميمية التي تدل على براعة الفنان المعماري المسلم ودقة إتقانه في تصميم كُل فضاء بأهدافه الجمالية والوظيفية بدايةً من المساجد البسيطة المُسقفة وغير المُقبّبة حيثُ البساطة والتقشف في البِناء، وانتهاءً بالجوامع ذات التفاصيل والزخارف الهندسية والبنائية المُعقّدة.

واللافت للانتباه هو سلسة التطوّرات التي طرأت على عمارة القِباب في العمارة الإسلامية، حيث أنها كظاهرة معمارية لم تكن مألوفة في بداية تطوَر عناصر العمارة الإسلامية؛ وذلك لدواعي تتعلق بالعقيدة الإسلامية ومبدأ المساواة الذي أقرَه الإسلام بين المسلمين؛ إذ كان الظن السائد هو أن وجودها في البناء يعد مظهراً من مظاهر التفاخر والشَهرة والثراء الأمر الذي يتعارض مع مبادئ المساواة بين المسلمين، وهذا كان سبب نُدرتها في بدايات نشأة العمارة الإسلامية.

وأخيرا نأمل من الباحثين والدارسين المعماريين العرب والمسلمون في أقطار العالم أن يقوموا بوضع لمساتهم والاستفادة من تداخل الحضارات في اقتباس بعض الطرز المعمارية الحديثة والتفاصيل من عصور مختلفة لإضافتها إلى العناصر التصميمية في القبة ليزيد منظر المعمار إجلالا وجمالاً وأناقة، نحن أمة تحتاج لنهضة علمية وعملية حتى نسترد مجدنا وحضارتنا المفقودة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

١. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – المقريزي – القاهرة ١٩٩٦.

٢. آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسية – د.محمد محمد الكحلاوي – دار المسيرة – لبنان ٢٠٠٧.

٣. الآثار والفنون الإسلامية – د.عبد الله عطية عبد الحافظ – القاهرة ٢٠٠٥.

٤. الأزهر الشريف متحف الفنون الإسلامية – د.محمد زينهم – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩.

٥. أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضاري (القاهرة كحالة بحثية) – مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية ومركز إحياء تراث العمارة الإسلامية، لصالح منظمة العواصم والمدن الإسلامية ١٩٩٠.

٦. إعلام الساجد بأحكام المساجد – الزركشي – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية (الطبعة الخامسة) ١٩٩٩ .

٧. بدائع الزهور في وقائع الدهور – ابن إياس – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ .

٨. بناة القاهرة في ألف عام – عبد الرحمن زكي– الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ .

٩. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور – د.عبد المنعم ماجد – مكتبة الأنجلو ٢٠١٠.

١٠. تاريخ العمارة الداخلية الحديثة – جلال أحمد الشايب – عالم الكتب ٢٠١١.

١١. تاريخ المساجد الأثرية – حسن عبد الوهاب – أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٣ .

١٢. تاريخ وآثار مصر الإسلامية – أحمد عبد الرازق أحمد – دار الفكر العربى ١٩٩٩.

١٣. تاريخ ووصف الجامع الطولوني – محمود عكوش – دار الكتب المصرية ١٩٤٧.

١٤. تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي – د.عبد الرحمن زكي – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩.

١٥. التراث المعماري الإسلامي في مصر – مصطفي صالح لمعي – بيروت ١٩٧٠.

١٦. التصميم المعماري صديق البيئة – د.يحيى وزيري – مكتبة مدبولى ٢٠٠٣.

١٧. الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل – د.عبد الحليم عويس – الصحوة للنشر والتوزيع ٢٠٠٩.

١٨. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة – علي مبارك – دار الكتب والوثائق القومية (مصر) ١٩٩٤.

١٩. سيرة القاهرة – ستانلي لين – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

٢٠. الطراز المصري لعمائر القاهرة الدينية – مُحَمَّد حمزة الحداد – المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٠.

٢١. عجائب الآثار في التراجم والأخبار (تاريخ الجبرتي) الجبرتي – مكتبة مدبولى ١٩٩٥ .

٢٢. العمارة الإسلامية خصائص وآثار – أحمد السراج – غزة ٢٠١٥.

٢٣. العمارة الإسلامية في مصر – د.كمال الدين سامح – الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩١.

٢٤. العمارة الإسلامية في مصر – علياء عكاشة – بردي للنشر – الجيزة ٢٠٠٨.

٢٥. العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها – فريد شافعي – جامعة الملك سعود ١٩٨٢.

٢٦. فتوح البلدان – البلاذري – مؤسسة المعارف – بيروت ١٩٨٧.

٢٧. فتوح مصر وأخبارها وفتح إفريقية والمغرب والأندلس – بن عبد الحكم – دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠١٤.

٢٨. فقه العمران.. العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية د.خالد عزب – الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٣ .

٢٩. الفنون العربية الإسلامية في مصر د.عصام رزق – مكتبة مدبولى ٢٠٠٥.

٣٠. القباب في العمارة الإسلامية – صالح لمعي مصطفي – القاهرة ١٩٨٧.

٣١. **القباب في العمارة المصرية الإسلامية، محمد حمزة إسماعيل الحداد**، مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٣.

٣٢. القيم الجمالية في العمارة الإسلامية – د.ثروت عكاشة – دار الشروق ١٩٩٤.

٣٣. الكامل في التاريخ – ابن الأثير – دار الكتاب العربي – بيروت ٢٠١٢ .

٣٤. الكنوز الفاطمية – د.زكى مُحَمَّد حسن – مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٧.

٣٥. لسان العرب – ابن منظور – دار صادر – بيروت ١٩٩٤.

٣٦. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – سعاد مُحَّد ماهر – الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٧.

٣٧. المسالك والممالك – ابن حوقل – دار صادر، بيروت ١٨٩٢ .

٣٨. مقدمة ابن خلدون – ابن خلدون – دار نهضة مصر للنشر ٢٠١٤.

٣٩. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي) المقريزي – مكتبة مدبولي ٢٠١٠.

٤٠. موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية – د. حسن الباشا – دار أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٩.

٤١. موسوعة العمارة الإسلامية في مصر :من الفتح العثماني إلى نهاية عهد مُحَّد علي– مُحَّد حمزة الحداد – دار زهراء الشرق ١٩٩٨ .

٤٢. موسوعة عناصر العمارة الإسلامية د.يحيى وزيري –مكتبة مدبولي ٢٠٠٠.

٤٣. النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة – ابن تغري بردي – دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٩٩٢.

الفهرس